



Princeton University Library



32101 057497768

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.

هداية القرآن
لبنى الإنسان

مَوْجِبُ مَنَحِنَا لِنَفْسِ الْقُرْآنِ

تأليف

يحيى حميد الدردري

ذِكْرُ فِي الْحَقِّ وَلَيْسَانِيَّةٍ فِي الْمَلُومِ الْيَسَانِيَّةِ

المجلد الأول

يتضمن تفسير سورتي الفاتحة والبقرة
وهو الجزء الأول والثاني وبعض الثالث من كتاب الله الحكيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٧٠ - ١٩٥٠

العنوان : ١٢ شارع الملكة بالقاهرة



Dardani

هدية القرآن
لبنى الإنسان

مَوْجَزٌ مِنْ خُبَرِ نَفْسِ الْقُرْآنِ

تأليف

يحيى أحمد الدرويزي

ذِكْرٌ فِي الْحَقُوقِ وَلِلسَّانِيَةِ فِي الْعِلْمِ الْبَيَانِيَةِ

المجلد الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٥٠ - ١٣٦٩

المطبعة السلفية

تصنيف
العام
المجلد
١٨ / ١٠ / ١٩٥٦
(الفصل)

(RECAP)

BP130

4

D372

1950

1950

تفسير القرآن



موجز منتخب

وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ قَاتِلٌ غُيُوهٍ وَأَتَقُوا لِلَّهِ أَنْ تُصِغُوا ۝ فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا جَاءَنِي مِنَ الْكِتَابِ
وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ يَوْمًا كَثُورًا ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْتَرِبِينَ ۝ وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ يَوْمًا كَثُورًا ۝

بقلم الدكتور محمد عبد الله بن عبد الوهاب

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين

وبعد فإن القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، وهو عقد بينه وبين خلقه ، ورباط بين السماء والأرض ، فيه علم وإرشاد ، وهداية ورشاد ، ونظام ينظم حياة الإنسان في حركاته وسكناته ، وأقواله وأفعاله ، كما يضع نظام الأسرة والجماعة والحكومة والانسانية ، ويهديها إلى أقوم سبل السعادة .

يخبرنا القرآن الكريم — في بيان واضح وبرهان ساطع — أن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعاً للإنسان ، وخلق الإنسان مستعداً لتسخيره لمنفعته ، وأن العلم هو الوسيلة لخلافة الأرض وتسخيرها له ، بل تسخير مافي العالم من أرض وهواء وماء وسماء .

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب به خصمه ويدعوه إليه ، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح : قالوا بالدليل ، وطالبوا بالدليل ، ونهوا عن أخذ شيء من غير دليل وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة في الأمر .

وضرب لنا الأمثال من سير الغابرين ، لتكون عبرة لنا في حاضرتنا ومستقبلنا ، فاستخلف آدم عليه السلام في الأرض بعد أن علمه الأسماء كلها ، وعن طريق العلم استتب له الأمر ، وخضعت له الملائكة ، وسخر في خدمته نواميس الطبيعة . وجاء يوسف عليه السلام فكان رسول المال والجمال ، فزهّد في المال وعف في الجمال ، وأنقذ

مصر وما حولها من مجاعة أنت على الأخضر واليابس ، وهلك فيها الزرع ، وجف منها الضرع . وجاء داود عليه السلام فكان رسول الصناعة والجهاد ، والزهد والرشاد ، وانتصر على أهل البغي والفساد . وكان بعده سليمان عليه السلام ، وكان له من الملك ما لم يكن لأحد من قبله ولا من بعده ، فعلم منطق الطير ، وسخر له الريح ، وكان له من السلطان في عالم الشهادة والغيب فسخر الجن له . وجاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين من كانوا فيه المثل العالى لتحرير شعوبهم وأممهم من نير الاستعباد ، وهدايتهم إلى ما فيه الخير والرشاد ، وكان خاتمهم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فكان المثل الكامل في جميع نواحي الحياة البشرية : نبيا ورسولا ، زوجا وأبا ، صاحبيا ومرشدا ، محاربا ومجاهدا ، مقبيا ومسافرا ، في العسر وفي اليسر ، في الصحة والمرض ، في الحرب وفي السلم

كل هذا بيان واضح للسلم بأنه خلق ليكون سيدا في الأرض ، وخليفة الله على هذه اليابسة . فهم ذلك المسلمون الأولون . وكان البراءة حظ الرجل في العلم وتكاليف الحياة (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، والرجال عليهن درجة) وتلك هي الرياسة الرشيدة ، والزعامة السديدة . وأخذوا بأسباب الرقي في الهداية الخلقية العظيمة ، والعلم النافع ، وبذل النفس والثفيس في الدفاع عن الحق ، فسادوا الأرض وأضاءوا مشعل الحضارة في القرون الوسطى ، وأخذت عنهم أوروبا الكثير من علومهم ومعارفهم التي هي أساس حضارتهم اليوم .

ودارت الأيام دورتها ، واستنار المسلمون ، واشتغلوا بملذاتهم وشهواتهم ، فصرفهم عن الجهاد وبذل المال والنفس في سبيل الله ، أى في سبيل خيرهم وإسعادهم ، والحرص على حريتهم واستقلالهم . وقد أنذرهم الله تعالى وحذرهم وأوعدهم سوء المصير ، فقال تعالى : ﴿ هَاتِئْنَكُمْ هَؤُلَاءِ مَتَدَعَوْنَ لَشَفَعِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ : فَمَنْكُمْ مَنْ يَخْلُ . وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ السَّمِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

يخل الشبان بنفوسهم ، والأغنياء بأموالهم ، والعلماء بقدوتهم وعلهم ، وأصحاب

الجاه بجاههم ، وعاش كل عابدا لشهوته ، ضعيفا مستذلا في أمته . وكانت النتيجة أن نفذ الله وعيده ، وهذا هو الشرط الجزائي في كتاب الله لكل جماعة تنتكس عن هداية الله ، فغضب المسلمون في مصر والسودان والهند بالاستعمار البريطاني ، والمسلمون في شمال أفريقيا بالاستعمار الفرنسي والاسباني ، والمسلمون في اندونيسيا بالاستعمار الهولندي جزاء ما فرطوا . وهذا هو الاستبدال . نزع سيادتهم وحريتهم ، وذهبت لغيرهم بمن هم أقوى عزيمة ، وأشد شكيمة ، وأكثر علما وتضحية وبذلا

يجب أن يعرف مسلمو اليوم أن الاسلام دين الرجولة الكاملة ، لا دين الخنوة والميوعة المتبرمة . دين لإصلاح وتعمير ، لا دين لإفساد وتدمير . دين أعمال ، لا دين أقوال وجدال

عرف الاسلام بأنه دين الفطرة السليمة والمبادئ القويمة ، يدعو إلى التوحيد في سر ، وبأمر بالمعروف في هوادة ، وينهى عن المنكر في حزم ، ويأمر بالعمل الصالح في كل زمان ومكان ، لأنه دليل الايمان الصحيح وحجته الواضحة ، ويدعو إلى التضحية والبذل لقوام الهيئة الاجتماعية وسلامتها من عبث العابثين ، وبقائها قوية لا يطمع فيها المستهترون ، ولا يتناول عليها الطامعون

قوام الاسلام صحة الايمان وصالح الأعمال ، وقوام المسلم صدق اليقين والبذل لإعلاء كلمة الدين وان تكون كلمة الله هي العليا ، وما انتشر الاسلام ولا ساد المسلمون إلا بهذا ، وبهذا وحده اعتز الاسلام والمسلمون .

عرف الاسلام لنا طريق الحياة الكاملة ، وأعلمنا أن الجسم وقوامه الصحة والعافية لا تنال إلا بأطيب الطعام والشراب في غير تبذير ولا تقتير ، فأمر بأكل الطيبات من الرزق لنعمل صالحا ، وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (سورة المؤمنون) كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (سورة الأعراف) لتؤدى واجباتنا المادية والروحية ، كما أبان لنا الحياة الروحية وقوامها العلم والطهارة فقال تعالى ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (سورة طه) وكما قال تعالى ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا فَتَكُونُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة النحل) وقال أيضا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١﴾ (سورة البقرة) وهذا يشير إلى طهارة النفس والجسم معاً .

لما كانت العزة من أكبر معالم الرجولة ، وهى لا تقيم إلا فى النفوس المنيعه الموصوفة بالبذل والتضحية ، فرض على كل مسلم البذل والتضحية : بذل المال وتضحية النفس فى سبيل الخير والحق ومحاربة الشر وهزيمة الباطل .

فرض الاسلام على كل مسلم قادر أن يحمل سلاحه ويعد العدة لحماية نفسه ودينه وعرضه وماله ووطنه فقال تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة)

لحماية مبادئ الاسلام ونصرة المسلمين فرض لازم فى عنق كل مسلم قادر .
والجهاد فى سبيل الحق ونصرته أعلى مراتب العبادة ، وفيه أكثر آيات القرآن الكريم .

بذل المال والنفس هما قوام حماية الاسلام وعزة المسلمين ، اعتصم بهما المسلمون فى الصدر الأول فكملت لهم الرجولة ، وسادوا الدنيا ، واستخلفهم الله فى الأرض فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانْقُصُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة البقرة)

أمرنا الله تعالى فى صريح العبارة بأن ندفع عن أنفسنا العدوان ، ونبذل المال والنفس فى صيانة حقوقنا والاحتفاظ بحريتنا ومبادئنا ، وحذرنا من التهاون والبخل

لأنهما طريق الذل والاستعباد والتهلكة ، كما دعانا تعالى إلى الاحسان في العمل — أى وضع الأشياء مواضعها — وتقدير الأشياء في نصابها ، فى غير إسراف أو تقتير أو ظلم أو تفريط

والمعنى : إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأيد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم ، وفى سبب النزول عن أبى ايوب الأنصارى قال : نزلت هذه الآية فىنا معشر الأنصار لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سرأ : ان أموالنا قد ضاعت ، وان الله قد أعز الاسلام ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا ، وأنفقوا ، الآية ، وكانت التهلكة الاقامة على الأموال واصلاحها وتركها الغزو .

والامر بالاحسان على عمومه ، أى أحسنوا كل أعمالكم وأنفقوها فلا تهملوا إتقان شيء منها . ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

فالاسلام يدعو بصريح العبارة إلى الكرامة والذود عنها والقتال فى سبيلها ، ويعلمنا جليا أن الحياة ما هى إلا معركة دائمة لا يبقى فيها إلا الاصلح والاقوى ، فهو يدعو كل مسلم لأن يكون مصلحا ، ولأن يكون قويا ، حتى ينعم برجولته وحرية . وان تنازع البقاء سنة من سنن الوجود الخالدة ، وإن بقاء الأمل لا يكون إلا بالقوة والمحاولة فى نصره الحق والفضيلة والدفاع عنهما دفاع المستميت ، وبهذا يمكن حرم الفساد فى الأرض ، يعزز ذلك فى القرآن الاذن للسلين بالقتال فى سورة الحج ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ويعصمهم الله من غيرتهم وإن الله لى العزيز الحكيم ، ﴿ ولينصره الله من ينصره ﴾ ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ﴾ (سورة الحج)

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق وأنه ينتهى ببقاء الأمل وحفظ الأفضل .

وما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى في سورة الرعد :

(أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيلُ زبدًا رابيا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله ، كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل ، فأما الزبدُ فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه ، ويبقى الحق النافع الذي ينمو فيه العمران . وقد أوضح القرآن الكريم في كثير من الآيات أن الحق يزهر الباطل ، والحق صفة من صفات الله عز وجل ، وعليه قام الوجود ، وبه يبقى ، ومن غيره يفنى . فلا بد لهذا الحق من الانتصار والظهور مهما قويت عوامل الباطل وتراكت سحبه بعضها فوق بعض ، قال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) سورة الاسراء

فرض على كل مسلم قادر أن يستكمل عدة الكفاح في الحياة ابتغاء النصر ، وابتغاء أن يعيش عزيز الجانب ، عليه أن يقوى جسمه بمختلف الرياضة وانتقاء خير الأغذية وأحسنها ، وتجنب الأمراض وأسبابها ، وأن ينمي عقله وحياته الروحية بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل . وقد أبان القرآن الكريم كل الوسائل النافعة وأمر بها كما نهى عن الوسائل الضارة وهدى إلى اجتنابها فقال تعالى (أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) سورة النحل . هذه الآية وحدها كافية لأن تنير طريق الحياة الدنيا ، وتهدى إلى أعلى مقامات الرفعة والشرف ، وهى وحدها كافية لأن تكون أساس العمران وداعية للوئام ونشر السلام . فأى موجود لا يرى العدل فهو هالك .

إذا لم يقيم الإنسان العدل مع نفسه في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وحرركاته وسكناته فقد أفسد جسمه وأضعف روحه وهلك مع المسرفين . وإذا لم يقيم الإنسان العدل مع من حوله ومن يعامله حلت بينه وبينهم الخصومة والعداوة وامتدت إليه الأيدي بالأذى واستحوذ الهم والغم على نفسه بالتلف والعطب . وإذا لم يحسن الإنسان عمله فهو مرود عليه بالخسران .

إذا لم يحسن الانسان مع الناس فاصبوه العدوان ، فبالعدل تستقيم الأمور كلها ، وبالإحسان تبلغ درجة السكّال والنمو والزيادة ، وبالمعروف تتألف القلوب وترتبط برباط المحبة ، وبالبعد عن الفحشاء والمنكر والبغى تستأصل عوامل الشقاق والخلاف والحسد وأصول الفساد في الأرض .

ومن راعى أوامر القرآن الكريم واتبعها سلك منهج الرشاد ، وسار في طريق السداد ، وعاش في الدنيا سيداً كريماً ، وفارقها وهو على خير الصفات وأحسن الأخلاق .

مبادئ الاسلام تحقق في المسلم الرجولة الكاملة إذا اعتصم بها وعمل على حسب مقتضياتها .

فلا بد للمسلم الصادق من :

(١) التخلق بالفضيلة : الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، وانجاز الوعد ، وكتمان السر ، وحسن المعاشرة والمعاملة .

(٢) البذل والتضحية في النفس والمال في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وأن يحارب كل فساد وتدمير ، ويعمل على كل إصلاح وتعمير ، ويعمل على تحقيق كل خير لصالح المجتمع

(٣) الاعتصام بالله وبكتابه وهديه ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه . وقد قال تعالى ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراطٍ مستقيم ﴾ . سورة آل عمران بهذه الصفات والأخلاق ساد المسلمون في الصدر الأول ، واستخلفهم الله في الأرض ، فكانوا خير الخلفاء ، وأحسن الناس سيرة وأقومهم عدلاً .

ولكن هل المسلمون اليوم على هذه الصفات ؟

هل المسلمون اليوم قاثمون بما يفرضه عليهم دينهم ، فإذا حشدوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا ائتمنوا وفوا وكتموا ، وإذا عاملوا أحسنوا ، وإذا عاشرنا برؤا ؟

هل المسلمون اليوم يضحون بأمورهم وأنفسهم في سبيل الحق وازهاق الباطل

ونصرة الضعيف والمظلوم ؟ ويتعارفون على البر والتقوى ، ويبذلون فيما هو نافع ومفيد للصالح العام ؟

انظر إلى أحوال البلاد الاسلامية تر الباطل حقا والحق باطلا ، يضحى الأفراد بالمبادئ السامية في سبيل المال والجاء والشهوة الجاحشة وارواء النفس بأحط الشهوات .

أين هي الكرامة يامعشر المسلمين وقد غلبتم على أمركم وضاعت بلادكم واستعبدتكم شهواتكم وأنتم تعاملون في كافة أنحاء الدنيا معاملة الخسف والهوان ؟

أين هي الحمية للكرامة والحرية ، وقد سلبكم المستعمرون الحرية والاستقلال ، وصرتم تداولكم الأيدى الغاصبة كما يتداول القصاب ذبائحهم : يبيع ويشترى فيها وهي لا علم لها بمن يكون مالكمها ، ولم يكون ثمنها ؟

هل اعتصم المسلمون بكتاب الله الكريم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ؟

إن سنة العصر هي إتيان الفاحشة جهارا ونهارا :

١ — تفتح الخماير برخص رسمية ، ويحمى شارب الخمر بقواعد دستورية

ب — يباح الزنا ، ويستحسن الكذب ، ويكره الصدق ، وتصير الغيبة حديث المجالس ، وتعد الصلاة وفعالها من بقايا العصر القديم ، وبعبارة موجزة أحل الكثير من المسلمين ما حرمه الله ، وحرموا ما أحله الله ، وكرهوا القتال والنضال ، واستحبوا العمى والضلال على النور والهدى ، فأصبح المسلم لا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لارضاء شهواته بكل ما أوتي من الوسائل : صحت أو فسدت ، حرمت أو حللت .

حاد المسلمون عن طريق الله فضلوا .

اعتصموا بغير الله فذلوا .

غلبتهم شهواتهم فتخشعوا ، وأصبحت أخلاق الرجال أشبه بأخلاق النساء ، يبددون أوقاتهم في قيل وقال ، وإضاعة المال ، وفيما ليس فيه فائدة .

وقد حذرهم الله تعالى في غير آية أنه لا يستخلف في أرضه ضعيفا مختثا ولا جباناً

رعديدا ولا مفسدا يؤثر حب نفسه وحب المال والنساء على مرضاة ربه والدفاع عما أمر به ، ومن أخلد إلى حب الدنيا ورضى بها فقد أثر ذل الحياة على عزها ، وعرض نفسه لنزع مافي يده واستخلاف غيره . فقال تعالى منذرا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ لَا تَنْفَرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة التوبة

وقد حقق الله وعده في المنافقين في صدر الاسلام واستبدل بهم من هم خير منهم من المسلمين الصادقين الذين نصرُوا الاسلام وأعزوه ورفعوا رايته عالية .

وهذه سنة الله الخالدة لا يرث الأرض إلا من كان صالحا ولو كان كافرا ، ولا يذل ولا يستعبد إلا من كان غاملا مخنثا ولو ادعى الاسلام ولبس ثوب المصلين وتزين بحلة الصائمين وتزعم المتعبدين والمتعبدين

الاسلام دين ايمان وعمل ، لا دين رياء وكسل . دين حق وتضحية ، لا دين باطل ومجبنة . دين فتوة وإصلاح ، لا دين خنوة وافساد . دين أمانة وعفة ، لا دين خيانة وفجور . دين يرعى الباطن كما يرعى الظاهر ، فهو طهارة الأخلاق وطهارة الأجسام . يحارب الفحش ويمقتة ويبغض الرذيلة ويعلن الحرب عليها جهارا نهارا في غير خوف ولا وجل

الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ، هو رب قلوب لا رب مظاهر فارغة جوفاء ، أبان لنا عن سنة واضحة جلية من أخذ بها فاز وسلم ، ومن تركها خاب وندم . فليعرض المسلمون أنفسهم على كتاب ربهم اليوم يروا أن القرآن الكريم حجة عليهم لا لهم ، وأنهم حاربوا الله بالعصيان فباءوا في حياتهم بالفشل والخذلان ، فهم الفقراء في مالهم ، المستعبدون في أوطانهم ، الأذلاء في عشيرتهم وبين أولادهم ، بأسهم بينهم لا على عدوهم ، ليس لهم كرامة فترعى ولا دعوة فتستجاب ، استهانوا بحرمات الله واستباحوها ظلما وعدوانا ، فأهانهم وسلط عليهم من يسومهم الخسف والمجوان ، فهم أضعف من أن يحاربوا دودة القطن وهي أهون جنود الله ، سلطها على الأرزاق

فأكلتها ومحتتها، وسلط عليهم الأولاد والنساء وهى الناحية الضعيفة فى البنيان العالمى فأتلفوا المال والنفس، وسرى العطب والفساد إلى كل شىء فأصبح وبالا وخسارا، ومقتا وغضبا يبعث الألم والأسى. وهكذا إذا فسدت نفس الإنسان فسد معها كل شىء، وإذا صلحت صلح معها كل شىء، ومن خاف الله خافه كل شىء، ومن لم يخفه أخافه من كل شىء. ولو اتبع المسلمون دينهم حقا لتغير حالهم من إفساد وتدمير إلى إصلاح وتعمير، ولكانوا المثل العليا للمدينة الفاضلة التى لا تقوم إلا على الخير، ولا تفعل إلا الخير لصالح الوطن والانسانية جمعاء

ان ميزة الاسلام التى انفرد بها هى أنه يساير التطور ويطاول الزمن، فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدينة الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق

قال المسيو (بارتلى سنكلير) : « إن القرآن قد بقى أجمل أثر للغة التى نزل بها . ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الإنسانى . وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا بأن محمدا فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لا بد أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل تلك التعاليم هى التى رقت عقول الملايين من الناس . ولا تزال ترقى كل يوما شعوبا متأخرة بأشراؤها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيئية . ولن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح افريقيا كلها دائنة للإسلام . والمائة والعشرون مليوننا من المسلمين فى آسيا الذين يزدادون كل يوم عددا لأدلة حيوية على عظمة ديانة الله (يريد الاسلام)

لم يأت محمد لمكافئة التوراة والانجيل فإنه يقول بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس الى الحق ، وان تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما ولكنه لم يأخذ منهما

وقد رفض جميع الرموز والأساطير ودعا الى عبادة إله واحد قادر رحمن رحيم كما يصفه بذلك فى رأس كل سورة

وقد أمر بخمس صلوات فى اليوم ليضطر الإنسان للتخلى عن اشتغالاته المسادية لحيطات فى اليوم ايرتفع فى خلالها الى مولاه . وأمر أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، فان الله أعلم بما هو أصالح لنا . وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بمحصة من

لميراده . وتلك غير الصدقة الاختيارية . وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البتية التي كانت غير معترف بها الى عهده بمنعه أو تتهذيبه مبدأ تعدد الزوجات . وحى الاطفال بتحريم قتلهم تخلصا من إعالتهن ، وهى تلك العادة القديمة التي كانت منتشرة . ورعى حق الرقيق ، فأمر بمعاملته كمضو من الأسرة . وقد كان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين ، من أغنى الناس وأقواهم الى أفقرهم وأضعفهم . وحرم السرقة والقتل والاكره ، ومنع شرب الخمر والميسر

وقد أعلن محمد (ﷺ) بأن للانسان حياة مستقبلية فيها عقاب وثواب أديان ، ولكن رحمة الله تدع أملا للمذنبين في أن لا تكون عقوباتهم أبدية

الى أن قال : ان الدين الاسلامى قد أحدث رقا عظيما جدا في تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الانسانى من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد بين أيدي الكهنة من ذوى الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، يجازى فيها على أعماله . وباله واحد يمكنه أن يعبد ويرتفع بروحه اليه دون أن يضطر لتوسيط وسيط . . .

ثم إن محمدا بتحريره للصور في المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الانسانى من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والشكر والحب

ان الناس لم يلتفتوا للترقى العظيم الذى أوجده الاسلام من الوجهة الأدبية . فأن ذلك الترقى تحقق بعيدا عنا في أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة لانهم ليس لديهم مثل أفكارنا ولا عقائدنا . ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العلمية والعقلية . ولكن مع هذا كله يجب الاعتراف بان هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لأنارة عقول أمم

والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبي يظهر لنا أنه أعظم ما يدركه الانسان عن العلاقات التي يجب أن توجد بين الانسان وخالقه ، وأكثرها انطباقا بين الطبيعة والمنطق ، (١)

(١) منقولة عن (مجلة الازهر) المجلد الرابع ص ٣٦٤ وما بعدها

وكتب الاستاذ مارسيل كابى وهو من أشهر كتاب فرنسا فى جريدة (لافلش)
التي تصدر فى باريس عن القرآن ما يأتي : « القرآن » كتاب موحى به ، وهو يفوق
ما عرف من هذا النوع كثيرا ، فان العقيدة الروحية التي يبثها تصلح أن ينعكس نورها
على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الاسلام وسماحته ووحدته

و « القرآن » باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق يحمل للناس بدون سفسطات
بيانية ولا خيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعى الذى يخضع كل فرد
لمراعاة أدب الاجتماع . ويفرض على الجماعة حماية الأفراد ، وهو بهذا الأسلوب
يوافق فى جوهره أحدث القواعد الاجتماعية العصرية

وكتابه قد نظم حرد و حياة كل فرد و حياة المجموع

فهو يتناول الإنسان من يوم ميلاده ويتبعه الى يوم وفاته مراعى كل صغيرة
وكبيرة من حياته : غذائه وطهره وصلواته المصحوبة بحركات متناسقة ، وصومه
السنوى المطهر فى شهر رمضان ، وزواجه وطلاقه ، وواجباته البيتية والاجتماعية ،
اى ما يجب على كل فرد للجماعة ، وما يجب على الجماعة لكل فرد ... (١) ، الخ

رب قائل يقول : اذا كان الاسلام كما تقولون فلماذا تأخر المسلمون وهذا كتابهم
بين أيديهم لم يتغير ولم يتبدل ؟ ! الجواب : ان الذى وقف فى سبيل تقدم المسلمين
هو جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وإعراضهم عنه ، وانفاسهم فى الشهوات
والملاذات ، فباعوا دينهم بدنياهم ، وعاش كل لنفسه ، لأن الاسلام سهل مرن صالح
لكل زمان ومكان لا يتمرد على الطبيعة ولا يقف حجر عثرة فى سبيل التقدم والحضارة
الحقة ، بل على النقيض من ذلك يدفع بمعتقديه الى أن يتبوءوا ذروة المجد ليكونوا
فى مصاف أرقى الأمم حضارة ومدنية .

قال أحد المفكرين الفرنسيين المنصفين المسيوديينه يصف طبيعة الاسلام : « لا
يتمرد الاسلام على الطبيعة التي لا تغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها

(١) قل عن العدد الصادر فى ١٧ ابريل سنة ١٩٣٧ من جريدة لافلش التي تصدر فى
باريس بتوقيع مارسيل كابى مترجمة بمجلة الأزهر مجلد ٥ ص ٢٧٩

على أن الاسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وتطبيقا في إصلاح ونظام ورضاء ميسور مشكور ، حتى لقد سمي القرآن (بالهدى) لأنه المرشد الى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على حسن مقاصد الخير ،

وقال الدكتور هورتن الألماني : لا نجد بالاسلام سدا يمنع نفوذ الثقافة الغربية اليه ، بل نرى أن له استعدادا غير محدود لقبول الثقافة ،

والنقل للقارىء نبذة مما كتبه الاستاذ الأمريكى الشهير (درابر) في كتابه (التنازع بين العلم والدين) :

قال جيمون (عند ذكر الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم) : كان أمراء المسلمين فى الاقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار (١٦٠٠٠٠ جنيه) لتأسيس كلية علمية فى بغداد وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير .

فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكسفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ، ويعطون الاساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة . وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدا لحاجة العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب ، (١)

هذه نبذة صغيرة من تاريخ الاسلام نحو العلم والتعليم يوم أن أخذ المسلمون بتعاليمه واتباع هدايته ، وليراجع من أراد الكتاب الذى ألفناه « مكانة العلم فى القرآن » اذا أراد المزيد

وقال مستر ولز الانكليزى أكبر مؤرخى هذا العصر :

(١) « مكانة العلم فى القرآن » تأليف الدكتور يحيى أحمد الدرديرى ص ٨٣

د كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به . لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنباً الى جنب فهو شر مستطير على أصحابه يجرهم الى الهلاك . وان الديانة الحققة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الاسلامية . واذا أراد الانسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن .

ان كثيراً من أنظمته تستعمل في وقتنا هذا . وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة . واذا طلب منى أحد القراء أن أحدد له الاسلام فأنى أحدهه بالعبارة التالية : الاسلام هو المدنية . وهل في استطاعة انسان أن يأتي بدور من الادوار كان فيه الدين الاسلامي مغايراً للمدنية والتقدم ؟

وان محمداً هو الذي استطاع في مدة وجيزة لا تقل عن ربع قرن أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب وأن يكبح جماح امة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها . واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتباع آثار آبائها . ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الامة العربية على أمرها . فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر بها خصومه هي من عند الله ؟

أساس الإصلاح الذي ندعو اليه جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها هو أن يكون القرآن الكريم قبلتهم للتخلق بأخلاقه ، وأن يأخذوا ما يصلح لهم من وسائل المدنية الغربية الحديثة وغيرها في الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم ، وما يرقى شأنهم ويعلى قدرهم ويحفظ مجدهم ويبقى حقهم

فإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا ما كان لهم من عز وسلطان ، وأن يكونوا خلفاء الله في الأرض ، فليصطلحوا مع ربهم ، وينفذوا ما جاء في كتابهم ، وذلك بإصلاح نفوسهم ، والتوسل إلى رقى أمهم بالعلم والعمل ، والجهاد في سبيل حريتهم واستقلالهم ، وتقوى الله في سرهم وعلائيتهم ، وإقامة العدل بينهم وبين مواطنيهم ، ورحماء بكل من سالمهم من انسان وحيوان .

ولهذا كان لزاماً على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ كتاب الله ، وهو العقد (الكسترا نو)

يدنه وبين خالقه ، وينفذ ما جاء فيه من أمر ونهى ، كي يسود في الحياة عن معرفة بطرق علاجها وحل مشاكلها .

وقد وضعنا هذا التفسير الموجز بعد ، وهو منتخب من تفاسير علمائنا الاعلام وفقهائنا الكرام ، وقد اقتصرنا فيه على هداية القرآن التي هي الغرض الاول ، وتركنا ما عداه من نحو وصرف وبلاغة وبيان ، حتى لا نصرف ذهن القارىء عن الهدف المقصود من الهداية .

وإن معاني القرآن عامة وشاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصا مخصوصين ، وإنما يخط وعده وتبشيريه بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب ، سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وإذا كان الدين ضروريا لكل إنسان وفي كل زمان ، فنحن الآن في أشد الاحتياج إليه كاحتياجنا للماء والهواء والغذاء ، إن الدين طمأنينة العاطفة ، إنه الملجأ من العاصفة ، ومصائب الدنيا بدون الدين فراغ وجفاف وخداع ويأس . ومن مزايا الدين أن يربطنا بمن حولنا في العالم رباطا محكما يسيطر عليه الخالق ، ويربط دياننا بآخرتنا في نظام شامل ، وهذا من غير شك مبعث أنس وطمأنينة لا يشعر بهما الكافر الملحد . فاذا وفقنا إلى ما نرمى إليه فذلك فضل الله ، ويرجع ما علمنا إلى أصحاب الفضل من سادات العلماء السالفين جزاهم الله عنا خير الجزاء ، وإلا فاستغفر الله فيما قصر عنه الفهم وزل فيه القلم ، وكفاني حسن القصد وشرف الغاية ، والله أسأل الهداية والتوفيق لما فيه خير الاسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء والحمد لله رب العالمين .

الدكتور يحيى أحمد الدردري

سورة الفاتحة

مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الحمد لله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) ملك يوم الدين (٤) إياك نعبد وإياك نستعين (٥) اهْدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)

التفسير

﴿بسم الله﴾ قيل : المراد تضمين الاستعانة ، فتقديره استعينوا بأن تسموا الله بأسمائه الحسنى ، وتصفوه بصفاته العلى . وقيل : المراد استعينوا بالله ، أى باسم الله أقرأ وأتلوا ، لأن الذى يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر اذا حل او ارتحل فقال باسم الله والبركات كان المعنى باسم الله احل وباسم الله ارتحل . و ﴿الله﴾ علم لذات الواجب الوجود ، ولم يطلق على غيره . و ﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من الرحيم . والمعنى تعاليم العباد كيف يتبركون باسمه وكيف يحمّدونه ويمجّدونه ويعظمونه .

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، فهو سبحانه يستحق الحمد باجمعه . إن الله سبحانه وتعالى يحمّد لذاته باعتباره أنه مصدر جميع الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعيم . ويحمّد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها فى الوجود . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له والاقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

(رب) معناها السيد المربي الذي يسوس مسوده ويريه ويدبره .

(العالمين) جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى . وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى انه رب كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم . والعالم للغيب والشهادة وما تبصر وما لا تبصر من أرض وسما ومانس وحيوان ونبات وجماد وملك وجان ما علمت وما لا تعلم . والله سبحانه هو المحيط بجميع هذه العوالم (قال فرعون وما رب العالمين) فاجابه موسى عليه السلام (قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) وقال تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (رب العالمين) قال : إله الخلق كله ، السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم وما لا يعلم .

ومعنى الآية : ان الاوصاف الجميلة والثناء الحسن كلها لله الذى تحق له العباداة لكونه قادرا على أصول النعم وفاعلا لها ، ولكونه منشئا للخلق ومربيا لهم ومصالحا لنشأتهم . وفى الآية دلالة على وجوب الشكر لله على نعمه ، وفيها تعليم لعباده كيف يحمده .

(الرحمن الرحيم) قال القرطبي : وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم ، كأن اتصافه رب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمتع ، كما قال تعالى (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وان عذابى هو العذاب الأليم) . و (الرحمن) هو المفيض بالنعم بسعة وتجدد لا منتهى لها و (الرحيم) الثابت له وصف الرحمة لا تزياله أبدا ، فربوبية الله ربوبية رحمة وإحسان ، وهذا ما يجعل الخلق يقبلون على اكتساب مرضاته منشحة صدورهم ومطمئنة قلوبهم .

(مالك يوم الدين) يوم يدين الله العباد بأعمالهم ، لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا ، والله سبحانه ملك يوم الجزاء وهو الآخرة (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) وهذا هو يوم القيامة يدين الناس بأعمالهم : إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر ، إلا من عفا عنه .

وهذه الآية دالة على إثبات المعاد ، وعلى الترغيب والترهيب ، لأن المكلف اذا تصور ذلك لا بد أن يرجو ويخاف

(إياك نعبد) أى نخصك بالعبادة ، ولا نعبد إلا إياك ، فلا يعبد غيرك ، وليس لمخلوق طاعة في معصيتك

(وإياك نستعين) . وبه وحده يستعين الانسان على ما عجزت قدرته عن أدائه ، وعلى النجح فيما قدر عليه . أى وإياك نستوفى ونطلب المعونة على عبادتك ، وعلى أمورنا كلها . والتوفيق هو أن يجمع بين جميع الأسباب التى يحتاج اليها فى حصول فعل .

(اهدنا الصراط المستقيم) أى الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، أى ومنه يطلب الهداية الى الطريق المستقيم ، وهى سبيله وأحكامه ، وجملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وتعاليم .

(صراط الذين أنعمت عليهم) بالايمان الصحيح ، والعمل الصالح ، وثمرتهما وهى سعادة الدارين . أولئك المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، أى صراط الذين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك .

(غير المغضوب عليهم) المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرفا عن الدليل ، ووقوفاً عند التقليد ، بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير ، ومنهم المنافقون والمشركون . قال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) ومنهم اليهود كما ورد فى الحديث الصحيح . وغضب الله فسروه بلازمه وهو العقاب ، وقيل هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك اذا غضب على من تحت يده .

(ولا الضالين) والضلال فى لسان العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، وأولئك هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على وجهه الصحيح

الذى يقرن به العمل . قال تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ ومنهم النصارى كما ورد في الحديث الصحيح . ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها « آمين » ومعناها : اللهم استجب .

اشتملت هذه السورة الكريمة - وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبده الى سؤاله والتضرع اليه والتبرؤ من جوهلم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالالهوية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مائل ، وإلى سؤا لهم إياه الهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك الى جواز الصراط يوم القيامة المفضى بهم الى جنات النعيم فى جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة وهى كثيرة متعددة من إصلاح النفس والولد والبيت والوطن والانسانية حتى ينعم الإنسان بسعادة الدنيا والآخرة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يخرم مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

سورة البقرة

مدنية ، إلا آية ٢٨١ فنزلت بمضى في حجة الوداع

عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

التفسير

(الْم) اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ، ف قيل : هي سر
الله في القرآن . والله في كل كتاب من كتبه سرّ ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله
بعله . ولا يجب أن يتكلم فيها . ولكن تؤمن بها وتقرأ كما جاءت .

وقيل : ذكر الله تعالى هذه الحروف احتجاجاً على الكفار ، وذلك أن الرسول
صلوات الله عليه لما تحداهم بأن يأتيوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة
واحدة فمجزؤا عنه ، أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه
الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا
بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر .

وقيل : ان الله تعالى أقسم بهذه الحروف المعجزة لشرفها من حيث أنها أصول
اللغات ، بها يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحدونه . واقتصر على البعض والمراد الكل

كما تقول قرأت الحمد وتريد السورة كلها ، وأقسم الله بها أن هذا الكتاب هو المثبت في اللوح المحفوظ

وقيل : انها أسماء للسور ، وقيل غير ذلك

(ذلك الكتاب) أى كتاب معروف معهود للنبي ﷺ بوصفه ، وذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب تام كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد في جميع شئون المعاش والمعاد . فأشار بذلك إليه (١) .

والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوَّال . والبعد والقرب في الخطاب الإلهي إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين .

(لا ريب فيه) أى لا شك فيه ، ولا ريبه تعتريه ، لا في كونه حقاً لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا من جهة كونه من عند الله تعالى وفي كونه هادياً ومرشداً

(هدى للمتقين) المراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم للجميع والقبول من المتقين . (والمتقون) الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به أى بامثال أمره ، واجتناب نهيه ، وانقاء عذابه وعقابه .

ولما وصف القرآن بأنه هدى للمتقين بين صفة المتقين فقال : -

(١) هذه الإشارة ذكرت في عدة مواضع من القرآن الكريم فقد جاءت في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما كان يرفع الفوائد من البيت (يعنى الكعبة) اذ قال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) وقال ﷺ : أنا دعوة إبراهيم ، وقال تعالى في موضع آخر من سورة البقرة (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)

(الذين يؤمنون بالغيب) الإيمان : هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان

(والغيب) ما غاب عنه كذات الله تعالى وملائكته والدار الآخرة

(ويقيمون الصلاة) إقامة الصلاة : الاتيان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب

وقوام الصلاة الذي يحصل بالإقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقي له والإحساس بالحاجة إليه

(وبما رزقناهم ينفقون) الرزق ما انتفع به . والانفاق (الصرف) هنا يشمل التفقة الواجبة على الأهل والولد بالعدل والقسطاس ، وصلة ذوى القربى . وصدقة التطوع ، وهذه تكون للفقراء والمساكين أو لمصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة كبناء المدارس لمحاربة الجهل والمستشفيات لمحاربة المرض وإنشاء مهمات تعاونية ومؤسسات اقتصادية لمحاربة الفقر حتى تكون الأمة عزيزة الجانب قوية السلطان ، والله العزة ورسوله وللمؤمنين

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) والذين يؤمنون بما أنزل إليك : ويراد بالإيمان الإيمان التفصيلي لكل ما أنزله الله تعالى في القرآن على محمد ﷺ (وما أنزل من قبلك) فيكفي فيه الإيمان الإجمالي بالكتب والرسول . وفي هذا دلالة على أن كل الأديان السماوية دعت إلى التوحيد ، وأن مصدرها واحد وهو الله عز وجل ، وأن القرآن جاء يدعو لربط الإنسانية بعضها ببعض

(وبالآخرة هم يوقنون) المراد به الحياة الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ويتضمن كل ما وردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة والنار . و (اليقين) هو الاعتقاد المطابق للواقع الذى لا يقبل الشك ولا الزوال

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أولئك أى الذين هذه صفتهم

على هدى من ربهم . هذه الآية للفرقة الأولى ، فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا بما رزقهم الله فهم على رشاد ونور من ربهم . وأما الفرقة الثانية ، وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشتبك فيه الفرقة الأولى لكن على وجه أكل لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله على هدى تعبير يفيد التمكن من الشيء . كتمكن المستقيم عليه . وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية « أولئك هم المفلحون » كما هو ظاهر وهم المفلحون (الفائزون) بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة ، وعلى هذا يكون المعنى : أولئك هم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة

*

وأهداف القرآن في هذه الآيات المتقدمة :

(١) انجاز وعد الله لرسوله ولمن سبقه من الرسل بارسال كتاب فيه هداية وإرشاد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا شك فيه ولا فيما نزل به (انظر آية ١٢٨ و ١٥٣ من سورة البقرة)

(٢) تقسيم أصحاب الفطرة السليمة الذين تقبلوا هداية إلى قسمين :

(أ) أهل الكتاب في وصفهم الله تعالى بالإيمان بالغيب والقيام بما أمروا به من صلاة وزكاة ، ولما جاءهم ما عرفوا (القرآن) آمنوا به

(ب) وغير أهل الكتاب ، وهم الذين صدّقوا بالقرآن وما جاءت به الكتب السماوية من قبله وباليوم الآخر

(٣) هذه الهداية التي تقبلها المتقون بالتصديق والعمل بما جاءت به لهم كانت طريق الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

التفسير

(إن الذين كفروا) هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن .

والكفر : ستر الشيء ، وتغطيته ، وإخفاؤه . والكفر هنا عبارة عن جحود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله ، أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبي الذي جاء به ، وبالجمل جحود ما علم من الدين بالضرورة .

والمعنى : أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو أحد من الرسل فهو كافر . نزلت في مشركي العرب وقيل في اليهود

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) والمعنى أن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المؤمنين الذين تقبلوا الحق لما جاءهم لرسوخهم في الكفر ، يستوى الإنذار وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع . والإنذار : إعلام مع تخويف

(لا يؤمنون) هذه جملة مفسرة لتساوى الإنذار وعدمه في حقهم ، أي لا يصدقون ولا يذعنون لما جاء به القرآن الكريم

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ختم أي طبع هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي

تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الايمان ومحاسنه ، ختم الله على قلوبهم فلا يعقلون ولا يدخلها غير ما رسخ فيها ، وخص القلب بالختم لانه محل الفهم والعلم وهو لب الانسان وآلة عقله وشعوره . وعلى سمعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه . والغشاوة ما يغطى به الشيء . والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة والدالة على الايمان .

وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لانه ييسان لسنته تعالى في أمثالهم ، وعبر عنه بالماضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ولا على منع الله تعالى لإياهم فيه بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تجرئهم على الكفر وأعماله في قلوبهم ، بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره كما تقدم . ولذا لم يسند الغشاوة إلى فعله سبحانه حتى لا يكون هو سبحانه منهم من إبطار آياته ، ولكن أهواهم منعتهم

(ولهم عذاب عظيم) ان الأعراض عن هدى الاسلام وما أرشد اليه من إصلاح المعاش والمعاد جزاؤه الضنك وفقد العزة والسلطة في الدنيا والعذاب العظيم في العقبى وعظمة العذاب ، أى أنه بالغ حد العظمة كماً وكيفاً ، فهو شديد الايلام طويل الزمان .

ينقسم الناس إزاء هداية القرآن إلى أقسام ذكرنا منها ثلاث فرق ، فرقتان لهما فيه هدى - إحداهما المتقون ووصفهم بأنهم (الذين يؤمنون بالغيب) إلخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفين ، والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون لمشرق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . والثانية هي المذكورة في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) إلخ ، وهم كل من آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق .

ويوجد بازاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن ، الأولى منهما هي المشروح حالها في قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) إلخ ، وهم الذين غلبتهم شهواتهم على أمرهم فعاشوا في أسرها فطمست نور بصيرتهم فعموا عن طريق الهداية ولجوا في طريق الغواية والضلالة وهي كما قدمنا

وتنقسم إلى قسمين : جاحدين لا يسمعون ، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون . وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها هي المبينة لحالة الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

ومدلول الآية أن من أظهر الإيمان — واعتقاده بخلافه — لا يكون مؤمنا ، لأن الإيمان لم يكن له أثر في أخلاقهم وأعمالهم ، فصلااتهم وصدقاتهم إنما مبعثها رثاء الناس وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك ينغمسون في الشرور كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التي حكاها عنهم الكتاب ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يحب ويرضى

(يخادعون الله والذين آمنوا) والخداع العمل الظاهر الذي لا يصدق الباطن ، إذا قصد به إرضاء آخر . ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالا فسروا بخادعتهم الله هنا وهناك بأنها خداع في الصورة لا في الحقيقة ، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة ، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار ، وخادعتهم للمؤمنين ، لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم .

(وما يخدعون إلا أنفسهم) لأن ضرر عملهم خاص بهم ، وعاقبته وبال عليهم وحدهم

(وما يشعرون) أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم

فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته فاعتقاده إنما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ في مقال ، ودعوى عند جدال . فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، خادع لربه ، يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافي القلوب ، !

(في قلوبهم مرض) أي ان نفوسهم خرجت عن حد اعتدالها ، وأصيبت بما يخل كمالها من نفاق وجمل وارتياب وشك .

﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ بعد ما جاءهم الهدى من ربهم ، ووجدوا من زعره في أنفسهم . ولكن أخذتهم العزة بالاثم فأبوا الايمان ، ونأوا عن القرآن . وقد كانت الآيات تنزل ترى أى آية بعد آية ، فكلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفرا ونفاقا

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب مؤلم فوق هذا المرض .

﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ فى دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ، فإنهم لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه فى حالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَأْمُونًا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ مَأْمُونًا قَالُوا مَأْمُونًا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدْ فِي طَغْيِهِمْ يَجْعَلُهُمْ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجْرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

التفسير

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين . وقيل اليهود ، والمعنى اذا قال لهم المؤمنون ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بصدكم عن سبيل الله من آمن ، وطعنكم فى الدين ، وتنفير الناس عن اتباع محمد والاخذ بما جاء به من الاصلاح . وأى افساد فى الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ؟

﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ والمعنى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ إِذَا رَكِبُوا مَعْصِيَةَ اللَّهِ وَقِيلَ لَهُمْ لَا تَفْعَلُوا كَذَا وَكَذَا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ عَلَى الْهُدَى مُصْلِحُونَ

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردأ عليهم وتكذيباً لهم . أى هم الذين آثروا الباطل على الحق وصدوا الناس عن الهداية ودعوههم الى الضلالة

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فان هذا إفساد غرز في طبائعهم بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم . فهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد ، وقيل لا يشعرون بما أعد لهم من العذاب وسوء الخاتمة في الدنيا والآخرة

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدقوا بمحمد ﷺ وشرعه كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ السفه معناه الطيش وخفة العقل وضعف الرأى ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبي ﷺ ومؤمنى أهل الكتاب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ أى وحدهم دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه .

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقصود عليهم .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ كان أو أشك النفر يدهنون في دينهم ، فإذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا بما أتم به مؤمنون ، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الفساد وأنصار الباطل الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوسوس والاهوام .

﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ أى إنا معكم على عقيدتكم وعملكم ، وإنما نستهزئ . بالمسلمين ودينهم ، فكشف القرآن هذا التلون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم وفضح بهتانهم فقال ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ، فسميت العقوبة باسم الذنب

﴿ وَيَمْدَحُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ العمه عى القلب وظلمة البصيرة والحيرة في الكفر أن يطيل لهم المدة (الارخاء) ويمهلهم في ضلالهم وكفرهم متحيرين

متردين ، ايزدادوا طغيانا فيزدادوا عقابا .

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أولئك القوم يعنى المنافقين اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة عاجلة لهم بازائها يبتغون الحصول عليها من الناس ، وليس أخس من يشتري الضلالة بالهدى ، فخرانه مضاعف بما فقد وبما أخذ (فما ربحتم تجارتهم) التجارة هنا هى المشار إليها باشتراء الضلالة فى الدنيا ، إذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خابوا وخسروا باهمالهم النظر الصحيح الذى لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به

(وما كانوا مهتدين) أى مصيبين فى هذه التجارة ، لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التى زجوا أنفسهم فيها .

مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ (١٧) صَمَّ بَكَمْ عَمَى فُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْأَبَهُمْ فِي مَا دَانَهُمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

التفسير

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) المثل والمثيل ، كالشبه والشبيه ، وهو عبارة عن قول يشبه قولاً آخر أى بينها مشابة ليبين أحدهما الآخر ويصوره . ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقب بضرب المثل زيادة فى الكشف والبيان .

واستوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره

والوجه في التمثيل أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يتهدى بها في المشبهات ، ويستضيء بها في ظلمات الريب والمشكلات . (فلما اضاءت ما حوله) بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر يمشى فيها على هداية وسداد هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور (ذهب الله بنورهم) أى ذهب عنه نور الاسلام وهدايته ، وأطبق عليه جو الضلالة ، بل طفي فيه نور الفطرة السليمة .

(وتركهم في ظلمات لا يبصرون) أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجوده إذا خالفت تقاليد . ولذلك عقبه بقوله تعالى (صم بكم) أى أنهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقيه من الحجج والبراهين ، فكأنهم صم لم يسمعوا . وبكم فقدوا منفعة الاسترشاد بالقول والسؤال وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بيانا ولا يطلبون برهانا (عمى) أى فقدوا خير منافع الأبصار وهو نظر الاستضاءة والاعتبار ، (فهم لا يرجعون) عن ضلالتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم .

(أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق)

هذا مثل الفريق الثانى من الناس المتردد والمتشكك لا يبغي الهداية ، وإنما يبغي النفع والفائدة له على حساب فقد دينه وفطرته ، فهو يتردد بين القبول والرفض . والمراد من الصيب المطر والسحاب ، وهو الإيمان والقرآن ، فكأن الصيب يحشى الأرض فكذلك الإيمان والقرآن يحييان النفوس . والرعد هو الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهى التكليف الشاقة من الصلاة والصوم وترك الرياسات والجهاد وترك الأديان القديمة والانقياد لمحمد صلوات الله عليه وآله مع شدة استنكافهم عن الانقياد له . فكأن الإنسان يبالغ فى الاحتراس من المطر للصيب الذى هو أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة ، فكذلك المنافقون يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه

الأمور المقارنة.

والمراد من قوله ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ أنه متى حصل لهم شيء من المنافع وهي عصمة أموالهم وديانهم وحصول الغنائم لهم فانهم يرغبون في الدين ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أى متى لم يجدوا شيئاً من تلك المنافع يكرهون الايمان ولا يرغبون فيه ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ على أنه تعالى جعلها لهم ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح ، إلا أنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة . وسدوها عن الفوائد الآجلة ، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فُرْشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * (٢٤)

التفسير

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ : اثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم ، وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق : (مؤمنة) به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام ، و (كافرة) قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى (مذبذبة) بينهما بالخادعة والنفاق ، ووصف كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال ، وبين ما لهم من المصير والمآل ، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات

هزأ لهم إلى الاصغاء ، وتوجيهها لقلوبهم نحو التلقى ، فأمرهم كافة بعبادته ، ونهاهم عن الاشرار به . وهذه الدعوة هي أساس بناء الانسانية العامة الكاملة بأن لها رباً واحداً يعبد دون غيره ، والكل منساوون امام هذه العبادة التي تقتضى الطاعة لأمره واجتناب نهيه ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس ﴾ سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ جميعاً عبادة خشوع وإخلاص وأدب وحضور ، كأنكم تنظرون إليه وترويه ، فإن لم تكونوا ترويه فإنه يراكم . والإخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية ، فإنه هو ربكم الذى أنشأكم فيما لا تعلمون ، وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، فإن هذا الرب العظيم ﴿ الذى خلقكم ﴾ خلق ﴿ الذين من قبلكم ﴾ قد رباكم كما ربى سلفكم ، وهبكم من الهدايات مثل ما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعماً ، ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقماً

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدوني ملاحظين معنى الربوبية والمساواة في المواهب الخلقية التي تؤهلهم للسعادة الحقيقية ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ فإن العبادة على هذا الوجه هي التي تعدكم للتقوى أى تصيرون في ستر ووقاية من عذاب الله ، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه . وذكرهم ببعض خصائص الربوبية التي تقتضى الاختصاص بالعبودية فقال ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ بما مهدها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها لأجل منفعتكم ﴿ والسماء بناءً ﴾ متماسكاً لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . والسماء مجموع ما فوقنا من العالَم ، والبناء وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة . وقد كون الله السماء بنظام كنظام البناء وإنما ذكر السماء والأرض جل ثناؤه فيما عدد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعاشهم ، وبهما قوام دنياهم ، فأعلمهم أن الذى خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم هو المستحق عليهم الطاعة ، والمستوجب منهم الشكر والعبادة ، دون الأصنام والاولئان التي لا تنفع ثم ذكر نعمة الامداد الذى تحفظ به هذه الاجساد وهي مادة الغذاء التي بها النمو

والبقاء فقال : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ أى غذاء وأقواتا . الثمرات ما يحصل من النبات نجما كان أو شجرا . وإذا كان الزارع والغارس يبذر البذر ويغرس الفسيل ، فالله هو المنزل للمطر الذى يسقى به ، والله وحده هو القادر على إنماء الزرع وإثماره .

وبعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا وبنعمته علينا وعلى سلفنا ، وبعد أن عرفنا بذاته الكريمة وبآثار رحمته ومنته العظيمة ، صرنا جديرين بأن نعلم أن العبد عبد فلا يعبد ، وأن الرب رب فلا يشرك به قال ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ والانداد جمع ند ، وفسر بالشريك وهو المضارع والكفف . العدل ، أى لا تجعلوا لله أندادا من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم مالا يطالب إلا منه وهو كل ما تعجزون عنه ولا يصل كسبكم اليه ، لا تفعلوا ذلك فانهم فى العبودية مثلكم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال أنكم تعلمون أنه لا ند له ، لأنكم إذا سئلتهم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ ومن يرزقكم من السماء ؟ ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله ؟ وتدعون غير الله ؟ نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، ويتخذوا له ندا وعدلا فى الطاعة فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم وفى رزقكم الذى أرزقكم وملكى اياكم ونعمتى التى أنعمتها عليكم فكذلك فأفردونى بالطاعة وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندا من خالق ، فانكم تعلمون ان كل نعمة عليكم فهى منى

وبعد أن بين الله أحوال الناس ، وموقفهم إزاء الدعوة الإسلامية إلى التوحيد ، تحداهم بالكتاب الذى يدعو اليه ويناضل عنه ، ذلك الكتاب لا ريب فيه فقال :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾

عبر عن كون الريب يان لللايدان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه ، لأن الحق فيه ظاهر بذاته . والتنزيل من مادة نزل وتفيد أن القرآن نزل نجوما متفرقة . من مثله : الضمير فى مثله لعبدنا ، أى فان أحدهم يماثل الرسول بالأمية يقدر على الاتيان بسورة فليفعل ، فالله سبحانه قال لمن حاجه فى نديه محمدا ﷺ من

الكفار : فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيها العرب كما أتى به محمد بلغاتكم ومعاني منطقكم

قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أنتم بسورة من مثله ،
 أى ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أى ادعوا كل أحد
 غير الله ليؤيد دعواكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم : يعنى بذلك ان كنتم فى
 شك فى صدق محمد ﷺ فيما جاءكم به من عندى أنه من عندى فأتوا بسورة من
 مثله ، وليستنصر بعضهم بعضا على ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله وما أنتم بفاعلين
 لأن هذا ليس فى طاقة المخلوقين ، جملة ﴿ ولن تفعلوا ﴾ جملة تفيد تقوية الدليل
 وتقرير عجزهم أى لا تقدرّون على ذلك ولا تطيقونه ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهى موطن
 عذاب الآخرة وهى من عالم الغيب تؤمن بها ولا نبهت عن حقيقتها ، أى فاتقوا أن
 تصلوا النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به ﴿ التى وقودها الناس والحجارة ﴾ الوقود :
 ما توقد به النار ، والحجارة : المراد بها الأصنام . لأن أكثر أصنامهم كانت من
 حجارة . وإنما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتنقين فيها أنها تنفعهم
 وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم فى نار جهنم

﴿ أعدت للكافرين ﴾ والمراد بالكافرين الذين لا يحميرون دعوة الأنبياء عليهم
 السلام ، والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها وتقاليد
 يحدّثونها . وأعدت : أى هيئت النار لمثل هؤلاء .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 كُلًّا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
 وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مُمِطَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

التفسير

قال تعالى ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، وبين أن الخير المفرح السار للذين آمنوا بما جاء به القرآن .

﴿وعملوا الصالحات﴾ أى أن الذى يستحق البشارة هو من جمع بين الايمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ويهذى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة .

﴿أن لهم جنات﴾ أى لهم بساتين ، والمراد دار الخلود ، تؤمن بها بالغيب ولا نبحث عن حقيقتها .

﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ والمناسبة ظاهرة ، فان البساتين حياتها بالأنهار ،

﴿كلا رزقوا منها من ثمرة رزقا﴾ أى كلما رزقوا أى أطعموا من الجنات رزقا

(طعاما) من بعض ثمارها ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ أى هذا الذى وعدنا

به فى الدنيا جزاء على الايمان والعمل الصالح

﴿وأتوا به متشابهًا﴾ أى ان رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته

ويختلف فى طعمه ولذته

﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أى بما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقدرة كالحيض

والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق . والتطهر يستعمل فى الأجسام ، والأخلاق ،

والأفعال .

﴿وهم فيها خالدون﴾ أى يمكنون فيها ولا يخرجون منها ولا هي تفتي بهم فيزولوا بزوالها وإنما هي حية أبدية لا نهاية لها

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾

أى إن الله تعالى لا يترك ضرب مثل ما من الأمثال حياء منه ، سواء كان بعضها بعوضة أو أصغر منها حجماً وأقل عند الناس شأنًا ، لأنه خالق كل شيء وذلك جواباً عنه جل ذكره لمن أنكر من منافق خلقه ما ضرب لهم في المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعمتهما به من نعمتهما ، فقد قال المنافقون إن الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فانزل الله هذه الآية . وقيل إن معنى إن الله لا يستحي أن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً أى إن الله لا يخشى أن يصف شيئاً لما شبه به الذى هو ما بين البعوضة إلى ما فوق البعوضة من الحق

﴿فأما الذين آمنوا فاعلموا أنه الحق من ربهم﴾ أى فأما الذين صدقوا الله ورسوله فيعرفون أنه ليس نقصاً ، وإنما هو صدق وحق ، لأنه مبين للحق

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾

أما الجاحدون فيجادلون في الحق ويذهب جدلهم إلى قياس رب العالمين بمتنطعي المتأدين . وينكرون على ربهم المثل والقياس ، ولا ينكرونه على أنفسهم وعلى الناس

﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾

أى يضل بالمثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب ويهدى به الذين يقدرون الأشياء بغاياتها وهم المؤمنون ويحكمون عليها بحسب فائدتها

﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾

والفسوق : الخروج . أى يضل به الخارجين عن هداية الله تعالى في سنته في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر وبكتابه

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ (٢٧)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ
فَنَسَّوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

التفسير

(الذين يفتضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى الذين يفسدون ما أبرمه الله من
العهد والميثاق، وهو ما أخذهم به بمنحهم هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار
أو العقل والحواس المرشدة إليها، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب
استعمالاً صحيحاً، والعهد: فطرى خلقى، ودينى شرعى. والميثاق: اسم لما يوثق به
الشيء ويكون محكاً يعسر نقضه. والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بعد
الرشد قابلة لادراك السنن الالهية فى الخلق، ووثق العهد الدينى بما أيد به الأنبياء من
الكتب، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يمتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله، فاسق عن
سننه فى تقويم البنية البشرية وإنمائها

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) ما هو الشيء الذى أمر الله أن يوصل؟
قيل: الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض وإقامة شرائعه وحفظ حدوده، فهى
عامة فى كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

(ويفسدون فى الأرض) أى يعبدون غير الله تعالى ويجورون فى الأفعال إذ
هى بحسب شهواتهم لا ضابط لها وليس فيها عدل فىرتكبون المعاصى ويمنعون الناس عن
الايان بحمد ﷺ وبالقرآن وهذا غاية الفساد، لأنهم فقدوا هداية الفطرة وهداية
الدين وكان عاقبة أمرهم أنه سيحل عليهم الخسران، وحصره فيهم بقوله (أولئك)

هم الخاسرون ﴿ بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . والخاسرون الناقصون أنفسهم حقوقها - بمعصيتهم الله - من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارتها بأن يوضع من رأس ماله في بيعه ، فكذلك الكافر والمنافق يخسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كان الى رحمته . ثم قال تعالى على وجه التعجب - لكن فيه تبيكيت وتعنيف لهم - :

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أى بأى صفة من صفات الكفر (الجحود) بالله تعالى تأخذون ، وعلى أى شيء فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك . وبين هذه الحال بقوله : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ أى كنتم قبيل النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبهة أجزاؤكم فى الأرض ، خلقتكم أطواراً من سلافة من طين ، فكنتم بالطور الأخير فى أحسن تقويم ﴿ ثم يميتكم ﴾ بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم ، فتحل أبدانكم ، وتعود إلى أصلها الميت ، وتنبث فى طبقات الأرض . ﴿ ثم يحييكم ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموت الأولى ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ فينبشكم بما عملتم ويحاسبكم على ما قدمتم ويجازيكم به

﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ أى جعل كل ما فى الأرض مهيئاً لنا ومعداً لمنافعنا . وللانتفاع بالأرض طريقان : أحدهما الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية ، وثانيهما النظر والاعتبار فى الحياة العقلية . واننا ننتفع بكل ما فى الأرض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل إليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفى يتناول ما فى جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء . يقال استوى إلى الشيء إذا قصد إليه قصدا مستويا خاصا به لا يلوى على غيره

﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأنتم خلقهن فجعلن سبع سموات تامات منتظمات الخلق

(وهو بكل شيء عليم) أى هو المحيط بكيفية التكوين وحكمته وبما ينفع الناس بيانه - وكيف يصح أن ينكر عاقل على الله سبحانه وهو العليم بكل شيء أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقرير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا، والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول، وهذا اعتراض الجاهلين على من هو بكل شيء عليم.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

التفسير

ان أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشؤون الإلهية التي يعز الوقوف عليها كما هي . وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر نشأة الانسان على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة . وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار كما هي سنة مخاطبة الخلق وبيان الحق . وهذه الآيات تجلي حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ، ويستفيدونه بالتعليم من الله تعالى بالطريقة التي تناسب حالهم ، فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم ، لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شيء اكتسابا . وهي من جهة أخرى تسلية للنبي ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بانكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جيلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا أو يذنبوا . وأن الافساد في الأرض ، وجحود الحق ، ومناصبه الداعي إليه ليس بدعا من قومه ، وإنما هو حيلة أهل الفكر وطبيعة البشر . أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء

المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ الملائكة خلق الله من عالم الغيب ، تؤمن به ولا تبحث عن حقيقته ﴿ جاعل ﴾ خالق . و ﴿ خليفة ﴾ سماه الله بهذا الاسم لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه .

وبادرت الملائكة إلى السؤال واستفهام الاستغراب : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ أى ننزهك عما لا يليق بصفاتك ، ونمجّدك بلا غفلة ولا فتور .

ولا شك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة ، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة . وكون هذا العلم المصرف للارادة لا يحصل إلا بالتدرّج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضى إلى سفك الدماء

والانسان مهما أوتي من العلم فهو قليل بالنسبة للعلم الالهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

التفسير

(وعلم آدم الأسماء كلها) علم معناه عرف ، وآدم سمي بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمي إنسانا لأنه نسي

والأسماء هي ما يرى بعلم الأشياء ، وهي العلوم المطابقة للحقائق

والمعنى أن الله تعالى أودع في نفس آدم علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين - والعلم الحقيقي هو إدراك المعلومات نفسها . والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجرى بالمواضعة والاصطلاح ، فهي تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغير فيه ولا اختلاف

علم الله آدم كل شيء ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في أوقات متعددة ، والله قادر على كل شيء . ثم إن هذه القوة العلية عامة للنوع الأدنى كله ، ويكفي في ثبوت هذه القوة فهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال

(ثم عرضهم على الملائكة) أي أطلعهم اطلاعا اجماليا بالالهام الذي يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء .

(فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) المسميات ، والغرض من الإنباء بأسمائها الإبانة عن معرفتها (إن كنتم صادقين) أي إن كان هناك موقع للدعشة والاستغراب من جعل الخليفة في الأرض من البشر

(قالوا سبحانك) أي تنزيها لك . والمعنى : نقدسك ونزهك أن يكون عليك قاصرا فتخلق الخليفة عبثا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات (إنك أنت العليم) بخلقك (الحكيم) في صنعك

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أمر الله تعالى آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه ، تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضل منهم

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ، وفي الحديث : إن الملائكة لتضع
اجنحتها رضا لطالب العلم ، أى تخضع وتتواضع ، لأن الله تعالى أكرمها ذلك لآدم
عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب

(فلما أنبأهم بأسمائهم) قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم إني أعلم غيب
السموات والأرض) ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئا سدى ، ولا يجعل الخليفة
في الأرض عبثا . وفي هذه الآية دليل على أن أحدا لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله أو
من أعلمه الله تعالى ، فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة

(وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) والذي يبدونه هو ما يظهرون أثره في
نفوسهم ، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوى عليه طبائعهم

وقد قضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية في قالب العبارة
اللفظية ، ويجلي لنا المعارف المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريبا للأفهام وتسهيلا
للإعلام ، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما أودعته فطرتنا مما نمتاز
به على غيرنا من المخلوقات . فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا
مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا . ولعلنا نشرف
على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا ، كما عرفنا الله أيضا أن
خلافة الأرض وسيادتها وصلاحها لا يكون إلا عن طريق العلم ، وهذه من سنن الله
الخالدة إلى يوم القيامة ، والتاريخ في ماضيه وحاضره أكبر شاهد ، فساد المسلمون
في ماضيهم إلا عن طريق العلم ، وما ضعف المسلمون الآن واستكانوا إلا عن طريق
الجهل وإعراضهم عن العلم . وفي القرآن الكريم الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ،
يزيدها إيضاحا قول رسول الله ﷺ : « إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت
الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم » وقال أيضا « العلم فريضة على
كل مسلم ومسلمة » وورد أيضا « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » فمن تخلف عن طلب
العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة والتقدم ، واستهدف للشقاء والاستعباد

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ (٣٤)

التفسير

بعد ما عرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة في الأرض أمرهم بالخضوع له ، وعبر عن ذلك بالسجود ، وهو سجود لا نعرف صفته ، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة ، إذ لا يعبد إلا الله تعالى . والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد

(فسجدوا إلا إبليس) أى سجد كلهم أجمعون إلا إبليس ، وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها ، فان قصة الآية ٥٠ من سورة الكهف ناطقة بأنه كان من الجن (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وجميع هؤلاء المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ، ولا نبحت عنها ، ولا نقول بنسبة شيء إليها مالم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم .

(أبى) السجود والانقياد أى أمتنع عن فعل ما أمره (واستكبر) يعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التي من آثارها الترفع عن الحق

(وكان من الكافرين) قيل كان هنا بمعنى صار من الكافرين ، والواجب على المسلم في مثل هذه الآية الايمان بمضمونها مع التفويض والحمل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقى لها القصة

قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعقيبا على تفسير هذه الآية :

إن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها ، خلق خاضعا للانسان ، وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته ، إلا قوة الاغراء بالشر ،

وفاموس الوسوسة بالاغراء الذى يجذب الانسان دائما الى شر طباع الحيوان ، ويعيقه عن بلوغ كماله الانسانى .

فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمل . وقصارى ما يصل اليه الكاملون ، وهو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (١)

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

التفسير

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ و « اسكن » من السكنى وهو المبيت

والاقامة والاستقرار . والسكنى لا تكون ملكا . وهذا تنبيه على الخروج . و « الجنة » هي البستان أو المكان الذى تظله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها . وإن الأوصاف التى وصفت بها الجنة الموجودة بها لا تنطبق على ما كان فى جنة آدم ، ومنها كون عطاياها غير مجذوز ولا مقطوع وغير ذلك .

﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ أى أكلّا واسعا رافها هنيئا من أى مكان منها إلا شيئا واحدا نهاهما عنه بقوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ أى لا تدنوا منها ، أى لا تأكلا من هذه الشجرة . وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه . و « الشجرة » لا يعلمها إلا الله . فتكونا من الظالمين : أى الذين ظلموا أنفسهم وتعدوا حدود الله

وأصل الظلم فى كلام العرب وضع الشيء فى غير موضعه ، والظلم يقال فى مجاوزة الحق فيما يكثر وفيما يقل

﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى حولهما وزحزحهما عن الجنة ، أى أذهبهما وأبعدهما عنها ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه فكان الذنب متصلا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب . ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعنى آدم وزوجه وإبليس . والهبوط معناه الانحدار على سبيل القهر ، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطا ، أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه . أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ - وإذا استعمل فى الإنسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ أى متعادون يبنى بعضكم على بعض

﴿ واسكنم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أى إن استقراركم فى الأرض ومتاعكم بالعيش والارتفاع به فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدائمين

ثم قال ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ تأتى قيل معناه فهم وفطن ، وقيل قبل

وأخذ . والمراد هنا أفهمه الله إياها ، فأنا بآية اليه بها . وهذه الكلمات هي كما في سورة الاعراف ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾

تاب آدم بذلك وأنا بآية اليه بها ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ وتاب العبد أى رجع إلى طاعة ربه . والمعنى أى قبل توبته . وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب ، أى الذى يقبل التوبة كثيرا ، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسيء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع اليه فإنه يخصه برحمته . وبرحمته إياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه

والتوبة في الشرع ترك الذنب لتبجحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك بالاعادة . فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ أى فقد انتهى طور النعيم الخالص ، وادخلوا في طور لكم فيه طريقان : هدى وضلال ، وإيمان وكفران ، وفلاح وخسران

﴿ فاما يأتينكم منى هدى ﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿ فمن تبع هداى ﴾ الذى أشرعه وسلك طريق المستقيم الذى أحدهد ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران

﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على فوت مطلوب أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم بما يرضى الله تعالى ويوجب ثوابه

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى الذين أشركوا . والآية هي العلامة الظاهرة ، قال الراغب وحقيقته لكل شيء ظاهر ملازم لشيء باطن يعرف به ويدرك بإدراكه حسيا . والمعنى : وأما الذين كفروا بآياتنا التى نجعلها دلائل الهداية وحجج الارشاد ، بأن جحدوا بها وأنكروها ولم يذعنوا لصدقها ، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ هم أصحاب النار هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ، أى وهم في خوف قاهر وحزن مساور

يٰٓبَنِي إِسْرَٖٔلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِيْ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
وَلِيَٓ فَارْهَبُوْنَ (٤٠) وَمَآ مَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ
بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَتِيْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَقُونَ (٤١) وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا
مَعَ الرَّاٰكِعِينَ (٤٣)

التفسير

لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لا ريب فيه ، وبيان أحوال الناس وأصنافهم
في أمره . وهو في هذه الحالة يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت
فيها النبوة تفصيلا ، فبدأ بهذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) : إسرائيل لقب نبي الله
يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام . قيل معناه الأمير المجاهد مع الله ،
والمراد ببنيه ذريته .

اختص بني إسرائيل بالخطاب لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للحملة للكتب السماوية ،
والمؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن دخولهم
في الاسلام حجة على غيرهم من النصارى ، وكانوا يسمون شعب الله كما في كتبهم ،
وذكر القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم ، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر
الناس لله شكرا ، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة
حجة الإعراض عن الايمان ، وسبب لإذناء النبي ﷺ ، لأنهم زعموا أن فضل الله
تعالى محصور فيهم ، وأنه لا يبعث الأنبياء إلا منهم ، ولذلك بدأ تعالى خطابهم
بالتذكير بنعمته :

(اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الذكر بالقلب ضد النسيان ، والمعنى : لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمن والى ، وفجر لهم من الحجر الماء ، إلى ما استودعهم فى التوراة التى منها صفة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ونعمته ورسالته ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء لانهم يشرفون بشرف آبائهم

(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وعهد الله تعالى يعرف من الكتاب الذى نزل به اليهم بأن يؤمنوا به وبرسوله ويأتمروا بأمره وينتھوا عما نهى عنه ، هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل فى عموم العهد الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة ، وهو التدبير والتروى ووزن كل شىء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور . ولو التفتت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهى العام ، وإلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم ، لآمنوا بالنبي صلوات الله وسلامه عليه واتبعوا هدايته وكانوا من المفلحين . هذا هو عهد الله ، وأما عهدهم فهو أن يمكن الله لهم فى الأرض ، ويدخلهم الجنة .

(وإياى فارهبون) أى خافون . والرهب ، والرهبه : الخوف . والمعنى : إن كنتم تخافون فوث بعض المنافع ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتكم الجماهير واتبعتم الحق فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها فإن شاء أعطى وإن شاء منع ، وهو الله صاحب النعم كلها ، فارهبوه وحده ولا ترهبوا سواه

(وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) أى صدقوا بالقرآن . فإذا نظرت فى القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم فى مقاصد الدين الإلهى وأصوله وهداية الخلق إلى الحق فبادروا إلى الإيمان بهذا الكتاب وهو القرآن (ولا تكونوا أول كافر به) أى ولا تبادروا إلى التنكر له والجحود به

(ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) الآيات هى الدلائل التى أيد بها النبي صلوات الله وسلامه عليه وأعظمها القرآن ، أى لا تعرضوا عن الإيمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل وهو ما يستفيدة رؤساؤكم من المرءوسين من مال وجاه وما

يتوقعه المردوسون من الزاني والخطوة باتباع الرؤساء وما يخشونه إذا خالفوه من المهانة والذلة . وسمى هذا الجزاء قليلا لأن كل ما عدا الحق قليل وحقيق بالنسبة إليه . وهذه الآية وإن كانت خطابا لبني إسرائيل نبيها لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه ، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما عليه الله وكنتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا

(وإياي فاتقون) بالايان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) واللبس الخلط ، والمعنى لا تخطئوا الحق بالمنزل بالباطل الذي تختارونه وتكتمونه حتى يشبهه أحدهما بالآخر . ولا تجمعوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذي تكتمونه في تضاعيفه أو تذكرونه في تأويله . و د تكتموا الحق ، مجزوم داخل تحت حكم النهي ، كأنهم أمروا بالايان وترك الضلال ، ونهوا عن الاضلال بالتلبس على من سمع الحق والاختفاء عن من لم يسمعه ، أو منصوب باضمار د أن ، على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانهم (وأنتم تعلمون) أى حال كونكم عالمين بأنكم لا بسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق وأنتم من أهل العلم

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فبعد الدعوة إلى الايمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح ، على الوجه النافع المرضى . فقد كانوا يصلون ، ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة . لأن الإقامة هي الاتيان بالشئ مقوما كاملا ، وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب ، والخشوع بين يديه ، والاخلاص له بالذكر والدعاء والثناء

ثم أمر الله تعالى بالصلاة وبآيتاء الزكاة التي هي عنوان الايمان . والايتهاء : الاعطاء . آيته : أعطيته . والزكاة مأخوذة من زكا الشئ إذا نما وزاد . والزكاة هي بذل المال في سبيل الله ، مواساة لعياله ، ومساعدة على مصالحهم التي هي مـلاك مصلحته ، وتطهير المال ، وسبب في نمائه وزيادته

(واركعوا مع الراكعين) والركوع معناه الخضوع . فكأنه تعالى لما أمرهم

بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرد

وقوله « مع الراكعين » فيه الارشاد الى شهود الجماعة والخروج الى المساجد .
وثبت في الصحيح عنه عليه السلام « الذي يصلي مع الامام أفضل من الذي يصلي وحده
ثم ينام - وان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة ، أو بسبع
وعشرين درجة »

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٤٤) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ
يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

يٰۤاَيُّهَا اِسْرَآئِيلُ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ
(٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزٰى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا
يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

التفسير

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ والبر هنا الطاعة والعمل الصالح ،
ويخ الله هؤلاء القوم (اليهود) على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالأخذ بالحق
ومعرفته لأهله وعمل الخير مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكرها بذلك .

﴿ وَأَنْتُمْ تَقْرَأُونَ الْكِتَابَ ﴾ وتتلون : تقرأون . والمعنى كيف نسيت أنفسكم
وأنتم تقرأون الكتاب وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون .
ثم انتقل معهم من تقييع الى تقييع ، ومن توييح الى توييح ، فقال : لو لم تكونوا

من أهل العلم وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ، ذاذا لكم عنه ، زاجرا لكم منه فقال :

(أفلا تعقلون) والعقل : المنع . والمعنى : ألا يوجد فيكم عقل يمنعكم عن هذا السفه ، فكيف أهماتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجب العلم . ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم

(واستمعنوا بالصبر والصلاة) الصبر : حبس النفس على ما تكره . والاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التي تأفك الناس وتصرفهم عن هدى الشريعة ، كاتباع الشهوات . . . والصبر هنا على الطاعة وعن مخالفة كتابه ، والاستعانة بالصلاة أقرب إلى حصول المأمول وارجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير في الروح ، ولكنها أشق على النفس الأماراة بالسوء ، ولذلك قال الله تعالى : (ولأنها لكبيرة إلا على الخاشعين) أى لثقيلة شديدة الوقع إلا على الخشيتين المتظامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى .

فمن خواص الصلاة الصبر ، وهى تقى الجرع . ومن خواصها النهى عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء . فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له فى معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالأجمال ، ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وقال (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) أى الذين يتوقون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء ، وأنهم إليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره . وهذا إقرار بالبعث وما وعد الله به فى اليوم الآخر والصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية

(يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) ناداهم باسم أبيهم اسرائيل (وهو لقب يعقوب) الذى هو أصل عزهم ، وأسند اليهم جميعا لا إليه وحده لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم ، والتفضيل مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل وهى نعمة كبرى .

(وَأَنى فَضَلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أى أعطيتكم من الفضل - وهو الزيادة فسيما محس - ما لم أعط غيركم من الشعوب . والحكمة فى التذكير بالفضل أن يتذكروا أن الذى فضلهم له أن يفضل غيرهم كحمد صلى الله عليه وسلم وأمه

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) أى واحذروا يوما عظيما أمامكم سيقع فيه الجزاء والحساب ، يوم لا تقضى فيه نفس - مهما يكن قدرها عظيما - عن نفس - مهما يكن ذنبها صغيرا - شيئا كحمل وزرها أو تكفير ذنبها .

(وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُوْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) والمعنى لا يقبل منها أن تأتى بشفع يشفع لها ، ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

(وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) أى يمنعون من عذاب الله ، فلا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، وصار الحكم الى العدل الجبار فيجزى بالسيئة مثلهما وبالחסنة أضاعفها .

وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ مَّالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا مَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

التفسير

هذه الآيات - كالتى قبلها والواتى بعدها - تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل

التي ذكرت من قبل بحملة . وابتدىء التفضيل بذكر التفصيل ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ أى واذكروا إذ نجيناكم من فرعون ، لقب لملك مصر ، و (آله) خاصته وأهل دينه ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أى يذيقونكم ويلزموكم أشد العذاب ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أى يقتلون ذكرا نسلكم ويستبقون إناثه أحياء لإضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلكم وإبادتكم ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى وفى ذلكم العذاب وفى النتيجة منه - فى كل منهما - بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ أى واذكروا من نعمنا عليكم أن جعلنا لكم فى البحر طريقا ييسر سلكتموه فى هر بكم من فرعون ﴿ فأنجيناكم ﴾ بعيره من جانب إلى آخر ﴿ واغرقنا آل فرعون ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ذلك بأعينكم أى تنظرون الى فرق الله لكم البحر واهلاك آل فرعون فى الموضع الذى نجاكم فيه ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه

بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ذكر النعمة التى وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم إياها ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ ، وقد كانت هذه المواعدة لإعطائه النوراة . ولما ذهب لميقات ربه استبطأوه ، فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه . وأشار إليه بقوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ أى اتخذتموه إلهاً ومعبوداً ظالمون أى وأنتم مضارون لأنفسكم بالمعصية ، حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام

والظلم فى كلام العرب وضع الشيء فى غير موضعه ، ويقال فى مجاوزة الحق وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ، ثم بالعفو الذى هو جزاء التوبة . فقال ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ﴿ من بعد ذلك لعلمكم تشكرون ﴾

هذه النعمة - وهي العفو - بدوام التوحيد والطاعة ، وهو معنى الشكر اى تشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه . ثم قفى على هذا بذكر الكتاب - وهو المنة الكبرى - لان فيه الهداية فقال ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾

فالكتاب هو التوراة والفرقان مافى الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطها الله من العصا واليد وغيرها كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى ارسلناه بها معجزة له ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى لعل هذا الكتاب يهتكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية أخرى . ومن كمال الاستعداد للهداية لفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلقوا فيه ، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون وجعده الرؤساء المستكبرون

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِاتَّخَاذِكُمُ الْعَجَلِ فَتَوَبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعَقَةُ وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

التفسير

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ للذين اتخذوا من حليمهم عجلا إذ كان يناجى ربه فى

الميثاقين الزماني والمكاني ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهها عبدتموه . والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه ، وذكرت هنا لدعوة بني إسرائيل إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ والتوبة نحو أثر الرغبة في الذنب من القلب ، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضا ، فإن قتل المرء لأخيه قتل لنفسه ﴿ ذلکم خير لکم عند بارئکم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ، ويجعلكم أهلا لتوبته ورحمته . وقوله ﴿ فتاب عليكم ﴾ أى ففعلتم ما أمر به موسى عليه السلام فتاب عليكم ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها ، وأنه الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى لا سيما الشرك به .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ أى واذكروا إذ قلتم لتبيحكم : يا موسى لن نصدق بما جئت به حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك . ﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ أى فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم .

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ أى أحييناكم بعد موتكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أى ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم في التيه لسعفتهم الشمس ولفحت وجوههم . والغمام هو السحاب الكثيف ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ ما منح من الله تعالى يسمى إيجاده انزالا ، على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتيجف فيجمعها الناس . وأما (السلوى) فقد فسروها بالطائر المسمى السماني ، فعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى وقلنا كلوا من الحلال واللذيذ الذي أعطيناكم

﴿ وما ظلمونا ﴾ يُقدَّرُ قبله فمعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي . ويعنى بقوله وما ظلمونا : وما وضعوا فعلمهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرّة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوا أنفسهم موضع مضرّة عليها ومنقصة لها

قال الشيخ محمد عبده : « والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجهاً إلى الذين كانوا في عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الآباء والأبناء واحد لم يختلف فيه الضمائر ، حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالنوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار والشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الانساني أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاهه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو ﴾ وانقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقبها ، لانه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين ، (١)

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ
سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ

مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّضْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحَدَّادِعَ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَأْكَسَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِّينَ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلٌ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

التفسير

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) المراد المدينة ، وهي في الأصل اسم لمجتمع الناس ، وأطلقت على الأمة نفسها - وقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة وهي نعمة لإخري إذ أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه (فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) وأباح لهم الأكل عن سعة وبكثرة (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) أي ادخلوا خاشعين لله خاضعين لأمره ، وهذا معنى السجود وروحه المراد هنا (وَقُولُوا حِطَّةً)

والمراد بالخطية الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أى يفعلو عنهم ولا يؤاخذهم بما فعلوا من الذنوب ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثوابا . أى من كان منكم محسنا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته . جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن

﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ أى خالف فريق منهم وهو الخارج عن الطاعة وقال غير ما أمر به ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء﴾ فأنزلنا على المخالفين والعاصين رجزا (عذابا) من السماء بسبب ظلمهم وعصيانهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم أى بما كانوا يتركون من طاعة الله تعالى فيخرجون عنها الى معصيته وخلاف أمره

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أى طلب السقيا ﴿الماء﴾ لهم من الله تعالى ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ أمره أن يضرب بعصاه حجرا من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر فضربه ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ بعدد أسباطهم ، وذلك قوله عز وجل ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ لسهل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم . ثم أراد أن يصور حال بنى إسرائيل فى هذه النعمة واغتيابهم بما منحهم من العيش الرغد فى مهاجرهم فقال ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ يعنى المن والسلوى والماء كان يأتهم بلا مشقة ولا كلفة . ثم للاحتفاظ بهذا الرزق يجب البعد عن الفساد فقال : ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا فى الشرور قدوة سيئة للناس ، يقال عثا إذا نشر الشر والفساد وأثار الخبث .

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ الخ كل ذلك يدل على أن ما عدد من

أفأعيلهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كل هذا من خطاياهم ، ومن ذلك ﴿ وإذ قلتم يا موسى إن نصبر على طعام واحد ﴾ وهو المن والسلوى ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير : إنه يأكل طعاما واحدا . والبقل ما يطعمه الانسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما . والقثاء هى أخت الخيار تسميها العامة « القطة » والعدس والبصل معروفان والفوم هو الحنطة وقال بعضهم الثوم ، وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذى يصنع منها ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام تقرىعاً لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ﴾ أى أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والأدنى فى اللغة الأقرب واستعير للاخس ، والاستبدال طلب شيء بدل الآخر

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ من الامصار ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ أى وجدتم فيه ما سألتم من نبات الأرض فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة وعند ذلك يجدون طلبتكم فالتمسوا الخير فى نفوسكم وأفعالكم . والهبوط الانحدار على سبيل القهر . وإذا استعمل فى الانسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف وتنبيه على الغضب

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ فضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . والذلة هى الصغار ، يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، والمسكنة فى هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة وهى خشوعها وذلتها .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أى رجعوا به ، والمعنى استحقوا غضبه ، ومن استحقه فقد أصابه . وتذكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهى بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فإنهم بإحراجهم لموسى عليه السلام وإعنائهم له فى المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب دلوا على أن لا أثر للآيات فى نفوسهم فهم بها كافرون فى الحقيقة ﴿ ويقتلون النبيين بغير

الحق) مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عنهم إلا بحقه المبين فيه ، وقد ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين مع علمهم مخالفته لشرع الله وكتابه (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى عصيانهم - والعصيان خلاف الطاعة ، والاعتداء التخطي لحدود الله ونبذها أى يتجاوزون أمر الله ويرتكبون محارمه ، ومعنى الكلام ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله من أجل كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير الحق ومن أجل عصيانهم ربهم واعتدائهم حدوده أى فعلت ذلك كله بهم بما عصوا أمرى وتجاوزوا حدى الى ما نهيتهم عنه

(إن الذين آمنوا) المراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا ﷺ والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة (والذين هادوا والنصارى والصابئين) يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الاسماء او الالقباب من الذين اتبعوا الانبياء السابقين وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين

(من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) وقد تقدم شرح الإيمان واليوم الآخر فى أوائل السورة ، وعمل صالحا تصالح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والمعنى أن لهم أجرهم المعلوم لوعده الله لهم على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار ولا هم يحزنون على شيء فاتهم

(وإذ أخذنا ميثاقكم) وهو العهد الذى أخذه عليهم فى قوله (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا) الآيات التى ذكر معنا . والمعنى قبول ما جاء فى التوراة

(ورفعنا فوقكم الطور) والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية الآيات تقوى الايمان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة)

أى تمسكوا به واعملوا بحمد ونشاط ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى بالعمل على المحافظة به .
﴿لعلكم تتقون﴾ فالعمل بما يرشد اليه الكتاب يطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية نقية .

﴿ثم توليت من بعد ذلك﴾ أى أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أى بتوليكم استحققت العقاب ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ولولا ذلك لخسرتكم سعادة الدنيا وهو التمكن في الأرض المقدسة وخسرتكم الآخرة وهى خير ثوابا وخير أملا

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَأَذَّ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ
النَّظْرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن
شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْإِنِّ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

التفسير

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) أي وأقسم أنكم لقد علمتم خبر الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الديوى يوم السبت ، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت وأمرهم أن يتجردوا للعبادة فيه وتعظيمه ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومهم يوم السبت فإذا مضى تفرقت . حفروا حياضا عند البحر وشرعوا لها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأنها من الصيد فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم . وسيأتى نبأهم مفصلا في سورة الاعراف

(فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ، واسكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالخنزير في قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الخنازير يحمل اسفارها) والخسوف هو الطرد والصغار ، والأمر للتكوير ، أي فكانوا بحسب سنة الله في طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس

(فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) أي جعلناها هذه العقوبة نكالا ، وهو ما يفعل بشخص في إيذاء وإهانة ليعتبر غيره ، أي عبرة بشكل من يعلم بها أي يمتنع من اعتداء الحدود . ومن النكول ، هو الامتناع . وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم ، كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى . أما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتق يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتعذبننا هزوا) قال المفسرون أول القصة مؤخر في التلاوة وهو قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) وذلك أن رجلا موسرا قتله بنوعه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بدينه ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيوا فيخبرهم بقاتله

وفي هذه القصة اختلف النسق ، فذكر المخالفة بعد في قوله ﴿ وإذ قتلتم نفسا قادرا تم فيها ﴾ ثم المنة في الخلاص منها في قوله ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ السخ و قدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها . ولما كان في جوابهم هذا رمى لموسى عليه السلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن اكون من الجاهلين ﴾ أى ألتجئ إلى الله واعتصم بتأديبه إياى من الجهالة والهزم بالناس وفيه تعريض بهم أى أتم جاهلون حيث نسبتمونى الى الاستهزاء ﴿ قالوا ادع ربك يبين لنا ما هى ﴾ أى ما الصفات المميزة لها ﴿ قال إنها بقرة لا فارض ﴾ أى غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ ولا بكر ﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها لم تلد كثيرا

﴿ عوان بين ذلك ﴾ العوان النصف فى السن ، أى لا هى صغيرة ولا كبيرة ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت ، ولسكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فى السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاعل الشديد الصفرة بحيث لا يخالطه لون آخر .

لم يكتفوا بهذا وزادوا تنطعا إذ ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز للونها عاملة سائمة قال ﴿ انها بقرة ﴾ سائمة ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أى غير مذلة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى ﴿ مسلبة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لا شية فيها ﴾ أى ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية : مأخوذ من وشى الثوب أو نسيج على لونين

﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى ينبت ووصفت البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها . فذبوها أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف فذبوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط

والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة الاستبعاد ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتببط الكائن منهم

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا
أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ
قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَشَقِّقُ فِيهِ يُخْرِجُ مِنَ الْمَاءِ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَعْطُمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْعَنُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)
وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

التفسير

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذه أول القصة المحتوية على المخالفة على ما
أشرنا إليه ، وهى القتل ، ثم التنازع فى القاتل ، ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة
بذبح البقرة ، وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق ، وأسند فيه القتل إلى

الأمة وإن كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد. و (التدارق) التدافع ، وهو يدل أنه كان خصام وانها ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لاخفاء القاتل ، لأنه لا يخفى عليه مكرهم

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾ فهذا بيان لخراج ما يكتمون ، والمراد اضربوا المقتول بجزء منها ، وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وأقر بالقاتل ، والاحياء هنا معناه الاستبقاء ﴿ ويريكهم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخشوع للشرعية

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ والقسوة الصلابة ، ان هذه القلوب فى قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها أى أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتى بخير ، والحجارة ليست كذلك ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ والتفجر : الشق الواسع ، وعبر بالشقق لخروج الماء الذى يصدق بالقليل منه

وملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة فى القسوة بل تزيد عنها فإن الحجارة الصم تتأثر فى باطنها بالماء اللطيف النافع : بعضها بالقوى منه فيخرج منها الأنهار ، وبعضها بالضعيف فيخرج منه الماء ، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التى من شأنها التأثير فى الوجدان . والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التى يحدثها الله فى الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية التى تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت فى الأحجار ، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة . ثم هددهم بقوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى فهو سير يبيكم بضرور النقم إذا لم تتوبوا بصنوف النعم . وأصل الغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو عنه والنسيان له ، فأخبرهم سبحانه أنه غير غافل عن أعمالهم الخبيثة ولا ساء عنها بل هو لها محصن ولها حافظ

﴿ أَفَتُظْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ رَفَوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الخطاب للنبي عليه السلام ومن معه من المؤمنين . والمعنى : أفظمعون أن يؤمن اليهود ويظهروا التصديق ، ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك بل غيره وبذله . والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا . وَإِذَا خَلَا بِمَعْشِرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ والكلام في مجموع اليهود ويوجه (الأول) إلى الذين إذا لاقوا المؤمنين قالوا آمنا يعني المتألفين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا آمنا أى صدقنا بمحمد ﷺ وبما صدقتم به (والثانى) إلى الذين يلاقيهم هؤلاء (اليهود) من قومهم ويعذلونهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم ، والمراد بالفتح هنا الإلهام بالشرعة والأحكام والبشارة بالنبي ﷺ ﴿ لِيَحْجِجَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث أن ما تحدثونهم به موافق لما فى القرآن ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أنكر الله تعالى عليهم هذا التلون والدهان فى الدين ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد وما يعلنون من إظهار إيمان وود وإحاطته بما يحول فى أطواء ضمائرهم .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

التفسير

(ومنها أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) الأمي من لا يعرف القراءة والكتابة ، هذا هو شأن عامةهم ، لا علم لهم بشيء من الكتاب ، وإنما هي ظنون يلهون بها ، وهذا محل الذم لا مجرد كونهم أميين ، لأن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بآمان صاحبه . والمعنى أنهم يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أمانى يمتنون أنفسهم بها ، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم ويمدحهم في غرورهم ، وأما ما ينهاهم عن سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب . وقيل منهم أميون لا يعلمون ولا يدرون ما في التوراة ، وهم يتحدثون نبوتك بالظن

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) أى ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين ان ما فيها من عند الله والاستغناء بها عن كتاب الله الذى نفهم منه ما لا يفهم غيرنا ، يخطبون بتلك الكتب ميل العامة ويأكلون أموالهم بالدين .

(ليشتروا به ثمنا قليلا) وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل ، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال :

(فويل لهم بما كتبت بأيديهم وويل لهم بما يكسبون) فاهلاك والويل محيط بهم من أقطارهم ، ونازل بهم من جانب الوسيلة وهى الكتابة ، ومن المقصد وهو الكسب .

(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) هذا ضرب من ضروب غرورهم

بقولهم ان تمسنا النار في الآخرة الا اياما محصورة ﴿ قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ أى خبرا أو وعدا بما تزعمون ، فان ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ، ولذلك عبر عنه بالعهد ، أى وان كان الأمر كذلك فلن يخلفه ، والاستفهام للانكار ، أى لستم على عهد من الله تعالى ، ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أى أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، والمعنى أنه لا بد من أحد أمرين : إما اتخاذ عهد عند الله ، وإما القول على الله بغير علم . وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم .

﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ بلى مبذلة لدعواهم ، والكسب استجلاب النفع ، وتعليقه بالسيئة أى كبيرة من الكبائر .

﴿ واحاطت به خطيئته ﴾ ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بمجوانب احساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا . وقيل السيئة الكفر . والخطيئة الكبيرة . وكان السلف يقولون « المعاصى يريد الكفر »

﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر « من كسب سيئة واحاطت به خطيئته » أى هم أصحاب دار العذاب في الآخرة . وتأويل الآية من أشرك بالله واقترب ذنوبا جملة فات عليها قبل الإنابة والتوبة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أبدا

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَاتُّم مَّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دَمَاءُكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُمْ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ أَخْرَاجَهُمْ أَفْتَوْ مُنُونٌ بَعْضُ السَّكْتِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضِ مَا جَاءَ مِنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ الْآخِزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ (٨٦)

التفسير

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح وما يلزمه من الأعمال الصالحات ، وهي إطاعة الله فيما أمر والبر بالإنسانية ، فإذا أتقن كل عامل عمله لخير بني جنسه وارتقاء أمته كان هذا عملاً صالحاً ، وهذا هو المعنى العام . (فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أي أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقيون بها بحسب وعد الله وفضله هم خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان والعمل معا ، إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر

(وَإِذَا اخْتَدَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي واذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق (العهد) بني إسرائيل (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) وهذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى . ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وإنما يخشى عليهم الشرك به وعبادة الله اثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه . والمعنى استحلفناهم والله لا تعبدون إلا الله (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أي وتحسنون

ياو الذين احسانا . والاحسان نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية . ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النص على الاحسان بهم ، وثق بالاحسان بمن دونهم في النسب فقال تعالى ﴿ وذى القربى ﴾ قضى نظام الفطرة بأن تكون صلة القرابة أمين من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق ، وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . والاحسان لهم صلتهم ، والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة ، وبقدر ما تبلغ به القدرة . ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير . وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم يقيد بها بفقر ولا مسكنة ، فلم أنها مقصودة لذاتها . والمسكين من يعجز عن كسب يكفيه ، ولم يكن هؤلاء الذين اتخذوا السؤال والشحاذة حرفة ومغنا . والمساكين جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذلكه ، وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين ، وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم ، بقى بيان حقوق سائر الأمة ، وهى النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم ، فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب ، فالحسن هو النافع في الدين والدنيا ، ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها .

﴿ واقموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما إقامة الصلاة بالإخلاص لله ، والصدق في التوجه إليه ، والخشوع لعظمته ، والاستكانة لعز سلطانه ، وهى بهذا تكون وسيلة لإصلاح النفس . وإيتاء الزكاة أى إخراج المال لذوى الحاجة ، وذلك لإصلاح شئون المجتمع .

﴿ ثم توليتم لإلا قايلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتم وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث

له ﴿إلا قليلا منكم﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن موسى عليه السلام ، أو في كل زمن فانه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم .

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ والخطاب موجه إلى اليهود والحاضرين في زمن التنزيل ، تماديا في سياق الالتفات ، وتذكيرا بوحدة الأمة ، واعتبارها كالشخص الواحد يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ، فاستنوا بسنتهم وجروا على طريقتهم . وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة ، وتحدث أثرا شريفا يبعثها على الامتثال فقال ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه ، حتى إذا سفكه كان كأنه بئع نفسه وانتحر بيده وقال ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق ، وقيل معناه لا تركبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار ﴿ثم أقررتم وأتمت تشهدون﴾ أى إنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم ، بل تشهدون وتعلنونه ، فالحجة ناهضة عليكم به .

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه ولا ينكرون منه شيئا ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ثم أتم هؤلاء﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أى يقتل بعضهم بعضا كما كان يفعل من قبلكم ، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذا عليهم .

ويتبع هذا القتال الأسر ، ومن لوازمه الإخراج من الديار ولذلك قال :

﴿وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ والتظاهر معناه التعاون . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالإخراج من الديار . وكانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يمدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفداء أسرى شعب

إسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب ؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ، ولذلك قال تعالى ﴿ وإن يأتوك أسارى فادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من معاداتهم . قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود فترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله ﴿ أفتمنون بيع بعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهي عن القتل والإخراج ، والإيمان لا يتجزأ فالكفر ببعض كالكفر بالكل ، ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ الخ ، أوعدهم الله كما أوعدهم من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم والشريعة التي هي مناط وحدتهم ورباط جنسيتهم بالخزي العاجل - والخزي الهوان - والعذاب الآجل ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ فهو مع كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، لأن من فسدت نفسه بارتكاب المعاصي ساقها إلى عذاب الله الشديد يوم لا تغني نفس عن نفس شيئا .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا في جانب الله وأهملوا من شريعته حتى لا يتبعوا منها إلا ما يوافق هواهم ولا يعارض شهواتهم .

﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لأن علته ذاتية فيهم وهي ظلمة أرواحهم وفساد اخلاقهم . ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بشفاعه شافع أو ولاية ولي من دون الله .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
 فَفَرِّقُوا بَيْنَ كَذِبِهِمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٧٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
 فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا
 مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ
 عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بئسما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ
 يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ
 عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا
 وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ
 قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

التفسير

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) شروع في بيان بعض آخر
 من جناباتهم . وتصديره بالجملة القسمية لآظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب
 التوراة فأنها نزلت جملة واحدة . وقفينا أى أتبعنا . وبالمعنى أى أرسلنا رسلا تترى .
 والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له وهم أنبياء بنى إسرائيل
 المبعوثون من بعده (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) أى
 المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أو الإنجيل . وإيدناه
 بالروح المقدسة ، والمراد أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين

فيهم بعد موسى وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح وزكاه النفس ومكّرم الأخلاق ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ بقية الذين لم يؤتوا من المواهب مثلبا أوتى به . وروح القدس : أى الروح المقدسة . والقدس الطهارة ، والمقدس المطهر ، قيل هو جبريل أيد الله به عيسى . وقيل المراد به الانجيل . وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيد الله به لما فيه من القوة (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم) أى بما لا يوافقها ولا يلائمها . وأصل الهوى الميل الى الشيء (استكبرتم) أى اتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات وعصيتم الرسل ، واحتجيتهم عليهم إن انذروكم ودعوكم الى أحكام كتابكم (ففرقا كذبتم وفرقا تقتلون) وهذا نهاية الذم ، لأن اليهود من بنى إسرائيل كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تها لم يقتله قتلوه . . .

(وقالوا قلوبنا غلف) والغلف جمع أغلف وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك ، ولا يتفقد إلى قلوبنا مفهوم دعوتك (بل لعنهم الله بكفرهم) أى أن قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق لطبيعتها وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالانبياء السابقين وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لاهوائهم . فقليل ما يؤمنون . إنما القلة فى الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة وبالنسبة إلى اليقين فى الإيمان وتحكيمه فى الفكر والوجدان ، وقال ابن جرير انه لم يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم .

(ولما جاءهم كتاب) أى أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا ، والكتاب هنا القرآن ، نكره للتفخيم وقوله (مصدق لما معهم) معناه أنه موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح فى قوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) معناه طلب الفتح وهو الفصل فى الشيء والحكم بين المتحاربين ، وكانت اليهود تستفتح على مشركى العرب بالنبي المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذى نحن عليه ويخذل الوثنية التى تنتحلونها ويبطلها

فيكون مؤيدا لدين موسى ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وهو الكتاب ،
 راعهم أنه أنزل على النبي العربي حسدوه ، فحملهم الحسد على الكفر به وجودا
 وبغيا ، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفا
 لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ
 وأعم وأشمل ﴿ بثما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ بثس تستعمل
 للذم ، أى بثس شيئا اشتروا به أنفسهم وهو كفرهم بما أنزل الله مصدقا لما معهم كما
 كانوا ينتظرون . شرى الشيء واشترأ يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء ، وبمعنى
 ابتاعه ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن اشتروا هنا بمعنى باعوا أى أنهم باعوا
 أنفسهم بما حرصوا عليه من الكفر بغيا وحسدا للنبي وحبا في الرياسة واعتزازا
 بالجنسية وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها ،
 فهذا كله يعد ثمننا لأنفسهم التي خسروها بالكفر كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع
 ﴿ بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ أى كفروا به لحض البغي
 الذي أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته . ومعنى قوله
 بغيا فانه يعنى تعديا وحسدا أن الله جعله في غيرهم ﴿ فباعوا بغضب على غضب ﴾
 باعوا رجعوا ، وبغضب وهو الغضب الذي استوجبه حديثا بالكفر بالنبي ﷺ ،
 فوق الغضب الذي لحقهم من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به . ثم توعدهم
 بعد الغضب المزدوج فقال ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أى مقرون بالاهانة
 والاذلال ، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا تؤمن بما أنزل علينا ﴾ وإذا قيل
 لهم يعنى به العهد آمنوا بما أنزل الله أى بكل ما أنزل الله ، قالوا تؤمن - أى نصدق -
 بما أنزل علينا - أى التوراة - فلما آمنوا ببعض دون البعض ﴿ ويكفرون بما وراه ﴾
 وهى نبوة محمد ﷺ والقرآن الكريم ﴿ وهو الحق ﴾ أى والحال أنه الحق الثابت
 فى نفسه بالدليل حال كونه ﴿ مصدقا لما معهم ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل

ولذلك قال ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الأمر بقتل الانبياء بل فيه النهى الشديد عن قتل أنفسهم . والاستفهام للتوبيخ ، أى ان كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الانبياء ، وقد نهيتم عن قتلهم فيما أنزل عليكم ؟

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بَنَسْنَا يَامُرُكُمْ بِهِ إيمَانُكُمْ أَنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ أَنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ
يَعْمَرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

التفسير

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى من بعد هذا
الحجىء لا من بعد موسى ، والمراد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ
الدعوة وقيام الحجة ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ هو حال ، أى عبدتم العجل وأنتم
واضعون العبادة غير موضعها ، أو اعترض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم . وأى ظلم
أعظم من الشرك بالله تعالى . وحذف مفعول ﴿ اتخذتم ﴾ أى اتخذتموه لها . ثم

ذكرهم هنا ايضا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت . وقد قال هناك ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ﴾ وقال هنا ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة . وقلنا في تفسير ﴿ واذكروا ﴾ أن المراد الحث به على العمل ، فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد

﴿ ولما أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ومعنى الآية واذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة واعملوا بما سمعتم وأطيعوا الله ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك . ثم التفت عن خطاب الحاضرين الى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أى أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتا وتأولا ، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ بل المراد أنهم بمثل من قال ذلك ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ وإشراب الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به ، وقد قدر الآكثرون هنا مضافا محذوفا فقالوا : المراد حب العجل ، والمعنى هو إقامة الحجّة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي ﷺ ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يبطالهم الله الايمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطبا للنبي عليه السلام ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة فبئسما يأمركم به ذلك الايمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض

الميثاق ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ والمعنى إن صحت دعواكم وصدق قولكم انه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا فتمنوا الموت — كالتعرض للقتل في سبيل الله — الذى يوصلكم الى دار النعيم الخالص الذى لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين . والتمنى هو ارتياح النفس وتشوقها الى الشيء الذى توده وتحب المصير اليه

﴿ ولن يتمنوه أبدا ﴾ والمانع لهم من تمنى الموت هو ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ لأنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها

العقوبة ، وقد أسند الفعل إلى الأبدى لأن أكثر الأعمال تزاوُل بها ، وقد ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها وأن كل من كان مثلهم مفتاتاً على الله تعالى فهو ظالم مثلهم

﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن . ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول أنهم شديداً الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أي أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين أشركوا وهم الذين لا يصدقون بالبعث ولا العقاب ، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أي يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أي وما تعميره الطويل بمزحزحه أي منجيه ومبعده من العذاب المعد له ولا مثاله فإنه ميت مهما طال عمره ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، بل هو بجميعها محيط ولها ذاكر حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها . والبصير العالم بالشئ الخبير به

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَآ عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنْ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَ ظُهُورَهُمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبِعُوا
مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هُرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا يَفْرُقُونَ بِهِ بَيْنَ
الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعْلَمُونَ مَا يُضْرَمُ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَسُّوهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

التفسير

(قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله) والمعنى إذا كان
جبريل يتاجى روحك ويخاطب قلبك باذن الله لا اقتناها من نفسه - وخص القلب
 بالذكر لأنه موضع العقل والعلم - فعداوة جبريل لا يصح أن تصد عن الايمان بك ،
فإن القرآن من عند الله لا من عنده . فقله (باذن الله) حجة أولى عليهم أى يعلم

الله وإرادته وتيسيره ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى التوراة أو جميع الكتب المنزلة والآيات والرسل الذين بعثهم الله ، أى حال كونه موافقا للكتب التى تقدمته فى الأصول التى تدعو إليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح والبشارة بالنبي ، وما كان جبريل الا واسطة فى تبليغه وتنزيله ، وهذه حجة ثانية . ﴿ وهدى ﴾ أى نزله هاديا من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان ، وهذه حجة ثالثة . ﴿ وبشرى المؤمنين ﴾ فما لكم تتركون هذه البشرى إن كنتم من أهل الإيمان ، لأن الذى نزل بها قد نزل بإذناز أهل الفساد والظلم

أقام الله تعالى الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب الله ، ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة فقال ﴿ من كان عدوا لله ﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿ وملائكته ﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه ، وكرهه القيام بما يعهد به اليهم ربهم عز وجل ﴿ ورسله ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بأن الأول ينزل بالآيات والنذر ، ومن كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكال لأن فطرتها واحدة وحقيقتها واحدة ﴿ فان الله عدو للكافرين ﴾ أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة خلقه فان الله عدو له ، لأنه كافر بالله ومعادله ، والله عدو للكافرين أى يعاملهم معاملة الأعداء للاعداء . والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله والبغض لأوليائه . والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلا وإنزالا ونزولا ، لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض . وأما كون آيات القرآن بينات فهى أنها باعجازها البشرى ، وبقرب المسائل الاعتقادية ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعتها ، لا تحتاج إلى دليل . فهى كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شئ آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها الا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا فى ظلمة

التقليد . وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدا لمن ظهر الحق على يديه وعنادا له

(أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم) النبذ طرح الشيء وإلقاؤه ، والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي ﷺ . ولما كان لفظ فريق يؤم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلين والناقضون هم الأكثرون ، أضرب عنه وقال (بل أكثرهم لا يؤمنون) فهم لا إيمان لهم أى لا عهود لهم

(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) تقدم تفسيره فيما سبق الآية ٤١ والآية ٨٩ (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه بزمته وإنما المراد أنهم طرحوها جزوا منه وهو ما يبشر بالنبي ﷺ ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وانكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله (كأنهم لا يعلمون) أى نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا في تركه وإهماله

(واتبعوا ما تتلو الشياطين) من الأنس في قصصها وأساطيرها أو من الجن في وسوستها أو منها جميعا على حد قوله تعالى (شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال الطبري اتبعوا بمعنى فعلوا ومعنى (تتلو) تتقوله وتقرؤه (على ملك سليمان) أى ما كانت تتلو على عهده وفي أيام ملكه اذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات (وما كفر سليمان) وما سحر (ولكن) أولئك (الشياطين) الذين يستندون إليه ما اتحلوه من السحر وما تلبسوا به من السكفر هم الذين (كفروا يعلمون الناس السحر) ليفتنوا به العامة ، ويضلوه عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة .

والسحر في عرف اللغة هو كل ما لطف مأخذه ، ودق وخفي . وقالوا سحره وسبحره بمعنى خدعه .

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخيل يخدع الاعين فيريها ، ما ليس بكائن كائناتنا فقال ﴿يَخِيلُ إِلَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْمَعُ﴾ والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الآكثرون ، فيسمون العمل بها سحراً ، لخفاء سببه ولطف مأخذه . ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة .

وقد وكل الله معرفة حقيقة السحر إلى بحث الانسان وانشغاله بالعلم ، لأنه من الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق فيه العلم إلى أعلى درجة ، فتكون هداية الله موضع الشك والتكذيب .

﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ أجل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها ، كما أجل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ما هو ؟ ﴿الملكين﴾ هاروت وماروت قيل هما رجلان صاحبان وقار وسمت فشيها بالملائكة ، وكان يؤمهما الناس بالخواجج الأهلية . على أنه يمكن أن يراد بما أنزل نفي الانزال خاصة ، أى أن ذلك السحر الذى ينسبونه الى الملكين لم ينزل عليهما لانزالا من الله فينظمه اليهود في سلك العلوم المحمودة ويزعمونه أنه حق ، وإنما هو شيء افتجراه واختراعه من عند أنفسهما .

ثم قال ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أى إن ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم ، فلا تتعلم ما هو كفر ، فإن أصر عليه ففيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴿أى أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين . ولم يبين القرآن حقيقة ذلك العلم لأنه موكل إلى بحث البشر وارتقائهم في العلم ، ولكنه لم يهمل ما يتعلق بالعقائد وبيان الحق فيها ، ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله﴾ أى إذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم إنما ذلك باذن الله ، أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل بها المسببات من ضرر أو نفع باذن الله تعالى أى

بقضاء الله الذى سبق له فى علم الله أنه يضره ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ يضرهم لأنه سبب فى الاضرار بالناس ، وهو محرم يعاقب الله عليه ، ولما كان الضرر أكبر من النفع نفي النفع وقال لا ينفعهم . وانا نرى منتحلي السحر وما فى معناه أفقر الناس وأحقرهم ، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والإيقاع باعدائهم لعلوا أن الشقى فى نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره

﴿ ولقد علما لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ أى أنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق الموصل الى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب فى نعيم الآخرة من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يجازى به فى الجنة ويثاب عليه ليكون له نصيب فى الآخرة أى لا نصيب لهم فيها من

الخيرات وأما من الشرور فإن لهم فيها نصيبا ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى باعوها ، أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر والكفر ، فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا خسارا لو كانوا يعلمون علما صحيحاً .

﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أى لو آمنوا بكتابهم إيمانا حقيقيا ومنه البشارة بالنبي ﷺ والأمر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده لكان ثواب الله لهم خيرا لهم من جميع ما توهموه فى المخالفة من المنافع ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ علما صحيحا يظهر أثره فى أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي عليه السلام واتبعوه فكانوا من المفلحين .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا ﴾ نهاهم الله تعالى عن كلمة كانوا يقولونها ، وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرونا » تفيد معنى كلمة « راعنا » فإن فيها الانظار والامهال ، وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « انظرونا » ، وأمرهم بالسمع للنبي عليه السلام ليعوا عنه ما يقول من الدين . وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ وان سوء الأدب فى خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذى يعذب عليه الانسان العذاب الموجه أشد الإجماع

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾
 الود بحبة الشيء وتمنى وقوعه ، ونفيه بمعنى الكراهة ، والمعنى : ما يحب الذين كفروا
 من اليهود والنصارى ولا المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . والمقصود
 بالخير هو الكتاب والنبوة وفيهما سعادة الدارين ﴿ والله يختص برحمته من يشاء
 والله ذو الفضل العظيم ﴾ أسند كلا من هذين الأمرين (الرحمة والفضل) الى الذات
 الأعظم لأنهما حقّه لذاته فليس لاحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما
 ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ النسخ معناه الترك ، وفيه
 المعنى الآخر هو الازالة . والمراد هنا بنسخ الآية أى نسخ حكم الآية ، وهو عام
 يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة . والمعنى : ما ننسخ من آية أى نبطلها إما
 بأن نترك حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبطلها . وأما قوله تعالى ﴿ أو ننسها ﴾
 فالمراد بتركها كما كان فلا نبطلها . وحاصل الآية أن الذى نبطله فأنا نأتى بخير منه أو
 مثله .

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى أنه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود
 لأنه بما تناله قدرته . والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويضك بما نسخت من
 أحكامى وغيرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادى
 المؤمنين معك وأنفع لك ولهم إما عاجلا فى الدنيا وإما آجلا فى الآخرة ، أو بأن
 أبدل لك ولهم مكانه مثله فى النفع لهم عاجلا فى الدنيا وآجلا فى الآخرة وشبيهه فى
 الخفة عليك وعليهم ، فاعلم يا محمد أنى على ذلك وعلى كل شيء قدير . ومعنى قوله
 قدير فى هذا الموضع قوى ، يقال منه قد قدرت على كذا وكذا اذا قويت عليه

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
 وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ
 وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابَ لَوْ يَرُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١٠٩) وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَكُمْ مِنَ الْخَيْرِ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ
هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ
أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى
شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ
فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا
تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ (١١٥)

التفسير

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والخطاب في « تعلم » للنبي
ﷺ والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يمتنعون من كلام اليهود وغيرهم
المعترضين على النسخ . وتوجيه الكلام الى شخص يراد به غيره شائع في كلام العرب
والمولدين ، ولذلك قال بعض العلماء : نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعني

واسمعى يا جارة . . . واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده يتصرف فيه بالايحاء والاختراع ونفوذ الامر في جميع مخلوقاته ، فهو أعلم بمصالح عباده ، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها وشرعها لهم

وقد يختلف ذلك باختلاف الاحوال والازمنة والأشخاص . فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكماً من الأحكام ﴿ وما لكم من الله من ولى ولا نصير ﴾ أى أن وليكم وناصركم هو الله وحده ، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى من قبل ﴾ والمعنى هنا أن تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما وإعنافاً ؟ حيث سألوه أن يريهم الله جهرة ، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً . . . يحذر المسلمين ما فعل أولئك ، وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى أن ترك الآيات الموجودة والأعراض عنها لأعنت النبي بسؤال غيرها لتكون بدلاً منها هو اختيار الكفر على الإيمان ، واستحباب العمى على الهدى . وتبدل وبدل واستبدل يدل على جعل الشيء في موضع آخر . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : إن سياق الآيات في نسخ الآيات ونسيانها وما جاء بعدها لا يلتزم مع تفسير المفسرين ، والمعنى الصحيح الذى يلتزم مع السياق أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، أى ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ نقيضها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أى نزلها وترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها ، فاعتنا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتى بخير منها في قوة الاقتناع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه . والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء ، وسميت جل القرآن آيات لأنها باعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل من قبيل تسمية الخواص باسم العام .

﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة . والسواء

الوسط من كل شيء . وقيل القصد . اى ذهب عن قصد الطريق وسمته ، اى طريق طاعة الله . ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفسارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الاسلام ، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به .

وفائدة هذا التنبيه أو التوبيخات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الاسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر سوء يبعث عليه الحسد لا النصيح الذى يبعث عليه الاعتقاد . وقال ﴿ حسدا من عند أنفسهم ﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية ، وإنما هو خبث النفوس وفساد الاخلاق والجود على الباطل وان ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك قفاه بقوله ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ أى بالآيات التى جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ، وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه .

﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ أى عاملوا الناس بالصفح والعفو ، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين . وفيه إشارة الى أن الله وضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، لأن الصفح لا يكون إلا من القوى لإيذانا بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ فوعدهم بأنه سيمدهم بمعونته ويؤيدهم بنصره . أى افعلوا ذلك إلى أن يأتي اليكم الأمر من الله سبحانه فى شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به فى سابق عله ، وهو قتل من قتل منهم ، وإجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه وإسلام من أسلم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقدرته هى النافذة التى لا يشذ عنها شيء فى العالمين . ومعنى الآية ههنا : ان الله على كل ما يشاء بالذين وصفت من أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم قدير إن شاء الانتقام منهم بعنادهم ربهم ، وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الايمان ، لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يتعذر عليه أمر شاء قضاءه ، لأن له

الخلق والأمر ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وإقامة الصلاة إنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية ، وذلك بأشعار القلب عظمة الله وكبريائه ، فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله وتتزه النفس أن تأتى الفواحش والمنكرات ، فنفس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيه الصلاة من القوة المعنوية ، ومن الثقة بقدره الله تعالى .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة ، لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع . ثم فيها من معنى العبادة مافى الصلاة ، فان المال كما يقولون شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيدا فى إيمانه ،

فهى إصلاح روحى أيضا ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ قوله تعالى « تجدوه » هو كقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ، وقالوا : ان المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنيًا على أثر العمل فى نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث

المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه فقال ﴿ ان الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئا ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا

من كان هودا أو نصارى ﴾ وهو عطف على قوله ﴿ ود كثير من أهل الكتاب ﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى كذلك فى أنفسهم ، وهذه عقيدة الفريقين الى اليوم ، وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة

لهم عليه فى كتبهم المنزل فقال ﴿ تلك أمانتهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ والامانى جمع أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه . ثم طالبهم تعالى بالبرهان على صدق دعواهم ، فقرر لنا قاعدة لا توجد فى غير القرآن من الكتب السماوية وهى أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه ، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها .

قال الله ردا عليهم ﴿ بلى ﴾ وهى كلمة تذكر فى الجواب لاثبات نفي سابق فهى

مبطله لقولهم ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ الخ أى بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى ، وإن رحمة الله مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها ، وهو ما بينه سبحانه

وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ لإسلام الوجه لله هو التوجه اليه وحده ، وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، والاحسان فى دار المقامة . قيده تعالى باحسان العمل الذى يكون عليه الأجر ، وتلك سنة القرآن : تقرن الإيمان بعمل الصالحات لقوله تعالى ﴿ ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجرد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نفيرا ﴾ وهذا فى معنى الآيات التى يفسرها نبي أمانى المسلمين كما نفى أمانى أهل الكتاب ، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالإيمان والعمل الصالح معا . والمعنى : بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له محسنا فى فعله فله جزاؤه وثوابه عند الله

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه الى الله وهو المحسن فى عمله الآخر عند الله نفى عنه الخوف فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ولا شك أن الخوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأسأوا أعمالهم بالأعراض عن الهداية الدينية .

﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ من الدين حقيقى يعتد به ، فالشيء فى اللغة هو الموجود المتحقق ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ من الدين حقيقى يعتد به ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ أى يتلو كل منهم كتابه ، فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر وهو (عيسى عليه السلام) ولكنهم لم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح انه جاء متما لنا موسى لا ناقضا له ، وهم قد نقضوه : ترك بعضهم أوله ، وبعضهم آخره ، فلم يؤمن به كله أحد منهم . والكتاب الذى يقرأون حجة عليهم ﴿ كذلك ﴾ نحو ذلك السخف والخسران ﴿ قال الذين لا يعملون ﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿ مثل قولهم ﴾ فيغضب كل ملته التى جعلها جنسيته وزعم أنها هى المنجية

﴿ فانه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فانه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل ، وهو الذى يحق الحق ويجعل أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل ويأتى

بأهله فى الجحيم ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ﴾ والمعنى لا أحد أظلم . وقيل المساجد هنا بيت المقدس ومحاربه ، وقيل السكبة . وجمعت لأنها قبلة المساجد ، أو للتعظيم . وقيل المراد سائر المساجد . والآية ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح ، وبتحريم السعى فى خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون فى خرابها - أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من

استفهام الإنكار ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وهذا خبر من الله عز وجل عن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، قد حرم عليهم دخول المساجد التى سعوا فى تخريبها ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ماداموا على مناصبة الحرب إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهم بها . أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله

﴿ لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزي الدنيا فهو ما يقتضيه الظلم من فساد العمران المفضى الى الذل والهوان ، ويعنى بالخزي العار والشر والذلة : إما القتل والسب ، وإما الذلة والصغار بأداء الجزية . وعذاب الآخرة فانه أعلم به ، ونحن بوعدة ووعيده من المؤمنين .

﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ المراد بالشرق والمغرب الأرض كلها ، لأنهما ناحيتاها .

﴿ فإني أتولوا فتم وجه الله ﴾ أى أى مكان تستقبلون فى صلاتكم فهناك وجه القبلة التى أمر الله بأن يتوجه اليها ، والمراد على كل حال أية جهة استقبلت وتوجهت اليها فى صلاتك فأنت متوجه الى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ ان الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر ، فيصح أن يتوجه اليه فى كل مكان فهو يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضل والجود والتدبير ﴿ عليم ﴾ بالمتوجه اليه أينما كان . أى فاقصد الله حيثما كنت ، وتوجه

إليه أينما حللت ، ولا تنقيد بالأمكنة فإن معبودك غير مقيد ، عليم بأفعال عباده لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

وهذه الآية تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهي أن الله تعالى لا تحدده الجهات ، ولا تنحصره الأمكنة ، ولا يتقرب إليه بالبقاغ والمعابد ، ولا تنحصر عبادته في الهياكل والمساجد ، وإنما ذلك الوعيد لانتهاك حرمة الله وإبطال نوع من أنواع عبادته وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعابد على خير الأعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قُتُبُونَ
(١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
(١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبِهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَىٰ
عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْمُهْدَىٰ وَلَئِنْ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)
الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ (١٢١)

التفسير

﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ ان الله تعالى أخبرنا في موضع من كتابه بان اليهود قالت : عزيز ابن الله ، وان النصارى قالت : المسيح ابن الله . وان المشركين قالوا : ان الملائكة بنات الله ، ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له مافي السموات والارض كل له قانتون ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة « سبحانه » التي تفيد التنزيه مع التعجب عما يتافى أن جميع مافي السموات والارض ملك له قانت لعزته وجلاله اى خاضع لقره مسخر لمشيتته ، ولا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه ، وجعله ولدا بجانبه له ، وقد يختص الله سبحانه من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحى ، ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالخلق الى مرتبة الخالق

﴿ بديع السموات والارض ﴾ البديع بمعنى المبدع . وقالوا ان الابداع هو إيجاد الشئ بصورة مخترة على غير مثال سبق ، وإذا كان هو المبدع للسموات والارض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب اليه شئ منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فتحته إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه إنما يأمره أن يكون موجودا فيكون موجودا ، فكن ويكون من « كان » التامة . وذهب بعضهم إلى أن أمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود ، أو المراد به جملة موجودا دائما توجه اليه لأنه معلوم ، فأنه تعالى يعلم الشئ قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا فتعلق ارادته بوجوده على حسب مافي علمه فيوجد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه « الأمر القدرى السكونى » ، وإذا كان الله تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكه ومستخرة لإرادته فلا معنى لإضافة الولد اليه

﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أى الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركى العرب : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم الله هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التى اقترحناها ، يعنون ما حكاها الله تعالى عنهم بمثل قوله :

﴿ وقالوا لن تؤمن لك حتى نفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول ، قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم فى معناه ، وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتا وعنادا ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصلوا به . والتشابه هنا هو فى مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى اليه واقتراح الآيات تعنتا وعنادا .

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى اننا لم ندعك يا محمد بغير آية ، بل بينا الآيات بياناً لا يدع للريب طريقاً إلى نفس من يعقلها ، وقد قال ﴿ بينا الآيات ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للترفة والفصل بين آيات القرآن التى هى من علم الله وكلامه ليظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم ولا يحسار فيه الذهن ، وبين الآيات الكونية التى هى من صنعه يستخذى لها العقل ويخضع لها الشعور بأنهم - من قوة فوق قوته - وأن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين ولذلك قال ﴿ لقوم يوقنون ﴾ وهم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد ، وتوجهوا إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا وأيقنوا إيقاناً . ثم قال ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى إنا أرسلناك بالعقائد الحقة المطابقة للواقع ، والشرائع الصحيحة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿ بشيراً ﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ ونذيراً ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزى الآخرة ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بمجودهم إلى الجحيم ، لأنك لم تبعث ملزماً لهم ، ولا جباراً عليهم ، فيعد عدم إيمانهم تقصيراً منك تسئل عنه ، بل بعثت معلماً وهادياً بالبيان والدعوة وحسن الأسوة ، لا هادياً بالفعل ولا ملزماً بالقوة . ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ومعناه أن اليهود والنصارى على اتحادهم فى أصل الدين قد تغضب لتقاليده . ومن اتخذ الدين جنسية لا يرضيه

من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها ، فقله تعالى ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والآهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة . ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أى أجهر بقول الحق ، وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ، ففرقوا دينهم ، وكانوا شيعة كل شيعة تكفر الاخرى وتقول إنها ليست على شيء . أى فإن أردت استرضاهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى أضافوها على كتبهم وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ اليقين بالوحى الإلهى المبين الذى بين ما كان منهم مما ذكر ﴿ مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ أى فأنك لن تنجح ولن تصل إلى حَقِّ مجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع ، فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ ، وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذى ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعى الهدى على علم صحيح ، وأنهم هم الغالبون المنصورون ، وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل فى كل تنازع بينه وبين ما دونه

إن الله يخاطب الناس كافة فى شخص النبى ﷺ ، فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدق بالحق والانتصار له وعدم المبالاة بمن يخالفه - مهما قوى حزبه واشتد أمرهم - فمن عرف الحق وعرف أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم لا يخاف فى تأييده لومة لائم .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى وهم ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : أى يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه إذا تبعه ، ومنه قوله ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أى اتبعها . كذا قيل . ومن المحتمل أن يكون من التلاوة أى يقرأونه حق قراءته ، ويفهمون أسرارها ويفقهون حكمة تشريعه وفائدة نوط التكليف به ، لا يتقيدون فى ذلك بآراء من سبقهم فيه ولا بتحريفهم كله عن مواضعه ﴿ أو لك ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقى فى الدين

(يؤمنون به) أى يصدقون به بعد العلم بأنه الحق (ومن يكفر به) أى بالكتاب ويحجد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ وتصديقه ويبدله ويحرف تأويله من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الأكثرون (فالولئك هم الخاسرون) لسعادة الدارين ، المحرومون بما يكون للؤمنين من المجد والسيادة

وجملة القول أن الذى يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسرارہ ، ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارىء يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها ، وإنما الفهم فهم التصديق والاذعان ، فمن يتدبر الكتاب ينبغي له أن يتدبره مستهديا ومسترشدا وعاملا ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيمتدئ ويرشد . وقد ورد في الحديث ، القرآن حجة لك أو عليك ، فإن اتبعت هدايته سافك إلى الجنة ، وإن أعرضت عن هدايته سافك إلى النار ولو تلوته آثام الليل وأطراف النهار

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ (١٢٣) وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبَشِّرِ
الْمُصِيرَ

التفسير

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة ، ثم أعيد هنا للنسابة الظاهرة ، وهي
أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به ، وذكرهم
بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون
حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا ، وهذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكه القصة
والمقصود من إقامة الحجة ، ذلك قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله
بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن
تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ وكانوا يعتقدون بالمسكفات تؤخذ عدلا أي (فداء) عما
فرطوا فيه بشفاعه أنبيائهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه
شيء آخر ، ثم قطع جبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾
أي أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ
بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ إن الكلام في هذه الآية موجه إلى مشركي العرب ، ووجه الاتصال
بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ،
وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون
إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم السكبة معبدهم الأكبر ، وكانوا في
عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب ﴿ وَإِذْ ﴾ بمعنى

واذكر لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم اذ ﴿ابتلى ابراهيم ربه﴾ ابتلى أى اختبر ، ﴿كلمات﴾ جمع كلمة ، والمراد هنا مضمونها من أمر ونهى - والمراد من الآية أن الله تعالى عامل ابراهيم عليه السلام معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو اثر لها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله باتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال .

﴿ قال انى جاعلك للناس إماما ﴾ الامامة هنا بمعنى الرسالة ، وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص . وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ، فقام على عهده بالحنيفية ، وهى الايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك . وتسلسل ذلك فى ذريته خاصة فلم ينقطع دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الاسلام بأنه ملة ابراهيم ﴿ قال ومن ذريتى ﴾ أى قال ابراهيم واجعل من ذريتى أئمة للناس ، وقد راعى الأدب فى طلبه فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل اقتصر على بعضها لأنه الممكن .

وبماذا أجب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعاء ؟ ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ أى إننى أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدي بالامامة لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم ، ففى العبارة من الايجاز ما يناسب ما قبلها ، وانما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم بتنفير ذرية ابراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه وينشثوا أولادهم على كراهيته ، ولتنفير الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم .

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ والمعنى واذكر أيها الرسول - أو أيها الناس - إذ جعلنا البيت الحرام بمكة مثابة للناس وأمنا ، أى ذا أمن بأن خلقنا بما لنا من القدرة فى قلوب الناس من الميل إلى حجه والرحلة اليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا . ولفظ « البيت » من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام ﴿ واتخذوا من

مقام ابراهيم مصلى ﴾ ومقام اسم مكان من القيام ، قال بعضهم إنه الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء الكعبة ، وقال آخرون إنه الحرم كله ، والمراد بالمصلى موضع

الصلاة بمعناها اللغوي العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقاً
 ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ الخ عهد اليه بالشيء وصاه به ،
 والمراد أن الله كلمهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسب اليه وسماه بيته لأنه جعله
 معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة ، ولم يذكر ما يجب أن يطهراه منه ليشتمل جميع
 الرجس الحسى والمعنوى كالشرك وأصنامهم واللغو والرفث والتنازع . وقوله تعالى
 ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ بين لنا أن إبراهيم وإسماعيل طهراه
 بأمره لأداء نوع من العبادات فيه كالطواف حول الكعبة ، وفي معناه السعى بين
 الصفا والمروة ، ود العاكفين ، المقيمين به ، والعاكوف في المسجد والركوع والسجود
 وهما من أعمال الصلاة ، والركع السجود جمع الراكع والساجد ، والآية تدل على
 أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن آمن به بهذه العبادات

﴿واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ والمعنى ظاهر ، وهو أن يكون
 محفوظا من الأعداء الذين يقصدون السوء ، أى من يكون فيه يكون آمنا بمن يسطو
 عليه فيظلمه أو ينتقم منه ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾
 فالثمرات تجمع من حيث تكون وتساق إلى مكة . وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين
 كما هو اللائق به ، ولكن الله واسع الرحمة ، وقد جعل رزق الدنيا عاما للمؤمن
 والكافر ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾
 ﴿قال ومن كفر فأتبعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أى وأرزق من
 كفر أيضا فأتبعه بهذا الرزق قليلا - وهو مدة وجوده في الدنيا - ثم أسوقه إلى
 عذاب النار وبئس النهاية والحاقمة .

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت
 السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا
 مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا

منهم يتلو عليهم مايتك ويعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم (١٢٩) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد أصطفينه
في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت
لرب العلمين (١٣١)

التفسير

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ظاهر في أنهما هما اللذان
بنا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية - وقد ذكر القصاصون روايات
كثيرة فضرب عنها صفحا . و (القواعد) - وهي جمع قاعدة - وهي ما يعقد القوم
عليه البناء من الأساس أو من الساقات . ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلائها نفسها
و « من » للبيان ، وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران ، وتقديم إبراهيم
عليه السلام الالماع الى كون المأمور من الله ببناء البيت هو إبراهيم ، وإنما كان
إسماعيل مساعدا له ، وقد ورد أنه كان بناوله الحجارة ، (ربنا تقبل منّا) الخ
دعاء وبيان لحالهما وقتئذ ، وتقبل الله العمل قبله ورضى به (إنك أنت السميع)
لأقوالنا (العليم) بأعمالنا ونيتنا فيها (ربنا واجعلنا مسلمين لك) المسلم
والمستسلم واحد وهو المنقاد الخاضع ، والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص
لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعا . دعا هذان النبيان العظيمان لانفسهما بحقيقة
الاسلام أى واجعلنا مسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك في الطاعة
أحدًا سواك ، ولا في العبادة غيرك . ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا (ومن ذريتنا
أمة مسلمة لك) أى واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الإسلام لك
بقوة الأمة وتعاون الجماعة . وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وولده اسماعيل

عليهما السلام ، وجعل في ذريتهما أمة الاسلام وبعث فيها مناسك خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى علمنا إياها علما يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح . والمناسك جمع منسك ومعناه غاية العبادة . وهو الموضع الذى ينسك منه فيه ويتقرب اليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له ، وإما بصلاة أو طواف أو سعى أو غير ذلك من الأعمال الصالحة . وأصل المنسك في كلام العرب الموضع الذى يعتاده الرجل ويألفه ، ولذلك سميت المناسك مناسك لأنها تعتاد ويتردد عليها بالحج والعمرة وبالأعمال التى يتقرب بها الى الله وأغلب استعمال المنسك في عبادة الحج خاصة ، والمناسك فى أفعاله وأعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة لتوب ونرجع اليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك ، أو المعنى أقبل توبتنا ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى إنك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك ، وإن كثرت تحولهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة اليك وقبول توبتهم منهم الرحيم ، بالتائبين المستنقذ من تشاء منهم رحمتك من هلكته ، المنجى من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك . ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ أى من أنفسهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ كما ورد فى حديث أحمد : أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ، الخ ووصف هذا الرسول بقوله ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ الدالة على صدق رسلك إلى خلقك ، فالمراد بالآيات : الآيات الكونية والعقلية ، وتلاوتها ذكرها للمرة بعد المرة لترسخ فى النفس وتؤثر فى القلب . أى يقرأ عليهم كتابك الذى توحىه إليه

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ فسرروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة . وفيه وجه ثان وهو المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابة ، وإنما الدعاء لأمة أمية لا بد فى إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة ، وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أو سبقها حتى تكون من الكاتبين مثلاً . وأما الحكمة فهى فى كل شىء معرفة سره وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بسيرته فى المسلمين وما فيها من الفقه فى الدين . ﴿ ويزكهم ﴾ أى يظهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك

العادات الرديئة ، أى يطهرها من الشرك وسائر المعاصى ويعودها الأعمال الحسنة التى تطيع فى النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى تغريها بالشرك (إناك أنت العزيز الحكيم) العزيز : هو الغالب على أمره فلا ينال بضم ولا يغلب على أمر ، والحكيم : هو الذى يضع الأشياء أحسن وضع ، ويحسن الصنع

(ولا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أى امتننها واستخف بها كأنه تعالى يقول : هذه ملة إبراهيم الذى تنتسبون اليه وتفتخرون به ، فكيف ترغبون عنها ، أى تبتعدون عنها وتنتحلون لأنفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا نشورا لا بالذات ولا بالواسطة . ومعنى الكلام : وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية المسئلة إلا سفیه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها فى معادها (ولقد اصطفيناه فى الدنيا) أى اخترناه واجتبيناه لهذه الملة فجعلناه إماما للناس وجعلنا فى ذريته الكتاب والنبوة ، فى ذلك أوضح بيان من الله سبحانه عن أن من خالفه فهو لله عدو لخالفته الإمام الذى نصبه الله لعباده . (وأنه فى الآخرة لمن الصالحين) لجوار الله بعمله بهذه الملة ودعوته اليها وارشاده الناس لها . والصالح من بنى آدم هو المؤدى حقوق الله عليه ، فأخبر سبحانه عن إبراهيم خليله أنه فى الدنيا صفى وفى الآخرة ولى وأنه وارد مورد أوليائه الموفين بعهده (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) أى اصطفاه إذ دعاه إلى الاسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة . والمعنى أى أذعن وأطع . وقيل اثبت على ما أنت عليه من الاسلام والاخلاص واستقم وفوض أمورك إلى الله تعالى . وإضافة الرب فى جوابه عليه السلام إلى العالمين للايذان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ، أى خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

التفسير

(ووصى بها) ووصى بهذه الكلمة ، أعنى بالكلمة قوله «أسلمت لرب العالمين» وهى الاسلام الذى أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العباداة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له ، أى بالملة أو الخصلة التى ذكرت أخيراً (إبراهيم بنيه ويعقوب) بقيه أيضاً إذ قال كل منهما لولده (يا بنى أن الله اصطفى لكم الدين) أى اختاره لكم بهدايتكم اليه وجعل الوحي فيكم (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى حافظوا على الاسلام لله والاخلاص فى الانقياد اليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة لئلا تموتوا فيها قتموتوا غير مسلمين . أى فاتقوا الله ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . ويتضمن هذا النهى إرشاد من كان مشركاً عن الاسلام الى عدم اليأس وأن يبادر بالرجوع اليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)

ومعناه أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده - سؤال تقرير ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ عرفوا الإله بالإضافة إلى آبائه لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده ، ودعوا الأمم إلى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والأصنام والحيوانات وغيرها . وإسماعيل عم يعقوب ، ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيهه العم بالأب كما في حديث « عم الرجل صنو أبيه » ، والجمع بين الحقيقة والتمجيز جائز يكثر في القرآن ﴿ إلهها واحدا ﴾ أى نعبده حال كونه إلهها واحدا لا نشرك معه أحدا بدعاء ولا توجه في قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى والحال أننا نحن متقادون مدعنون مستسلمون له وحده دون غيره .

هذه آيات تزلت تكذيبا من الله سبحانه لليهود والنصارى في دعواهم وإبراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملتهم . فقال لهم في هذه الآية أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت فتململوا ما قال لولده وقال له ولده . ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له يتبين مما تقدم أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى لسان كل نبي ، ولذلك قال في آية أخرى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فالتفرق في الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء . فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصله : العقلي وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الإسلام والاخلاص لله في جميع الأعمال .

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ الأمة هنا الجماعة من الناس والمشار إليه إبراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون في الآية السابقة ﴿ قد خلت ﴾ مضت وذهبت من هذا العالم . لها ما كسبت من عمل تيجزى به . ولكم ما كسبتم من عمل تجزون به . ولا يجزى أحد بعمل غيره ، ولا

تسألون يوم الحساب والجزاء عما تعملون سؤال حساب وجزاء ، ولا يسألون عما تعملون كذلك ، بل كل يسأل عن عمله ويجازى به دون غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سببا له لأنه أرشده اليه وكان قدوة له فيه . فآله سبحانه يقول لليهود والنصارى : يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهل ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية فتضيفونها اليهم ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فان الدعاوى غير مغنيتكم عند الله ، وانما يغنى عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم ان كنتم عملتموها وقد متموها . وقد بين الله في هذه الآية سنته في عباده أنه لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله ، وما أحسن قول الغزالي :

إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمان يروى بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصي ينجو بصلاح والده ! والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً ، فهي أصل من أصول الدين الإلهي ، لا يفيد معها تأويل المغرورين ولا غرور الجاهلين

(وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) بيان لعقيدة الفريقين في التفرق في الدين . والضمير في (قالوا) لأهل الكتاب و (أو) للتوزيع أو التنويع . أى ان اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها ويحصرزون الهداية فيها ، والنصارى يدعون إلى النصرانية ويحصرزون الهداية فيها ، ولو صدق أى واحد منهما لما كان إبراهيم مهتدياً لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً . وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى المهتدى ، لذلك قال تعالى ملقنا لنبية البرهان الأقوى في حاجتهم (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) أى بل اتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذى لا نزاع في هداه ولا في هديه ، فهى الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ ، العريقة في التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .

والحنيف من مال عن كل دين أعوج ، ويطلق على المستقيم . (قولوا آمنا بالله

وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴿ الخطاب للمسلمين وأمرهم أن يقولوا هذه المقالة ، أى صدقنا بالله وبالقرآن وبالكتب التى سبقته التى انزلت إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، يعنى آمنّا أيضا بالتوراة والانجيل والكتب التى آتى النبيين كلهم وصدقنا . أى لا تكن دعوتكم إلى شىء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان الساوية ، بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق ، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذى لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع الاسلام لرب العالمين ، لا نعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله . والأسباط أولاد يعقوب ، والفرق والشعوب الاثنى عشر المتشعبة منهم

﴿ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ ان المراد بالايان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالا وأنه إن كان وحيا من الله فلا تكذب أحدا منهم بما ادعاه ودعا إليه فى عصره بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعضه فان ذلك لا يضرنا ، لأن الايمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا . فقد روى البخارى من حديث أبي هريرة : أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال النبي ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ﴿ آمنّا بالله ﴾ الآية . وعن معقل بن يسار مرفوعا : آمنوا بالتوراة والانجيل والزبور وليسعكم القرآن ، ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ أى معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد ﴿ وما أوتى النبيون ﴾ بمن ذكر أسماؤهم ولم تذكر ، سواء كانت لهم كتب أو لم تكن لهم كتب ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أى سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له كتاب ، نؤمن بالجميع إجمالا ، ونأخذ التفصيل عن خاتمهم النبي ﷺ الذى بين لنا أصل ملتهم التى كانوا عليها ، وزادنا من الحكم والأحكام ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان . والعمدة فى الدين على إسلام القلب لله تعالى ، والعمل بما أمر ، والانتهاى عما نهى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مدعونون مثقادون كما هو مقتضى الايمان الصحيح .

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً
وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ اتَّحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

التفسير

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أى فإن آمنوا وهم أهل الكتاب
وغيرهم بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين ، بأن يؤمنوا بمثل ما تؤمن نحن به - لا
بما هم عليه من ادعاء حلول الله في بعض البشر وكون رسولهم إلهاً أو ابن الله - فمَن
تؤمن بالتنزيه وهم يؤمنون بالتشبيه فقد اهتدوا أى وفقوا ورشدوا ولزموا طريق
الحق ﴿وإن تولَّوْا﴾ أى أعرضوا عما تدعوهم اليه من الرجوع إلى أصل دين
الأنبياء ولبابه بإيمان كإيمانكم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أى أن أمرهم محصور في العداوة
والمشاققة أى الايذاء والايقاع في المشقة ، أو شق العصا بتزيين الخلاف والتعصب لما
يفصلهم ويبينهم منكم ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى يكفيك ايذاءهم
ومكرهم السيء ويؤيد دعوتك وينصر أمتك . فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين
ما داموا قائمين بأمر الدين ، وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على
ذلك الإيمان ، وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا

عن الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر ﴿ ولينصرن الله من ينصره
إن الله لقوى عزيز ﴾

﴿ صبغة الله ﴾ وهى ما صبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة
الْفِطْرَةِ . والصبغة فى أصل اللغة صبغة للهيئة من صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص
﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أى دين الله أو الاسلام ، أى لا أحسن من صبغته
فهى جماع الخير الذى يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكى النفوس ويطهر القلوب
والعقول ﴿ ونحن له ﴾ وحده ﴿ عابدون ﴾ فلا تتخذ أحيارنا وعلماؤنا أربابا
يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحلون لنا بآرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا
صبغة الله الموجبة للتوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد
﴿ قل أتحاجوننا فى الله ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أنبياء
الله وأحباؤه ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، ومن أين جاءكم
هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين ، فنسبة الجميع
إليه واحدة وإنما تتفاضل الناس بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التى تختص
آثارها بنا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ كذلك ، وروح
الأعمال كلها الاخلاص ، فهو وحده الذى يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة
لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم . وحاصل معنى الآية ابطال معنى شبهة
أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه ، والفوز عندهم بعمل سلفهم لا بإصلاح أنفسهم
ولا بأعمالهم ، وهذا الاعتقاد هدم لدين الله ، وإن روح الدين الإلهى وملاكه هو
التوحيد والاخلاص المعبر عنه بالاسلام ، وكل عمل أمر به الدين فإنما الغرض منه
إصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فإن زال هذا المعنى وحفظت
جميع الأعمال الصورية فإنها لا تفيد شيئا ، بل إنها تضر بدونه ، لأنها تشغل الانسان
بما لا يفيد وتبعده عن المفيد

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو

نصارى) الآية في إقامة الحجة عليهم بأنهم يعتقدون أن إبراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الإلهية المرضية عند الله تعالى ، وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة على عهد إبراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويمزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن إبراهيم كان يهوديا أو نصرايا وإنما يقول انهم لا يقدرّون على القول بذلك ، لأن البداهة قاضية بكذبهم ، ولذلك قال لنييه (قل أنتم أعلم أم الله) أنتم أعلم بالمرضى عند الله أم الله أعلم بما يرضيه وما لا يرضيه ؟ لا شك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون

(ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) والمعنى أن هؤلاء (اليهود) يجادلون في الحق بعد ما تبين ، مباهتون للنبي مع العلم بأنه نبي ، إذ ما كان لهم أن يشتبها في أمره بعد شهادة كتابهم له ، فإذا كان ظلمهم لأنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية فكيف ينتظر منهم أن يصغوا إلى بيان أو يخضعوا لبرهان ، والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتقريع المؤكدين بالوعيد في قوله (وما الله بغافل عما تعملون) وإنما الجزء على الأعمال . ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) وإنما تسألون عن أعمالكم وتجاوزون عليها فلا ينفعكم ولا يضركم سواها . وهذه قاعدة يتبعها كل دين . كررت هذه الآية للتأكيد . أو لأن المراد بالاول الانبياء عليهم السلام وبالتالي أسلاف اليهود والنصارى .

جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها ، ونفى الانتفاع بالانبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الانبياء العظام المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصروا عن غيرهم في الأعمال . وفائدة الإعادة تقرير بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء والإشعار بمعنى عطية السياق هنا ، وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من

الأنبياء فهم في الحقيقة على غير دينهم ، فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحدا منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى قال تعالى ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾

الجزء الثاني - من سورة البقرة

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ
 اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ
 أُمَّةً وَسَطًا لَّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
 الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ
 لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِبْنَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ
 لَرَّوْفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا
 فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ
 (١٤٤) وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
 بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
 مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ مَا تِلْكَ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
 آبَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

التفسير

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ ليست
صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في مادتها وجوهرها ، فليس لها منافع
وخواص لا توجد في غيرها ، وكذلك يقال في هيكل سليمان وفي الكعبة والبيت
الحرام ، وإنما يجعل الله للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم ، ولكن سفهاء
الأحلام من أهل الجود يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة
أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحججة التي لقنها الله لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين
بهذه الحكمة ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أى إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة
منها على جهة ، وإن الله يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء وهو الذى ﴿ يهدى
من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال ،
وإن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب لا بالوجوه . و ﴿ السفهاء ﴾ هم الذين
خفت أحلامهم واستمغنوها بالتقليد والأعراض عن النظر ، يريد المنكرين لتغيير
القبلة من المنافقين واليهود والمشركين ، وولاه صرفه عنه

قال تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ الوسط هو الخيار بين طرفي الأمر ،
أى المتوسط بينهما . والأمة الإسلامية قد جمع لها في دينها بين الحقين حق الروح
وحق الجسد فهى روحانية جثمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق
الإنسانية ، فإن الإنسان جسم وروح وحيوان وملك كأنه قال : جعلناكم أمة وسطا
تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين ﴿ لتكونوا شهداء ﴾ بالحق ﴿ على الناس ﴾
الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين والروحانيين إذا فرطوا وكانوا من الغالين ، وإن
ما هديتم إليه هو الكمال الإنسانى ، لأن صاحبه يعطى كل ذى حق حقه : يؤدى
حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق جسمه وحقوق ذوى القربى وحقوق سائر الناس
﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ أى أن الرسول صلوات الله عليه هو المثال الكامل
لمرتبة الوسط ، وإنما تكون هذه الأمة وسطا باتباعها له في سيرته وشريعته ، وهو
القاضى بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو

المبتدعين . فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقاها الجسدى والروحى بأنهم قد ضلوا عن القصد يشهد لها الرسول بما وافقت سنته وما كان لها من الاسوة الحسنة فيه . فكأنه قال : انما يتحقق لكم وصف الوسط اذا حافظتم على العمل بهدى الرسول واستقمتم على سنته ، وأما اذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التى وصفها الله فى كتابه بهذه الآية بقوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ بل تخرجون بالابتداع عن الوسط ، وتكونون فى أحد الطرفين ، وكلاهما مذموم

بين الله تعالى للسلدين منزلتهم من سائر الأمم وهى أنهم أمة وسط لا تغلو فى شيء ولا تقف عند الظواهر ، وأنهم شهداء على الناس وحجة عليهم باعتمادهم فى الأمور كلها وفهمهم لحقائق الدين وأسراره ومن أهمها القبلة التى يتوجه اليها لا شأن لها فى ذاتها وإنما العبرة فيها باجتماع أهل الملة على كيفية واحدة عند التوجه الى الله تعالى ، ولا يليق أن تبالى بانتقاد السفهاء المذبذبين بين الإفراط والتفريط . بعد هذا قال تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب

على عقبيه ﴾ أى وما جعلنا القبلة فيما مضى هى الجهة التى كنت عليها الى اليوم ثم أمرناك بالتحويل عنها الى الكعبة الا ليتدبين الثابت على إيمانه من لا ثبات له . وإنما يثبت من فقه فى الشيء فعرف سره وحكمته ، وأما المقلد الآخذ بالظواهر من غير فقه ولا عرفان فلا يثبت فى مهاب عواصف الشكوك والشبهات . ومعنى الانقلاب على العقبين الانصراف عن الشيء وتركه بالمرّة . وفيه إشعار أنه رجوع عن خير الى شر . ولذلك قال تعالى ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ فمنهم

الاعتدال فى الفكر والادراك ، وفى الميل والرغبة ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى بشر المؤمنين المتبعين بأنهم يحزون على إيمانهم الجزاء الأوفى فلا يضيع الله أجرهم ولا يلتهم (ينقصهم) من ثباتهم على اتباع الرسول شيئا . وقال القرطبي : اتفق العلماء على أنها نزلت فىمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ، ثم قال :

فسمى الصلاة إيمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل . وقيل ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم . ﴿ ان الله بالناس

لرؤوف رحيم ﴿ أَى الله رؤوف بالناس لأنه ذو الرحمة الواسعة فلا يضيع عمل عامل منهم . والرأفة لا تستعمل الا فى حق من وقع فى بلاء ، والرحمة تشمل دفع الألم والضرر ، وتشمل الاحسان وزيادة الاحسان . ﴿ قد نرى قلبك وجهك فى السماء ﴾ تقلب الوجه فى السماء عبارة عن التوجه الى الله تعالى انتظارا لما كانت تشعر به روح النبي ﷺ وترجوه من نزول الوحي بتحويل القبلة . ولا تدل الآن على أنه كان يدعو بلسانه طالبا هذا التحويل ولا تنفى ذلك . وهذا التوجه هو الذى يحبه الله تعالى ويهدى قلب صاحبه الى ما يرجوه ويطلبه لذلك قال تعالى ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ وقرن الوعد بالأمر فقال ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ والشطر هنا معناه النحو والجهة ، فالواجب استقبال جهة الكعبة على البعد عنها وعدم رؤيتها . ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أمر الله المؤمنين بما أمر به النبي للتأكيد الذى اقتضته الحال فى حادثة القبلة ، فانها كانت حادثة كبيرة استتبع فتنة عظيمة . فأكد الأمر بها وشرفهم بالخطاب مع خطاب الرسول صلوات الله عليه لتشتد قلوبهم وتطمئن نفوسهم ﴿ وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أى إن تولى المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر ، الحسيب على مافى السرائر ، الرقيب على الاعمال ، فيخبر نبيه بما شاء أن يخبره ، واليه المرجع والمصير ، وعليه الحساب والجزاء ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ فلا يحزنك قولهم ولا أعراضهم ، ولا تحسبن الآيات والدلائل مؤثرة فيهم وصارفة لهم عن غنادهم ، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ أى فائدة ترجى من موافقتك إياهم عليها وأنت تابع قبيلة ابراهيم الذى يحلونه ويحترمونه ؟ ألم تر كيف اختلفوا هم فى القبلة فجعل النصارى لهم قبلة غير قبلة اليهود التى كان عليها عيسى بعد موسى ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ لأن كلا منهم قد جمد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر فى آية ولا دليل ، فهو أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، أغلف

القلب لا يعقل ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين ﴾ :
 أى ولئن التمت يا محمد رضا هؤلاء اليهود والنصارى فرجعت الى قبلتهم بعد أن وصل
 اليك من العلم باعلاى إياك أنهم يقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق انك اذا من
 المخالفين أمرى المعتدين حدودى

أفرد النبي عليه الصلاة والسلام بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة ، اذ يستحيل
 أن يتبع هو أهواءهم أو يجاريهم على شىء نهى الله تعالى عنه ، ليتنبه الغافل ويعلم
 المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على ما هم عليه من باطل هو من الظلم
 العظيم الذى يقطع طريق الحق ويرد الناس فى مهاوى الباطل ، كأنه يقول : هذا
 ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد ، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله
 تعالى لسجل عليه الظلم وهو العصيان والخروج عن الطاعة وجعله من أهله الذين صار
 وصفا لازما لهم ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ فكيف حال من ليس له ما يقارب
 مكاتته عند ربه عز وجل - وفى هذا إيماء الى اتباع العلماء أهواء العامة بعد ما جاءهم
 من العلم وما نزل عليهم من الوعيد عليه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون
 أبناءهم ﴾ ذكر فى هذه الآية علة الإنكار وهو أنهم (أهل الكتاب) يعرفون النبي
 ﷺ بما فى كتبهم من البشارة به ومن نعوته وصفاته التى لا تنطبق على غيره وبما
 ظهر من آياته وآثار هدايته . وقيل يعرف هؤلاء الأخبار من اليهود والعلماء من
 النصارى أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة ابراهيم وقبلة الأنبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم
 الذين يتولون تربيتهم وحياتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شىء ﴿ وان فريقا منهم
 ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ أنه الحق الذى لا مرية فيه ، فإذا يرجى منهم بعد
 هذا . وقد أسند هذا الكتابان الى فريق منهم اذ لم يكونوا كلهم كذلك ، فإن منهم من
 اعترف بالحق وآمن واهتدى به ، ومنهم من كان يمجده عن جهل ولو علم به لجاز أن
 يقبله

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

التفسير

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) أى أن العمدية في معرفة الحق هو الوحي يأتيك من عند ربك فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء الجاحدين فانها لا تصلح شبهة على الحق الصريح الذي عليك الله فتمترى بها (تشك) . والنهي في الآية هو كالوعيد في الآية السابقة ، أى لا تكونن في شك يا محمد أن الكعبة هي قبلتك وكانت قبلة الأنبياء من قبلك . وجه الخطاب به الى النبي ﷺ والمراد أمته من كان منهم غير واسخ في الايمان وخشى عليه الاغترار بمظاهر اولئك المخادعين الذين يغتر بأمثالهم في كل زمان ومكان (ولكل وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا) أى لكل أمة من الأمم جهة توليها في صلاتها . والمراد بالوجهة القبلة أى انهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم . (فاستبقوا الخيرات) باتباع الامام المرشد ، وإياكم والجدل والمشاغبة في أمثال

هذه الأمور . وهذا الأمر عام موجه إلى أمة الدعوة لا خاص بالمؤمنين المستجيبين لله والرسول . والمراد من الاستباق إلى الخيرات الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها وقيل الأعمال الصالحة . ثم قال ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ﴾ أي في أي جهة وأى مكان يقيم المرء فإله تعالى يأتي به ، إذ البلاد والجهات لا شأن لها في أمر الدين لذاتها وإنما الشأن لعمل البر واستباق الخيرات ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فلا يعجزه الاتيان بالناس مهما بعدت بينهم المسافات ، وتناوت بهم الديار والجهات . فالتصريح بالقدرة تذكير بالدليل على الدعوى ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أعاد الله تعالى الأمر في صورة أخرى ليبين أنه شريعة عامة في كل زمان ومكان ، لا يختص ببلاد دون أخرى ، ولا بحضور دون سفر . وقد كان الأمر بالتحويل نزل على النبي ﷺ وهو في الصلاة فأعلمه بصيغة الأمر أنه ليس خاصا بتلك الصلاة ولا بذلك المكان ، بل عليه أن يفعل ذلك من حيث خرج وأين توجه ، وقد وثق الأمر وأكد به قوله ﴿ ولنه للحق من ربك ﴾ ثم قال في حال الناس ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أي أن الله لا يغفل عن أعمالكم وأنتم تحت نظر الحق دائما ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ والمراد بالناس المحاجون في القبلة المعروفون ، وهم فريقان أهل الكتاب والمشركون . ووجه انتفاء حجبتهم هو أن أهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم أن النبي الذي يبعث من ولد اسماعيل يكون على قبلته وهي الكعبة ، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له حجة على أنه ليس هو النبي المبشر به ، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم وأن المشركين كانوا يرون أن نبياً من ولد إبراهيم جاء لأحياء ملته لا ينبغى له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه جده إبراهيم ، وقد جاء التحويل موافقا لما يرونه فانتفت حجة الفريقين ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فهم لا يمتدون بكتاب ولا يعتبرون ببرهان ولا قيمة لما يقول هؤلاء ، فانهم هم السفهاء كما وصفوا في الآية الأولى وهم اليهود ومشركو العرب ﴿ فلا تخشوهم ﴾ يريد الناس أي لا تخافوا مطاعنهم فانها داحضة باطلة لا تضركم إذ لا مرجع لكلامهم من الحق ، لأنه لا يستند إلى برهان عقلي ولا هدى سماوي ﴿ واخشوني ﴾ أنا فإني

التقدير . والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه ، وأن المبطل لا يقبض أن يخشى . فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، ومسا آفة الحق ألا ترك أهله له ، وخوفهم من أهل الباطل فيه ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾ أن كل أمر يصدر من الله تعالى فامتثاله نعمة ، ولكنه إذا كان فيه حكمة ظاهرة وشرف للأمة يتعلق بتاريخها وكان أثره حميدا نافعا فيها تكون النعمة أتم والمنة أكمل ، ولذلك عبر بالانتماء ، واتمام النعمة الهداية إلى القبلة واتمام شرائع الله الخفية المسئلة التي وصيت بها الرسل من قبل ﴿ ولعلمكم تهتدون ﴾ أي كي ترشدوا للصواب ، أي وليعبدكم بذلك إلى الاهتداء بالثبات على الحق والرسوخ فيه ، فإن المعارضات والمخاضات تظهر ضعف الباطل وزهوقه ، وتبين قوة الحق وثبوته ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ أي يتم نعمته عليكم بأرساله تعالى رسولا منكم ، فالقبلة في بلادكم ، والرسول من أمتكم ، والخطاب للعرب كما هو ظاهر ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ أي حججنا الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله ﴿ وبزكركم ﴾ أي يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة والردائل الممقوتة ويخلقها بالأخلاق الحميدة بحسن الأسوة لا بالقهر والسطوة ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ تقدم تفسيره في الكلام على دعوة إبراهيم وما هو يبيد فالكتاب هو القرآن وما جاء به من الهداية والارشاد لإصلاح العباد . والحكمة هي المفسرة لما جاء به الكتاب العزيز من سيرة النبي ﷺ في بيوته ومع أصحابه في السلم والحرب والسفر والاقامة وفي حالة الضعف والقوة والقلة والكثرة ، فالسنة العملية المتواترة هي المهيئة للقرآن بتفصيل مجمله وبيان مبهمه وإظهار مافي أحكامه من الأسرار والمنافع ، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة فانها كانت كالحكمة (اللجام) لتأديب الفرس . فالسنة هي التي علمت المسلمين كيف يهتدون بالقرآن ، ومرتهم على العدل والاعتدال في جميع الأحوال ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مالا طريق لكم إلى معرفته بالنظر والفكر ، وهو لا يعلم إلا من الوحي . ويصح أيضا أن يراد ما لم تكونوا تعلمون من شئون أنفسكم ، والسنن الإلهية الخاتمة فيكم . وقد بلغوا بتعليمه وإرشاده مبلغا فاقوا فيه سائر الأمم . أي فالتعليم ليس محصورا في الكتاب ، بل هناك زيادة أعد الله تعالى نبيه لتبيينها . والمقابلة بين هذا التعليم وتعليم الكتاب مبنية على أن المراد

بالكتاب القرآن ، وبآيات الدلائل . وقد تقدم في تفسير دعوة إبراهيم وجه آخر في الكتاب ، وهو أنه مصدر كتب ، أى ويعلمكم الكتابة بعد أن كنتم أميين ، ولا مقابلة على هذا والامر ظاهر .

فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢) يا ايها الذين امنوا
استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصبرين (١٥٣) ولا تقولوا لمن يقتل في
سبيل الله اموت بل احياء ولكن لا تشعرون (١٥٤) ولنبلونكم بشيء من
الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصبرين (١٥٥)
الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون (١٥٦) اولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون (١٥٧)

التفسير

(فاذكروني) بما شرعت من أمر القبلة وبما أتممت عليكم من النعمة بارسال رسول منكم يعلمكم ويزكيكم ، ولا تنسوا أني أنا المتفضل . بافاضة هذه النعم عليكم
(اذكركم) بادامتها وبغير ذلك من أركان السعادة ، وهذه أفضل تربية من الله تعالى لعباده إذا ذكروه ذكرهم بادامة النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسيهم منه بمقتضى العدل .
ومعنى الآية اذكروني بالطاعة اذكركم بالثواب والمغفرة ودوام النعم . وقيل ذكر الله بثلاثة أقسام : ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالجوارح . فذكر اللسان هو أقل أنواع الذكر ، وهو الالفاظ التي يقصد بها العبد التحميد والتسبيح والتمجيد . وأما ذكر القلب فعلى ثلاثة أنواع : أولها أن يتفكر الانسان في دلائل الذات والصفات . . وثانيها ان يتفكر في دلائل التكليف من الامر والنهي والوعد والوعيد ويجتهد أن

يقف على حكمها وأسرارها ، وحينئذ يسهل عليه فعل الطاعات وترك المحظورات .
 وثالثها أن يتفكر الانسان في مخلوقات الله وأسرارها . . . أما ذكر الله بالجوارح فهي
 أن تصير الجوارح مستغرقة في الطاعات وخالية عن المنهيات . وبهذا التفسير سمى الله
 تعالى الصلاة ذكراً فقال ﴿ فاسمعوا الى ذكر الله ﴾ . اذا عرفت ذلك علمت أن قوله تعالى
 ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ يتضمن الأمر بجميع الطاعات والوعد باعطاء جميع الكرامات
 والخيرات . ثم بعد أن علمهم ما يحفظ النعم أرشدتهم إلى المزيد بمقتضى الجود والكرم
 فقال ﴿ واشكروا لي ﴾ هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها إلى ما وجدت لأجله ﴿ ولا
 تكفروا ﴾ أى لا تكفروا نعمى باعمالها أو صرفها إلى غير ما وجدت لأجله بحسب
 السنن الالهية . وهذا تحذير لهذه الأمة بما وقعت فيه الأمم السالفة ، إذ كفرت بنعم
 الله تعالى ، غولت الدين عن قطبه الذى يدور عليه ، وهو الاخلاص وإسلام الوجه
 لله وحده ، وعظمت ما أعطاها الله من مواهب المشاعر والعقل فلم تستعملها فيما خلقت
 له . وهكذا انحرفوا بكل شئ عن أصله فسلبهم الله ما كان وهبهم تأديباً لهم ولغيرهم ،
 ثم رحمهم بأن أرسل اليهم رسولا هداية عامة تعرفهم وجه تلك التزينة الالهية وتحذرهم
 العود إلى أسبابها . وقد امثل المسلمون هذه الأوامر زمناً قصيراً فسدوا ، ثم تركوها
 بالتدريج لخل بهم ما نرى ، فإذا عادوا عاد الله عليهم بما كان أعطى سلفهم ، وإلا
 كانوا من الهالكين . ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ المراد
 بالصبر في هذه الآيات كلها ملكة الثبات والاحتمال التى تهون على صاحبها ما يلاقه في
 سبيل الحق ونصرة الفضيلة ، وإنما يكون الامتثال بتعويد النفس على احتمال المكاره
 والشدائد في سبيل الحق ، وعلى ذلك جرى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم
 الرضوان ، حتى فازوا بعاقبة الصبر المحمود ، ونصرهم الله تعالى - مع قلتهم وضعفهم -
 على جميع الأمم مع قوتها وكثرتها . وإنما كان ذلك بالصبر ، لأن الله تعالى جعله سبباً
 للنجاة من الخسر ، كما جاء في سورة العصر . والصلاة التى أكثر من ذكرها الكتاب
 العزيز ووصف ذوبها بفضلى الصفات ، وهى التوجه إلى الله تعالى وحضور القلب معه
 سبحانه واستغراقه في الشعور بيبته وجلاله وكآل سلطانه ، تلك الصلاة التى قال فيها
 ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار . وهذا إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله ، والله معه بما جعل هذا الصبر سبباً للظفر ، لأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لأنه تنكب سنته ولم يثبت فيبلغ غايته . علم الله سبحانه وتعالى المؤمنين ما يستعينون به على مجاهدة الخواطر والهواجس ، ومقاومة الشهوات والوساوس ، فأمر أولاً بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ثم ذكر أعظم شيء يستعان عليه لذلك وهو القتل في سبيل دعوة الحق وحمايته . ذكره مدرجاً في سياق تقرير حقيقة ودفع شبهة فقال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أى لا تقولوا في شأنهم هم أموات ﴿بَلْ هُمْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ في عالم غير عالمكم ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم ، إذ ليس في عالم الحس الذى يدرك بالمشاعر وهى حياة لا نعرفها وإنما لا نثبت ما لا نعرف . ذكر الله تعالى فضل الشهادة التى استهدف لها المؤمنون في سبيل الدعوة الى الحق والدفاع عنه ، ثم ذكر بمجموع المصائب التى يلاقونها فقال : ﴿وَلَنَبْشِئَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ يعلم الله المؤمنين أن اتصاف الانسان بالإيمان لا يقتضى سعة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان ، بل يجرى ذلك بسنن الله تعالى في الخلق . وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجارى الأقدار إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والخطار . ومن لم تعلمه الحوادث وتهذبه السكوارث فهو جاهل بهدى الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين ، غير معتبر بقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ لأن معالى الأمور لا تكتسب إلا بالصبر والمثابرة .

والخوف المشار اليه في الآية — وأعداء الاسلام على ما كانوا عليه من الكثرة والقوة — ظاهر لا يخفى . على أن بعضهم فسرهم بالخوف من الله تعالى وهو كما نرى . وأما الجوع فهو أن أحدهم يؤمن ، فيفصل من أهله وعشيرته ، ويخرج في الغالب صفر اليدين ، ولذلك كان الفقر عاماً في المسلمين من أول عهدهم إلى ما بعد الفتح . ومن هذا التفسير يفهم المراد من نقص الأموال ، وهى الأنعام التى كانت معظم ما يتموله

العرب . وأما الثمرات فهي على أصلها ، وكان معظمها ثمرات النخيل ، وقد بلغ من جوع المسلمين أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرة لا سيما في واقعة الأحزاب . وأما نقص الأنفس فهو ما كان من القتل والموتان من اجتواء المدينة ، فقد كانت عند هجرتهم إليها بلد وباء وحمى . ثم ذكر من وصف الصابرين قوله ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ والمراد التلبس بمعناها ، والتحقق في الإيمان بأنهم من الله وإلى الله يرجعون ، فهو الذي بيده ماسكوت كل شيء ، ولا يفعل إلا ما سبقت به الحكمة ، وارتضاء النظام الإلهي المعبر عنه بالسنة . فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم المجديرون بالصبر إيمانا وتسليما ، بحيث لا يملك الجزع نفوسهم ، ولا تفقد المصائب همهم ، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة فيكونون هم الفائزين .

ذكر البلاء ، وذكر الوصف الذي يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء بالاجمال ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، فاما الصلوات فالمراد بها أنواع التكريم والرحمة والنجاح وإعلاء المنزلة عند الله والناس ، وأما الرحمة فهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من حسن الجزاء وبرد الرضى والتسليم للقضاء ، فهي رحمة خاصة يحسد الملحدون عليها المؤمنين ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالأمل في قلوبهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين لسعادة الآخرة بعلو النفس وكرم الأخلاق

إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَاُولَئِكَ

أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خُلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٦٢)

وَالْهُكُمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٨٣) إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (١٦٤)

التفسير

﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ إِنَّ مِنْ حُكْمِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ تَوْجِيهَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى
الِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ تَطْهِيرِهِ مِنَ الشَّرِكِ وَغَيْرِهِ كَمَا عَهَدَ اللَّهُ إِلَى أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ
وِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ . وَإِنْ فِي طَى ﴿وَلَأَتِمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بِشَارَةِ هَذَا الْإِسْتِيلَاءِ
مُفِيدَةٌ لِلْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ . وَالصِّفَا وَالْمَرْوَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِهِ أَشَدَّ الْإِرْتِبَاطِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْحُكْمَ
الَّذِي فِيهَا مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَحْيَا النَّبِيَّ دِينَهُ وَجَعَلَتْ الصَّلَاةَ
إِلَى قِبْلَتِهِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَلْوِينَكُمْ قُوَّةَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ وَكَثْرَةَ الْأَصْنَامِ عَلَى الصِّفَا
وَالْمَرْوَةِ عَنْ الْقَصْدِ إِلَى تَطْهِيرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَإِحْيَاءِ تِلْكَ الشَّعَائِرِ الْعِظَامِ ، كَمَا لَا يُلَوِّنُكُمْ
عَنْ اسْتِقْبَالِ الْبَيْتِ تَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَلَا زَلْزَالَ مَرْضَى الْقُلُوبِ مِنَ
الْمُنَافِقِينَ ، بَلْ تَقُوا بِوَعْدِ اللَّهِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . وَاصِلُ (الصِّفَا) فِي اللُّغَةِ

الحجر الاملس . و (المروة) هى الحجارة الصغار

والصفا والمروة فى هذه الآية جبلان فى مكة ، والمسافة بينهما خمسمائة متر .
والشعائر تطلق على المكان وعلى العمل المخصوص الذى هو عبادة ونسك ، وفى آية
أخرى ﴿ لا تحلوا شعائر الله ﴾

فالشعائر فى الآية معناها العلامات . فاما كون المواضع كالصفا والمروة من
علامات دين الله أو أعلام دينه فظاهر ، وأما كون المناسك والأعمال شعائر وعلامات
فوجهه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته إيمانا وتسليما . ولذلك غلب
استعمال الشعائر فى أعمال الحج لأنها تعبدية . والسعى بين الصفا والمروة من هذا

النوع التعبدى ، فهو مطلوب بقوله تعالى ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه

أن يطوف بهما ﴾ حج البيت : قصده . أو اعتمر : أى زار . والتطوف هو الذى
عرف فى الاصطلاح بالسعى بين الصفا والمروة ، وفسرته السنة بالعمل . وإذا كان
مشروعا فسواء كان ركنا بقول الأئمة الثلاثة أو واجبا كما يقول الحنفية . وقوله عز

وجل ﴿ فلا جناح عليه ﴾ لا إثم عليه فى الطواف ، وهذه الآية نزلت فى الذين

كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالصفا والمروة والذين يطوفون ثم يتحرجون أن

يطوفوا بهما فى الإسلام ، وكانت الصفا والمروة من شعائر الجاهلية . ﴿ فمن تطوع

خيرا ﴾ فان معنى التطوع فى أصل اللغة الإتيان بما فى الطوع أو بالطاعة ، وإطلاقه

على الندب اصطلاح للفقهاء وقوله ﴿ إن الله شاكر عليم ﴾ معناه إن الله يثيبه ، لأنه

شاكر يجزى على الإحسان ، عليم بمن يستحق الجزاء ومن لا يستحقه

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه

للناس فى الكتاب ﴾ إلخ ، هذه الآية عود إلى أصل السياق ، وهو مجاهدة النبي

ومعاندته من الكفار عامة ومن اليهود خاصة ، وقد بينها الله تعالى فى هذه الآية أنهم

كتموا ما فى الكتاب من الهدى والارشاد بضروب التأويل ، حتى أفسدوا الدين ،

وانحرفوا بالناس عن صراطه . وذكر جزاءهم فقال ﴿ أولئك ﴾ أى الذين كتموا

البيئات والهدى (يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أى يتسبر أمنهم ويبعدهم من ثوابه . وأصل اللعن الإبعاد والطرده . ولعن اللاعنين معناه أنهم بفعلتهم هذه موضع لعنة اللاعنين الآتى ذكره فى الآية التالية (إلا الذين تابوا) عن الكتتان (وأصلحوا) عملهم بالأخذ بتلك البيئات عن النبى ودينه والهدى المطابق لما جاء به (ويبنوا) ما كانوا يكتمونونه (فأولئك أتوب عليهم) أى أرجع وأعود عليهم بالرحمة والرافة بعد الحرمان المعبر عنه باللعنة (وأنا التواب الرحيم) يصف نفسه سبحانه بكثرة الرجوع والتوبة فأى ترغيب فى ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيرا منه لمن يشعر . وإن حكم الآية عام وإن كان سببها خاصا . فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة ، فليحاسب كل امرئ نفسه قبل أن يحاسب ، وليتب إلى الله قبل حلول الأجل لعله يتوب عليه وهو التواب الرحيم

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) المراد أن هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم إلى الموت هم أهل اللعنة وموضوع لها من الله والملائكة الروحانيين ومن الناس أجمعين (خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) قالوا الخلود فى اللعنة عبارة عن الخلود فى أثرها وهو النار بقريضة لا يخفف عنهم العذاب .

(وللهكم إله واحد لا إله إلا هو) أى فلا تشركوا به أحدا . والشرك به نوعان : أحدهما يتعلق بالالوهية ، وهو أن يعتقد أن فى الخلق من يشاركه تعالى أو يعينه فى أفعاله أو يحمله عليها أو يصدده عنها لأجل قربه منه . وثانيهما يتعلق بالربوبية وهى أن تؤخذ أحكام الدين فى عبادة الله والتحليل والتحریم من غيره ، أى غير كتابه ووحيه الذى بلغه عنه رسله . وإذا كان الله تعالى واحدا لا إله معه فلا ينبغى أن يشرك معه غيره فهو كذلك (الرحمن الرحيم) فلا ينبغى أن يعرض العبد عن أسباب رحمته اعتمادا على رحمة سواه من يظن أنهم مقربون عنده كأنه يقول : إذا

أنتم تركتم ما أنتم فيه لأجله تعالى فهو بتفرد بالالوهية يكفيكم كل ضرر تخافونه ، ويعطيكم برحمته الواسعة كل ما ترجونه ، الرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا . إن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكائمين للحق بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيهم عقوبته ولعنته . وذكر الرحمة بعدها يرغبهم في التوبة ، ويحول دون بأسهم من فضل الله بعد إيتائهم من اتخذوهم شفعاء ووسطاء عنده ، فيطابق ذلك قوله تعالى في الآية التي ذكر فيها السكتان ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ الخ .

﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ الخ هذه آية قرآنية تشرح لنا بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى إثباتا لما ورد في الآية قبلها من هذين الوصفين له تعالى على طريقة القرآن في قرن المسائل الاعتقادية بدلائلها وبراهينها

تتألف الأجرام السماوية من طوائف ، لكل طائفة منها نظام كامل محكم ، ولا يبطل نظام بعضها نظام الآخر ، لأن للمجموع نظاما عاما واحدا يدل على أنه صادر عن إله واحد لا شريك له في خلقه وتقديره وحكمته وتديره ، فهذا النظام آية على الرحمة الإلهية ، كما أنه آية على الوحدانية ، والأرض في جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان لكل منها نظام عجيب وسنن إلهية مطردة في تكوينها وتوالدها ما يتوالد من أحيائها وغير ذلك مما لا يدع شكا أنها ترجع في ذلك إلى إبداع إله حكيم رءوف رحيم ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ . ذكر هذه الآية بعد خلق السموات والأرض لأن هذا الاختلاف هو أثر مقابلة الأرض للشمس وحركتها بأزائها . وفي المشاهد من اختلاف الليل والنهار والفصول وما للناس في ذلك من المنافع والمصالح آيات بينة على وحدة مبدع هذا النظام المطرد ورحمته لعباده . ويسهل على كل أحد أن يفهمها وإن لم يعرف أسباب ذلك الاختلاف وتقديره ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ والنسكة في ذكر هذه الآية عقيب آية الليل والنهار هي أن المسافرين في البر والبحر هم الذين يمكنهم تحديد اختلاف الليل والنهار على الوجه الذي ينتفع به ، والمسافرون في البحر أحوج لمعرفة الأوقات وتحديد الجهات ، لأن خطر الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات رباني السفن معرفة علم النجوم (الحياة الفلكية) وعلم الليل والنهار

عن فروع هذا العلم - ولا بد لفهم كونها آية على وحدانيته من فهم طبيعة الماء ، وطبيعة قانون الثقل في الأجسام ، وطبيعة الهواء والرياح ، وزد على ذلك معرفة طبيعة البخار والسكرباء التي هي العمدة في سير الفلك الكبرى في زماننا ، فكل ذلك يجرى على سنن إلهية مطردة منتظمة تدل على أنها صادرة عن قوة واحدة هي مصدر الابداع وهي قوة الاله الواحد الرحيم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ المراد بالسماء جهة العلو ، وقد ذكر المطر في قوله تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ ، فحرارة الهواء هي التي تبخر المياه والرطوبات وتثيرها الرياح في الجو حتى تتكاثف ببرودته وتكون كسفا من السحاب يتخلل منه الماء ويخرج من خلاله وينزل بثقله إلى الأرض

ثم وصف الله تعالى هذا الماء بأعظم آثاره فقال ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ ، فحياة الأحياء في الأرض إنما هي بالماء ، سواء كانت بالإحياء الأول عند تكوين العوالم الحية وإيجاد أصول الأنواع ، أو الإحياء المتجدد في أشخاص هذه الأنواع وجزئياتها التي تتولد وتنمو كل يوم - وهذه المياه التي يتغذى بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة (الأرض) كلها من المطر - هذا هو الماء وفي كونه سببا للحياة في كيفية وجوده وتكوينه فإنه يجرى في ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة ، وقل مثل هذا فيما بث الله تعالى في الأرض من دابة فإنها آيات على الوحدة ودلائل وجودية على عموم الرحمة ، وبث الدواب في الأرض فرقها وإرسالها في أرجائها وأنحائها . قال تعالى ﴿ وتصريف الرياح والسحاب المستخر بين السماء والأرض ﴾ تصريف الرياح تديرها وتوجيهها على حسب الإرادة ووفق الحكمة والنظام . وذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره وتجمعه ، وهي تسوقه إلى حيث يطر وتفرق شمله أحيانا فيمتنع المطر ، وأنه يتكون بنظام ويعترض بين السماء والأرض بنظام ، فهو آية ، ولذلك قال تعالى إن في هذه الأشياء ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ . ألا إن الله كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن . وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم

بذلك بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع الله فهو من الفائزين ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَسْتَبِرَّ عَنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

التفسير

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) المراد من الند من يطلب منه مالا يطلب إلا من الله عز وجل ، أو يؤخذ منه مالا يؤخذ إلا عن الله تعالى ، والمراد بالحبة ما يحده الحب في نفسه من الانس بالمحبوب والثقة به والاعتماد عليه واللجأ اليه على اختلاف أطوار الإنسان في وجدانه واعتقاده . والحب لا ينبغي أن يكون لغير الله تعالى إذ لا يلجأ إلى غيره في كل شيء كما يلجأ إليه ، ولكن متخذى الأنداد قد أشركوا أندادهم معه في الحب ، فحبهم إياهم من نوع حبهم إياه جل ثناؤه ، لا يخصونه بنوع من الحب إذ لا يرجون منه شيئا إلا وقد جعلوا الأنداد ضربا من التوسط الغيبي فيه ، فهم كفار مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من

مؤمن موحد ، ولذلك قال تعالى : بعد بيان شركهم هذا ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ فحبهم ثابت كامل لأن متعلقه هو الكمال المطلق الذي يستمد منه كل كمال ، وللمؤمن محبوب واحد يعتقد أن منه كل شيء ويده ملكوت كل شيء وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير كسبي فهو بتوفيقه وهدايته ، وما جاءه بغير حساب فهو بتسخيره وعنايته . وللبشر أنعداد متعددون ، وأرباب متفروقون ، فإذا حزبه امر أو نزل به ضرر لجأ إلى بشر أو صخر أو توسل بحيوان أو قبر أو استشفع بزيد وعمر ، لا يدرى أيهم يسمع ويُسْمَع ويشفع فيشفع ، فهو دائما مبيل البال لا يستقر من القلق على حال . ويجب علينا أن نعتقد بأن الحكم لله تعالى وحده لا يؤخذ عن غيره الدين ، كما يجب علينا أن نعتقد بأن لا فعل لغيره تعالى ، فلا نطلب شيئا إلا منه . وطلبنا منه يكون بالأخذ بالأسباب التي وضعها وهدانا إليها ، فان جهلنا أو عجزنا فإننا نلجأ إلى قدرته ، ونستمد عنايته وحده ، وبهذا نكون موحدين مخلصين له الدين كما أمرنا في كتابه المبين ، ومن خرج عن هذا كان من متخذي الانداد ، ومن يضل الله فما له من هاد ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون

العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾ والظلم باتخاذ الانداد ووضعها موضع المعبود ، يرون العذاب المعد لهم يوم القيامة وأن القوة لله جميعا ولا دخل

لأحد في شيء أصلا ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ تفصيل حال التابعين والمتبوعين ، وقد ورد بصيغة الماضي كأن الأمر قد وقع ، ورأى الرؤساء المبطلون الذين اتبعوا أن إغواءهم للناس الذين اتبعوا رأيهم وقلدهم دينهم قد ضاعف عذابهم ، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم ، فتراها منهم فتنصلوا

من ضلالتهم ﴿ و ﴾ قد ﴿ رأوا العذاب ﴾ فأنى ينفعهم التبرؤ ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فلم تبق من صلة بينهم وبين التابعين ، فلا منفعة للتبرؤ تركت فيحمد تركها ، ولا هداية للبرأ منه ترجى فيحمد أثرها .

والأسباب جمع سبب ، وهو كل ما تسبب به الرجل إلى الوصول إلى حاجته وطلبته ، فيقال للوسيلة سبب للوصول بها إلى الحاجة ، وكذلك كل ما كان به إدراك

الطلبة فهو سبب لادراكها ، وأصله في اللغة الحبل الذي يشد به الشيء ويجذب به ثم جعل كل ما جرح شيئاً سبباً . والمراد به الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم وغيره ، وقيل هي الاعمال

﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبردوا منها ﴾ أي تمنى لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين ونفصل من رياستهم ، أو لنتبع سبيل الحق ونهتدي بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم نعود إلى هنا - الآخرة - فنتبرأ من هؤلاء الضالين كما تبردوا منها ، إذ نسعد بأعمالنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم

﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي أن الله تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم ، إذ جعلها مستندلة مستعبدة لغير الله تعالى ، فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها ، فالأعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس ، ولكن لم يظهر ذلك إلا في الدار التي تسعد فيها كل نفس بارتقائها وتشقى بانحطاطها ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ إلى الدنيا فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم ، لأن علة دخولهم فيها هي ذواتهم بما طبعتها عليه أعمال الشرك وحب الأنداد .

وما بين الله تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم إلا عبرة لمن يؤمن بكتابه حتى لا يقع فيها وقعوا فيه فيكون من الهالكين

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ عِبَادَنَا أَوْ لَوْ كَانَ مَا بَوَّاهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ

كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صَمَّ بِكُمْ عَمَىٰ فُهِمَ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

التفسير

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الحلال هو غير الحرام الذي نص عليه في قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ مَحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا ﴾ لغير الله ﴿ فَمَا عَدَا هَذَا كُلُّهُ مَبَاحٌ بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ طَيِّبًا. وفسر الحلال بالحلال الطيب على أنه تأكيد أو بالمستلذ به. على أن هناك المحرم العارض فيتمين بيانه، وهو ما يتعلق به حق الغير ويؤخذ بغير وجه صحيح كما يكون في أكل الرؤساء من المرءوسين بلا مقابل إلا أنهم رؤساؤهم المسيطرون عليهم، وكذلك أكل المرؤسين بجاه الرؤساء فإن كلا منهم يمد الآخر ليستمد منه في غير الوجوه المشروعة التي يتساوى فيها جميع الناس. وبهذا التفسير يتحرر ما أباحه الدين وتلتئم الآية مع ما قبلها. وأتبع الأمر النهي فقال ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أما خطواته فهي ما يبينه في الآية التالية، وأما كونه عدوا مبينا فهو لا يتوقف على معرفة ذاته، وإنما يعرف الشيطان بهذا الأثر الذي ينسب إليه، وهو وحى الشر وخواطر الباطل والسوء في النفس. ثم بين ذلك بما يفيد تعليل النهي فقال: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ أما السوء فهو كل ما يسوءك وقوعه أو عاقبته. وأما الفحشاء فكل ما يقبح في أعين الناس من المعاصي والآثام، ولا يختص بنحو الزنا كما قال بعضهم، والفحشاء في الغالب أقبح وأشد من السوء، وأسوأ السوء مبدءا وعاقبة ترك الأسباب الطبيعية التي قضت حكمة البارئ بربط المسببات بها اعتمادا على أشخاص تعتقد فيهم السلطة الغيبية والتصرف في الأكوان بدون اتخاذ الأسباب ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان ، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكل من يزيد في الدين عقيدة أو حكما - من غير استناد إلى كلام الله أو كلام المعصوم - فهو من الذين يقولون على الله مالا يعلمون ، مثل ذلك الزائرات للقبور وما يأتينه هناك من البدع والمنكرات باسم الدين وغير ذلك .

﴿ ولذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ - لم يخاطب هؤلاء بيطلان ما هم عليه وتشجيعه خطابا بل حكى عنهم حكاية ، وبين فساد مذهبهم فيها ، كأنه أنزلهم مسئلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحجج والدلائل ، وهؤلاء لا يرغبون عن اتباع ما أنزل الله استثناسا بما ألفوه مما ألفوا آباءهم عليه ، وحسبك بهذا شناعة ، إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس مهما كبر عقله وحسن سيره ، فقد يكون هذا معرضا للخطأ والزلل ، فلا ثقة في الدين إلا بما أنزل الله ، ولا معصوم إلا من عصم الله . على أنه لو لم يكن مؤمنا بالوحي لوجب

أن ينفره عن التقليد قوله تعالى ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ فإن هذا حجة عقلية لا تنقض ، أى أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يسلكون طريق العقل بالاستدلال على أن ما هم عليه من العقائد هو الحق . ولا يهتدون طريق الاعتدال المشروع في أعمالهم وأحوالهم . وعقل الشيء معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه ، وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون ، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ ومعنى المثل أن قصة هؤلاء وشأنهم كشأن الناقع بالغنم ، ولا يقتضى هذا أن يكون كل جزء من المشبه كقابله من المشبه به ، والكفر جحود الحق والاعراض عنه والكافر هو الذى يرى الحق ويعرض عنه ويصرف نفسه عن دلائله وآياته فلا ينظر فيها ، فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء ، فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعى ، تقبل

بدعائه وتنزجر بندائه ، مسخرة لارادته وقضائه ، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ،
 فدعوتها للرعى والذبح سواء . ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله
 ﴿ صم ﴾ لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم ﴿ بكم ﴾ لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم
 ﴿ عمى ﴾ لا ينظرون في آيات الله وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴿ فهم لا
 يعقلون ﴾ كما يطلب من الانسان ، وإنما ينتقدون لغيرهم كما هو شأن الحيوان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
 تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ
 فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِن الَّذِينَ
 يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثُمَّنَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ
 (١٧٥) ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي
 شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

التفسير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ وهذا تنبيه بعد ما تقدم إلى

عدم الالتفات إلى أولئك الحق الذين أيسحت لهم خيرات الأرض بأعمالهم فطفقوا يحلون بعضها ويحرمون بعضها بوساوس رؤسائهم ، فهو يقول كلوا من الطيبات ولا تضيقوا على أنفسكم مثلهم ﴿ واشكروا لله ﴾ الذي خلقها لكم وسهل عليكم أسبابها ، بأن تبعوا سنته الحكيمة في طلب هذه الطيبات واستخراجها ، وفي استعمالها فيما خلقت لأجله ، ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التي غذيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي إن كنتم تخصونه بالعبادة والاعتقاد بالانفراد بالسلطة والتأثير ، ولا تجعلون له أندادا تطلبون منهم الرزق وترجعون إليهم بالتحليل والتحرير ، فإن ذلك له وحده وإلا كنتم به كافرين كالذين من قبلكم الذين اتخذوا بينهم وبين الله وسطاء في طلب الرزق ، ورؤساء يحلون ويحرمون .

وبعد ذكر إباحة الطيبات ذكر المحرمات فقال عز وجل ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ لما في الطياع السليمة من استقذارها ، ولما يتوقع من ضررها ، فأنها إما أن تكون ماتت بمرض سابق أو بعلة عارضة وكلاهما لا يؤمن ضرره . وفي معنى الميتة كل ما ألتف بغير قصد الذكاة كالمخنخه والموقودة الخ ما ذكر في آية المائة ﴿ والدم ﴾ أي المسفوح كما في آية الأنعام فإنه قدر لا طيب وضار كالميتة ﴿ ولحم الخنزير ﴾ فإنه قدر لأن غذاء الخنزير من القاذورات والنجاسات وهو ضار في جميع الأقاليم كما ثبت بالتجربة ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القتالة ﴿ وما أهل لغير الله ﴾ وهو ما كان يذبح ويقدم للأصنام أو غيرها مما يعبد ، والمنع من هذا ديني محض لحماية التوحيد لأنه من أعمال الوثنية ، فكل من أكل لغير الله على ذبيحة فإنه يتقرب إلى من أكل باسمه تقرب عبادة ، وذلك من الشرك والاعتماد على غير الله . وقد ذكر الفقهاء أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله — ولو مع اسم الله — فهو محرم ﴿ فن اضطر ﴾ إلى الأكل مما ذكر بأن لم يجد ما يسد به رمقه سواه ﴿ غير باغ ﴾ له أي غير طالب له واغب فيه لذاته ﴿ ولا عاد ﴾ يتجاوز قدر الضرورة ﴿ فلا إثم عليه ﴾ لا ذنب .

عليه ، لأن الالتقاء بنفسه الى التهلكة بالموت جوعاً أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير ﴿ان الله غفور رحيم﴾ إذ حرم على عباده الضار ، وجعل الضرورات بقدرها لينتفى الخبز والعسر عنهم .

وقد فسر الجلال (باغ) بالخارج عن المسلمين (وعاد) بالمعتدى عليهم بقطع الطريق ويلحق بهم كل عاص بسفره كالأبق والمكاس وعليه الشافعي . ولا خلاف بين المسلمين في أن العاصي كفره يحرم عليه إلقاء نفسه في التهلكة ، ويجب عليه توقي الضرر ، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا ، فكيف لا تتناوله اباحة الرخص

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ هذه الآيات جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرم الله ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتُمون ما شرعه بالتأويل أو الترك سواء كان ذلك في أمر الأكل والتكشف والعقائد ، وفي حكمهم كل من يبدى بعض العلم ويكتُم بعضه لمنفعته لا لإظهار الحق وتأنيده . وهذا هو ما عبر عنه بقوله ﴿يشترون به ثمنا قليلا﴾ إذ اتخذوا الدين تجارة واثمن القليل منه ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المروسين ومنه عكسه كما تقدم غير مرة . وقال المفسرون هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ، لأن الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه وكما يليق بعقل الله تعالى رب العالمين . فكل ثمن يؤخذ عوضاً عن الحق فهو قليل ان لم يكن قليلاً في ذاته فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها والدائمة بدوام المحافظة على الحق ولو دام للبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل الى نهاية الأجل ، وما هو إلا قصير ، فماذا يفعل وقد فاتته بذلك سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل﴾ أولئك ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أى لا تملأ بطونهم إلا النار ، والمراد أنه لا يشبع جشعهم ولا يذهب بطمعهم إلا النار التي يصيرون إليها ، وقيل ان المراد بالنار سببها ، أى أن ما يأكلون ثمناً لكتمان الحق سيوردهم النار لأنه سبب لعذاب الله .

﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ قالوا إن نفي الكلام كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم ﴿ولا يزيكهم﴾ أى لا يطهرهم بالعفو والمغفرة ﴿ولهم عذاب أليم﴾ بمعنى مؤلم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ فأما الهدى فهو كتاب الله وشرعه ، وأما الضلالة فهي العمياء التى لا يهتدى بها الانسان لمقصده وتكون باتباع آراء الناس فى الدين ، وليس لأحد أن يقول فى الدين برأيه ، وهذه الآراء لا ضابط لها ولا حد لها ، فأهلها فى خلاف وشقاق ، فان ذلك عين اتباع الهوى ، وشراء الضلالة بالهدى ، فان الله وحده هو الذى يبين حدود العبودية وحقوق الربوبية فلا هداية إلا بفهم ما جاء به رسوله عنه ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ وهذا أثر ما قبله ، فان متبع الهدى هو الذى يستحق المغفرة لما يفرط منه وما لم يلم به من سوء ، ومتبع الضلالة هو المستحق للعذاب ، ومن دعى إلى الحق يعرف ذلك فاذا هو اختار الضلالة بعد صحة الدعوة وقيام الحجة فقد اشترى العذاب بالمغفرة ، وكان هو الجانى على نفسه غرورا بالعاجل واستهانة بالآجل ﴿فما أصبرهم على النار﴾ قيل هذا على وجه الاستهانة بهم والاستخفاف بأمرهم ، كأنه قال اعجبوا من صبرهم على النار ومكثهم فيها ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ أى ذلك الحكم الذى تقرر فى شأنهم بأن الكتاب جاء بالحق ، والحق لا يغالب فمن غلبه غلب ومن خذله خذل . ثم قال ﴿وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ وهذا حكم آخر فى الكتاب غير حكم كتمانهم فهو يفهمنا أن الخلاف فيه بعد عن الحق لكتمانهم لأن الحق واحد وهو ما يدعوا اليه الكتاب ، والمختلفون لا يدعون الى شيء واحد ولا يسلكون سبيلا واحدة ﴿وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ وهذا دليل على أنه لا يجوز لأهل الكتاب الإلهى أن يقيموا على خلاف فى الدين وأن يكونوا شيعا كل يذهب الى مذهب ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء﴾

ولما كان اختلاف الفهم ضروريا وجب عليهم أن يتجاسروا فى الخلاف الى كتاب الله وسنة رسوله حتى يزول ولا يقيموا عليه ﴿فإن تنازعتم فى شيء فردوه

الى الله والرسول ﷺ فلا عذر للمسلمين في الاختلاف في دينهم بعد هذا البيان الذي جعل لكل مشكل مخرجا ، والشقاق الخلاف والتعادي ، وحقيقته أن يكون كل واحد في شق أى في جانب ، والمختلفون في الدين ينأى كل بجانبه عن الآخر فيكون الشقاق بينهما بعيدا كما نرى

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

التفسير

كثر الجدل حول تحويل القبلة ، فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة الى غير قبلتهم لا تقبل ، ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة الى المسجد الحرام هي كل شيء ، لانه قبله ابراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى . غاراد الله تعالى أن يبين للناس أن مجرد تولية الوجه قبله مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين ، وتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب إلى الله تعالى ، والاعراض عن كل ما سواه ، والاقبال على مناجاته ودعائه . ويبين لهم أصول البر ومقاصد الدين فقال :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) والكلام هنا ظاهر

(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين) والبر اسم جامع للخير . ابتداء بذكر الايمان بالله واليوم الآخر لانه أساس كل بر ومبدأ كل خير ، ولا يكون الايمان أصلاً للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً بالخضوع والاذعان ، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من كل شيء ويؤثر أمرهما على كل شيء . والايمان المطلوب معرفة تتمثل للتؤمن اذا عرضت له دواعي الشر وأسباب المعاصي فتتحول دونها ، فاذا نسي فأصاب الذنب بادر إلى التوبة والآنابة . الايمان المطلوب اذا علم صاحبه بأن الايمان أصيب بمصيبة كانت مصيبته في دينه أشد عليه من المصيبة في نفسه وماله وولده ، وكان انبعائه الى تلافئها أعظم من انبعائه الى دفع الأذى عن حقيقته ، وجلب الرزق الى نفسه وعشيرته . وايمان المقلد لا غيره معه على الدين ولا على الايمان (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين)

فالايان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية أو السلطة الدنيوية وهي سلطة الملك ، فان العبودية لغير الله تعالى تهبط بالبشر الى دركة الحيوان المستخر ، أو الزرع المستنبت .

والايان باليوم الآخر — وهو يوم الجزاء — وبالملائكة وهم من عالم الغيب . يعلم الإنسان أن له حياة في عالم غيبي أعلى من هذا العالم ، فلا يرضى أن يكون سعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة ، لأن ذلك يجعله لا يبالي إلا بالأمور البهيمية .

والايان بالملائكة أصل للايمان بالوحي لأن ملك الوحي روح عاقل عالم يفيض العلم باذن الله على روح النبي بما هو موضوع الدين ، ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين ، فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب .

والايان بالكتاب يستلزم العمل به ، فان المؤمن الموقن بأن هذا الشيء قبيح ضار لا توجه إرادته الى إتيائه ، والمؤمن الموقن بأن هذا الشيء حسن نافع لا بد أن توجه اليه نفسه عند عدم المانع . فما بال مدعى الايمان بالكتاب قد أعرضوا عن

امتثال أمره ونهيه ، حتى صاروا يعدون حفظه وقرآته من موانع الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فكان من قوانينهم أن حافظ القرآن لا يطالب بتعلم فنون الحرب والجهاد لأنه حافظ . نحل القراء والمتفقه بفضل الله تعالى ، فجازاهم الله تعالى على نحلهم ، ووفاهم ما يستحقون على سوء ظنهم بربهم ، حتى صاروا في مكانة لا يغبطون عليها ، بل في مكانة يرثون لها

والإيمان بالنبیین يقتضى الاهتداء بهديهم ، والتخلق باخلاقيهم ، والتأدب بأدابهم . ويتوقف هذا على معرفة سيرتهم والعلم بسنتهم . ثم ذكر تعالى - بعد بيان أصول الإيمان - أصول الأعمال الصالحة التي هي ثمرته ، وبدأ بأقواها دلالة عليه فقال ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى وأعطى المال لاجل حبه تعالى ، أو على حبه إياه أى المال . وهو لا يشترط فيه نصاب معين ، بل هو على حسب الاستطاعة ، وهو ركن من أركان البر ، وواجب كالزكاة ، وذلك حيث تعرض الحاجة الى البذل في غير وقت أداء الزكاة ، بأن يرى الواحد مضطرا بعد أداء الزكاة أو قبل تمام الحول ، وأمر الله تعالى أن يعطى من غير الزكاة ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم أحق الناس بالبر والصلة . فمن قطع الرحم ، ورضى بأن ينعم وذو قرباه بأنسون فهو برىء من الفطرة والدين ، وبعيد من الخير والبر - ومن كان أقرب رحما كان حقه أكده ، وصلته أفضل . ﴿ واليتامى ﴾ فانهم - لموت كافلهم - تتعلق كفالتهم وكفایتهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين ، كيلا تسوء حالهم ، وتفسد تربيتهم ، فيكونوا مصابا على أنفسهم وعلى الناس . ﴿ والمساكين ﴾ فانهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مدد كف الذليل ، وجبت مساعدتهم ومواساتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ المنقطع في السفر ، لا يتصل بأهل ولا قرابة ، حتى كأن السبيل أبوه وأمه وأهله . وفى الأمر بمواساته وإعانتته في سفره ترغيب من الشرع في السياحة والضرب في الأرض . ﴿ والسائلين ﴾ الذين تدفعهم الحاجة العارضة الى تكفف الناس . والسؤال محرم شرعا الا لضرورة يجب على السائل أن لا يتعدها . ﴿ وفى الرقاب ﴾ أى في تحريرها وعتقها . وهو يشمل ابتياع الأرقاء وعتقهم وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق

يشتري نفسه من مولاه بشمن يجعله أقساطا ، وهى ما تسمى فى اللغة بالنجوم) .
ومساعدة الأسرى على الاقتداء . وفى جعل هذا النوع من البذل حقا واجبا فى أموال
المسلمين دليل على رغبة الشريعة فى فك الرقاب واعتبارها أن الانسان خلق ليكون
حررا .

(وأقام الصلاة) وهذا هو الركن الروحانى الركين للبر ، والبر والتقوى فى سر
الصلاة وروحها الذى تصدر عنه آثارها ، من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وقلب
الطباع السقيمة والاستعاضة عنها بالغرائر المستقيمة ، فمن حافظ على الصلاة الحقيقية
تطهرت نفسه من الملح والجزع اذا مسه الشر ، ومن البخل والمنع اذا مسه الخير ،
وكان شجاعا كريما قوى العزيمة شديد الشكيمة لا يرضى بالضم ولا يخشى فى الحق العذل
واللوم ، لأن الله تعالى يكون غالبا على أمره ، فلا يبالى ما اتى من الشدائد فى سبيله ،
وما أنفق من فضله ابتغاء مرضاته ، فهذا هو البر

(وآتى الزكاة) وتقرن الصلاة بالزكاة - فالصلاة مهذبة للروح . والمال كما
يقولون قرين الروح فبذله فى سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر ، وآية من أظهر
آيات الايمان . ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على محاربة مانعى الزكاة ، فنانع
الزكاة يهدم فى الظاهر ركننا من أعظم أركان الاسلام ، وينقض فى الباطن من تحته
أساس الايمان . وقد بينت السنة بالهدى والعمل كيفية الأخذ وقدر المأخوذ وسائر
الاحكام . وليس فيها شيء يصح أن يكون شبهة لإبطال الكتاب والمحرور من
الاهتداء به .

(والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) العهد عبارة عما يلتزم به المرء لآخر ، وهو
بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بايمانهم من السمع والطاعة والاذعان لكل ما
جاء به دينه . ويذكر العهد فى القرآن والسنة كثيرا ويراد به فى الغالب ما يعاهد به
الناس بعضهم بعضا عليه . ويشترط فى وجوب الوفاء بالعهد أن لا يكون فى معصية .
وفى معنى العهود العقود ، وقد أمرنا بالوفاء بها ، فيجب على المسلم أن يلتزم الوفاء بما
يتعاقد عليه مع الناس ما لم يكن مخالفا لأمر الله ورسوله الثابت عنده واقواء الدين
العامة . إن الايفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التى فرضها الله تعالى لنظام

المعيشة والعمران . والغدر والاختلاف من الذنوب الهادمة للنظام ، المفسدة للعمران
المفنية للأمم .

(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) قالوا إن البأساء اسم من
البؤس ، وهو الشدة والفقر . والضراء ما يضر الانسان من نحو مرض أو قرح أو
فقد محبوب من مال وأهل . وفسروا البأس باشتداد الحرب .

والصبر يحمد في هذه المواقف كلها ويحمد في غيرها . واما حالة اشتداد الحرب
فهي على ما فيها من الشدة والتعرض للهلكة بخوض غمرات المنية يطلب فيها من
الصبر ما لا يطلب في غيرها ، لأن الظفر مقرون بالصبر ، وبالظفر حفظ
الحق الذي يناضل من يجاهد في سبيل الله دونه ويدافع عنه ويحاول لإظهاره ويبنى
انتشاره ، وهذا هو المأمور من الله تعالى بالصبر حين البأس ، لا المحارب
لطمع الدنيا وأهواء الملوك ، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف
من أكبر الكبائر ، وعبر عنه في بعضها بالكفر ، فلا غرو أن يجعل الصبر في البأس
أصلا من أصول البر ، وقد كان المسلمون بارشاد هذه النصوص أعظم أمة حرية في
العالم ، فزال استبداد الحكم يفسد من بأسهم ، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة
يفل من عزمهم حتى سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح . وهذا البعد عن الدين
لا يصل اليه أحد إلا بخذلان من الله

أنظر بعد هذا حكم الله تعالى على البررة الذين يقيمون ما تقدم ذكره من أركان
البر (أولئك الذين صدقوا) في دعوى الإيمان ، دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم
تؤمن قلوبهم (وأولئك هم المتقون) الذين تشهد لهم بالتقوى أعمالهم وأحوالهم .
والتقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية بأن تتحامي أسباب خذلانه في الدنيا
وعذابه في الآخرة ، وذلك بأن تتبع أوامره وتلتزمي عما نهى عنه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ : الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّاءُ إِلَيْهِ

يَا حَسَنَ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ
 عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
 يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَسِّ جَنْفًا أَوْ لَيْثًا فَأَصْلَحَ
 بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)

التفسير

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) القصاص في أصل اللغة
 يفيد المساواة فعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل ، لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول
 فيؤخذ به ، فالغرض من الآية مشروعية القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ذلك
 الامتياز الذي كان للأقوياء على الضعفاء في زمن الجاهلية . أنزلت هذه الآية في حين
 من العرب لأحدهما طول على الآخر ، وكانوا يتزوجون نساء بغير مهر ، وأقسموا
 لنقلن بالعبد منا الحر منهم ، وبالمراة منا الرجل منهم ، وبالرجل منا الرجلين منهم ،
 وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك ، حتى جاء الإسلام فأنزل هذه الآية
 ولذلك قال (الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني) أي أن هذا القصاص
 لاهوادة فيه ولا جور ، فاذا قتل حر حراً يقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة ولا
 أكثر من واحد ، وإذا قتل عبد عبداً يقتل هو به لاسيده ولا أحد من الأحرار من
 من قبيلته ، وكذلك المرأة إذا قتلت تقتل هي ولا يقتل واحد فدء عنها خلافا لما
 كانت عليه الجاهلية في ذلك القصاص على القاتل نفسه أيا كان لا على أحد من قبيلته .
 وقد جرى العمل من زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الآن على قتل الرجل

بالمرأة ، واختلفوا في قتل الحر بالعبد فذهب أبو حنيفة وابن أبي ليلى ودادود إلى أنه يقتل به إذا لم يكن سيده ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل به مطلقا . والقرآن فوق كل خلاف ، فنطوق الآية لا مجال للخلاف فيه ، وهو أن الحر يقتل بالحر الخ ، وأما كون الحر يقتل بالعبد والرجل بالمرأة فهذا يؤخذ من لفظ القصاص ولا يعارضه مفهوم التفصيل ، وقال البيضاوي : أن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم . . ويدخل في عموم الآية الكافر ، وبه قال بعضهم ، وقال الجمهور لا يقتل به المسلم . واستثنى من عمومها السيد يقتل بعبد ، قالوا لا يقتل ولكن يعزر . وللحاكم أن يقرر هذا التعزير بشدة ، وقد يكون التعزير بالقتل فلا إمام أن يقتل السيد بعبد تعزيراً لاحداً إذا رأى المصلحة العامة في ذلك (فمن عفى له من أخيه شيء) وإنما يعفو من له حق طلب القصاص . وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول وهم عصبته الذين يعتزون بوجوده ويهانون بفقده ، وفي حالة عفوهم عن القاتل يوجب الله تعالى حجب الدم ، وليس للحكومة أن تمتنع من العفو إذا رضوا به ، ولا تستقل بالعفو إذا طلبوا القصاص . ولما كان العفو عن القصاص يتضمن أخذ الدية قال تعالى

(فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان) أي فاتباع العفو بالمعروف واجب على العافي وغيره فعليه أن لا يرهق القاتل من أمره عسرا ، بل يطلب منه الدية بالرفق والمعروف (وأداء اليه باحسان) خطاب للقاتل أي أن الأداء بالإحسان واجب عليه بأن لا يعطل ولا ينقص ولا يسيء في كيفية الأداء . (ذلك تخفيف من ربكم) وأي تخفيف ورخصة أفضل من حجب الدم بتجوز العفو وقبول الدية (فمن اعتدى بعد ذلك) أي بعد العفو والرضى بالدية بأن انتقم من القاتل (فله عذاب اليم) قيل معناه أنه يتحتم قتل الولي العافي أو غيره إذا قتل القاتل بعد العفو ، ولا يجوز العفو عنه بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه ولي المقتول ، وبه قال جماعة من المفسرين ، والمراد بالعذاب اليم عذاب الآخرة

(ولكم في القصاص حياة) هذه الآية الحكيمة قررت أن الحياة هي المطلوبة بالذات ، وأن القصاص وسيلة من وسائلها ، لأن من علم أنه إذا قتل نفسا يقتل بها

يرتدع عن القتل فيحفظ الحياة على من أراد قتله وعلى نفسه ﴿ يا أولى الألباب ﴾
 غصص بالنداء أصحاب العقول الكاملة كأنه يقول إن ذا اللب هو الذى يفقه سر هذا
 الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة ، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله فى
 فهم دقائق الأحكام وما فيها من المنفعة للأنام ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ الاعتداء ، وتكفون
 عن سفك الدماء ، والمعنى : ثبتت لكم الحياة فى القصاص ، لتعذبكم وتهيبكم للتقوى
 والاحتراس من سفك الدماء وسائر ضرور الاعتداء ، إذ العاقل حريص على الحياة
 ولوع بالأخذ بوسائلها والاحتراس من غوائلها

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين
 بالمعروف حقا على المتقين ﴾ لما ذكر لولى الدم أن يقتص فهذا الذى أشرف على أن
 يقتص منه وهو سبب الموت ، فكأنما حضره الموت ، فهذا أو أن الوصية . فالآية
 مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها . والخطاب موجه الى الناس كلهم بأن يوصوا بشئ من
 الخير ، لاسيما حال حضور الموت ، لتكون خاتمة أعمالهم خيرا . وفسروا الخير بالمال
 وقيدوا الأكثرون بالكثير . والآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لاتناقضها بل
 تؤيدها ، ولا دليل على أنها بعدها ، ولا بالحديث لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب ، وإن
 حكمها باق ، ولك أن تجعله خاصا بمن لا يرث من الوالدين والأقربين كما روى عن
 بعض الصحابة ، وأن تجعله على إطلاقه ، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون
 بدعوى النسخ فتنبذ ما كتبه الله عليك بغير عذر ، لاسيما بعدما أكد به بقوله :
 ﴿ حقا على المتقين ﴾ وبقوله ﴿ فمن بدله ﴾ أى ما أوصى به الموصى ﴿ بعد ما سمعه ﴾
 وعلم به ﴿ فانما لثم على الذين يبدلون ﴾ من ولى وصى وشاهد ، وقد برئت منه
 ذمة الموصى ﴿ ان الله سميع ﴾ لما يقوله المبدلون فى ذلك ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم ، فيجازيهم
 عليه . وقوله سميع عليم يتضمن تأكيد الوعيد

﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ الجنف الخطأ
 والإثم ، يراد به تعمد الإجحاف والظلم ، والمعنى أن من يتوقع النزاع للجنف أو
 الإثم فله أن يتصدى للإصلاح وإن لم يكن موقنا بذلك وقت الخوف . وللتعبير عن

مثل هذا العلم بالخوف شواهد في كلام العرب ، والمصلح مثاب مأجور ، ونفي الاثم عن تبديل الوصية المحرم تبديلاً يشعر بذلك ، إذ لو لم يكن التبديل للاصلاح مطلوباً لم ينف الاثم عنه والمراد أن من خاف من موص في حال مرضه الذي يريد أن يوصي فيه جنفاً وهو أن يعطى بعضاً ويضر ببعض فلا اثم عليه أن يشير عليه بالحق ويرده إلى الصواب ويصلح بين الموصي والورثة والموصى له ، حتى يكون الكل راضين ، ولا يحصل جنف ولا اثم ، ويكون قوله (فاصلح بينهم) أى فيما يخاف من حدوث خلاف بينهم فيما بعد . وختم الكلام بقوله (ان الله غفور رحيم) للاشعار بما في هذا الكلام من المصلحة والمنفعة وبأن من خالف لأجل المصلحة فهو مغفور له .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

التفسير

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ كُتِبَ : فرض . والصيام في اللغة : الإمساك والكف عن الشيء . وفي الشرع : الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب احتساباً لله وإعداداً للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة وتربية الإرادة . وقد كُتِبَ على أهل الملل السابقة فكان ركناً من كل دين ، لأنه من أقوى العبادات وذرائع التهذيب . وفي إلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا إشعاراً بوحدة الدين في أصوله ومقصده ، وتأكيده لأمرو هذه الفرضية وترغيب فيها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ جاء الإسلام يعلمنا أن الصوم ونحوه إنما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى ، وهي العمل بأمره والانتهاز عما نهى عنه اتقاء غضبه . وأن الله غنى عنا وعن عملنا ، وما كتب علينا الصيام إلا لمنفعتنا والصيام أعظم مرب للارادة ، وكأجج لجماع الأهواء ، فأجدر بالصائم أن يكون حراً يعمل ما يعتقده أنه خير ، لا عبداً للشهوات . والصوم لا يتوقف أدائه على ترك الشهوات الحسية ، وإنما يتبع ذلك ترك المعاصي والآثام كما جاء في الحديث : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ،

﴿ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾ أى معينات بالعدد أو قليلات ، وهى أيام رمضان . ولما كان فرض الصيام بما ذكر يفيد العموم استثنى منه من يشق عليهم أدائه ومن هم عرضة للمشقة فقال ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى فالواجب عليه القضاء بعدد الأيام التى لم يصمها - وكل من المريض والمسافر عرضة لاحتمال المشقة بالصيام - وإطلاق كلمة مريض يدل على أن الرخصة لا تنقيد بالمرض الشديد الذى يعسر معه الصوم - وكذلك السفر مطلق يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء في السنة ما يؤيد هذا الإطلاق في السفر القصير ، ثم قال تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وهو من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة : والإطاقة أدنى درجات المسكنة والقدرة على الشيء ، فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، قال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز

وجل وضع عن المسافرين الصوم وشطر الصلاة وعن الحبل والمرضع الصوم ، وروى عن ابن عباس أنه قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه . وهذا ظاهر في معنى الآية ، وهو مذهب الشافعية في الشيوخ والعجائز ومن في حكمهم .
وجملة القول أن المؤمنين على أقسام في الصوم :

الأول : المقيم الصحيح القادر على الصوم بلا ضرر يلحقه ولا مشقة ترهقه ، والصوم واجب عليه حتماً

الثاني : المريض والمسافر يباح لهما الإفطار مع وجوب القضاء ، لأن من شأن المرض والسفر التعرض للمشقة العارضة ، فإن تعرضا للضرر بالفعل بأن علما أو ظنا ظناً قوياً بأن الصوم يضرهما وجب الإفطار

الثالث : من يشق عليه الصوم لسبب لا يرجى زواله كالحرم والمرض المزمن الذي لا يرجى برؤه ، وكذلك الحامل والمرضع ، وهؤلاء لهم أن يفطروا ويطعموا بدلاً عن كل يوم مسكيناً مداً من الطعام على الأقل .

ثم قال تعالى بعد بيان الواجب الحتم والرخص فيه ﴿فن تطوع خيراً﴾ بأن زاد على تلك الأيام المعدودات ، وقيل من تطوع خيراً بالزيادة على القدر المذكور في القدية ﴿فهو خير له﴾ لأن فائدته وثوابه له ، ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ أى والصيام خير لكم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربية الإرادة وتغذية الإيمان وتقويته بمراقبة الله تعالى ﴿إن كنتم تعلمون﴾ وجه الخير فيه . قال تعالى ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ الخ فبين أن تلك الأيام المعدودات هى أيام شهر رمضان ، وأن الحكمة فى تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة هى أنه الشهر الذى نزل فيه القرآن ، وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن ، فحق أن يعبد الله تعالى فيه مالا يعبد فى غيره تذكراً لانعامه بهذه الهداية وشكراً عليها . والقرآن يمتاز على سائر الكتب السماوية بأنه آيات بينات من الهدى الذى توصف به كلها ، وبينات من الأمر الإلهى الفارق بين الحق والباطل ﴿فن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ إن الله ما أوجب الصيام فى رمضان إلا على من شهد الشهر وحضره ،

والذين ليس لهم شهر مثله يسهل عليهم أن يقدروا قدره كالبلاد التي في شمال الكرة الأرضية أو جنوبها . وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعد ما عرفوا بعض البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها . واختلفوا في التقدير على أي البلاد يكون ف قيل على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل على أقرب بلاد معتدلة اليهم . ثم أعاد ذكر الرخصة فقال تعالى ﴿ فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ إن تأكيد الصوم بمثل ما أكد الله تعالى به يقتضى تأكيد أمر الرخصة ولولا ذلك ما أتاهم متى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فيما شرعه ويشرعه لكم من الأحكام ، والله يحب أن تؤتى رخصه كما توفى عزائمه ، ومنه أخذوا قاعدة المشقة تجلب التيسير ،

﴿ وتكملوا العدة ﴾ والمعنى رخص لكم لأنه يريد بكم اليسر وأن تكملوا العدة فمن لم يكملها أدام لعذر أكملها قضاء ﴿ ولتذكروا الله على ما هداكم ﴾ إليه من الأحكام النافعة لكم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من الكاملين

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فاقى قريب ﴾ لما أمر الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز على أعمالهم تأييدا له وحثا عليه ﴿ أجيب دعوة الداعى ﴾ منهم بنفسى من غير واسطة ﴿ إذا ﴾ هو ﴿ دعان ﴾ وتوجه إلى وحدى فى طلب حاجته . أى يجب أن يدعى وحده بدون واسطة . والدعاء المجاب كما قال بعض السلف الصالح هو الدعاء بلسان الاستعداد . وقد استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الطمع فى غير مطعم ، فمن يترك السعى والكسب ويقول : يارب ألف جنيه ؟ فهو غير داع ، وإنما هو جاعل يشبه أن يكون ساخرا ومستنزئا . ومثل ذلك المريض لا يراعى الحمية ولا يتخذ الدواء ويقول : رب اشفى وعافنى . كأنه يقول اللهم أبطل سنتك التى قلت إنها لا تبدل ولا تحول . ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ وليؤمنوا بى ﴾ أى فليستجيبوا دعوتى إلى الإيمان والأعمال النافعة لهم - كالصيام وغيره

بما أَدْعُوهم اليه - كما أُجِيب دَعْوَتهم بقبول عبادتهم وتولى إعانتهم ، ثم قال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ فَعَلَمْنَا أَنَّ الْأَعْمَالَ إِذَا لَمْ تَكُن صَادِرَةً بِرُوحِ الْإِيمَانِ لَا يَرْجَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهَا رَاشِدًا مُهْدِيًا ، فَمَنْ يَصُومُ اتِّبَاعًا لِلْعَادَةِ وَمُوَافَقَةً لِلْهَوَى فَاِنَّ الصَّيَامَ لَا يَعْدُهُ لِلتَّقْوَى وَلَا لِلرَّشَادِ ، وَرَبَّمَا زَادَهُ فُسَادًا فِي الْأَخْلَاقِ وَانْفِغَاسًا فِي الشَّهَوَاتِ

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسُكُمْ وَأَنتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ
عَلَّمَ اللَّهُ أَنَكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُون أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ
فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ (١٨٧)

التفسير

﴿ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ لَيْلَةُ الصَّيَامِ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يُصْبِحُ مِنْهَا الْمَرْءُ صَائِمًا ﴿ الرَّفَثَ ﴾ تَعطى معنى مالا يصح التصريح به في شأن الرجل مع المرأة وليست هي من الألفاظ الصريحة في ذلك . فالمعنى أَحَلَّ لَكُمْ ذَلِكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التصريح به . قال الزجاج : الرَّفَثُ كَلِمَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُ الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ . وَكَذَلِكَ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ ﴿ هُنَّ لَبَاسُكُمْ وَأَنتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ قَوْلٌ مُسْتَأْنَفٌ سَبَقَ لِبَيَانِ الْحُكْمِ أَيْ إِذَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ هَذِهِ الْمَلَابِسَةُ وَالْمُخَالَطَةُ فَانْجَتَابَهُنَّ عَسَرَ عَلَيْكُمْ فَلهَذَا رَخَصَ لَكُمْ فِي مُبَاشَرَتِهِنَّ لَيْلَةَ الصَّيَامِ . وَلَفْظُ لَبَاسٍ هُنَا مُصْدَرٌ لِابْسِهِ بِمَعْنَى خَالَطَهُ وَعَرَفَ

عائلته ، لا بمعنى اللباس والازار على المرأة إذ لا معنى لهذا هنا . ثم قال ﴿ علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم ﴾ أى تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توها أن من قبلكم كان كذلك ، أو معناه تخونون انفسكم إذ تعتقدون شيئا ثم لا تلتزمون العمل به ، فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأمانة ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ وتفسر التوبة بالرجوع عليهم ببيان الرخصة بعد ذكر فرض الصيام بحملا والتشبيه فيه مبهما ، ويكون العفو عن الخطأ فى الاجتهاد الذى أدى إلى التضيق على النفس وإيقاعها فى الحرج ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أى أذن لكم الآن بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة المحدودة فى نظام الفطرة من جعل المباشرة سببا للنسل بقصد إحياء سنة الله فى الخليقة لا لمحض شهوة النفس واللذة ، وقيل إن العبارة تتضمن النهى عن المباشرة المحرمة ﴿ وكوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ أى يباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكم الفجر ، فتى تبين وجب الصيام ﴿ ثم آتموا الصيام إلى الليل ﴾ وابتداء الليل بغروب الشمس . فالصيام يكون من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ والاعتكاف الملازمة ولما كان المعتكف ملازما للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم ، ونهى عن المباشرة حال كونه معتكفا فى المساجد ﴿ تلك حدود الله ﴾ الإشارة إلى الأحكام التى تقدمت وسميت حدوداً لأنها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغاياتها ، حتى إذا تجاوزها العامل خرج عن حد الصحة وكان عمله باطلا ، والحد طرف الشيء وما يفصل بين شيئين . وقوله ﴿ فلا تقربوها ﴾ لأنه يرشد إلى الاحتياط فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه . وأصل الحد المنع ، وسميت الأوامر والنواهي حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها . ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعديها بالمخالفة لها . وقيل إن حدود الله هى محارمه فقط ومنها المباشرة من المعتكف

﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ أى على هذا النحو من البيان يبين

لهم آياته ليعيدهم للتقوى والتباعد عن الوهم والهوى ، أى لكى يتقوا معاصيه وتعدي حدوده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وأباحه لهم ، وفى هذا دلالة على أن الله تعالى أراد التقوى من جميع الناس

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لَسَأَلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُ جَوْهٍ مِنْ حَيْثُ آخَرُ جَوْهٍ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)

التفسير

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ) والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أى بالغصب والظلم والوجوه التى لا تحل ، لأن ذلك جناية على نفس الآكل من حيث هو جناية على الأمة التى هو أحد أعضائها فلا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها ، فهو باستحلاله مال غيره يجرىء غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة ، فما أبلغ هذا الإيجاز ، ويدخل فى هذا الباب التعدي على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً فى عمل لا يعطيه عليه أجر أو ينقصه من الأجر المسمى أو أجر المشل ، ويدخل فيه سائر ضروب التعدي والغش والاحتيال من السامرة

والمخادعين وباعة التماسم ، وكذا العزائم وختمات القرآن والعدد المعلوم من سورة (يس) . ان كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لأموال الناس بالباطل ، وقد مضى الصدر الأول ولم يكن أخذ الأجر على عبادة ما معروفا ولا يوجد في كلام أهل القرن الأول والثاني كلمة تشعر بذلك . والحاصل أن ما لم يبيح الشرع أخذه من مالسكه فهو مأكول بالباطل وإن طابت به نفس مالسكه : كهر البغى وحلوان الكاهن وثمن الخمر . والباطل في اللغة : الذاهب الزائل) وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأتم تعلمون) إبطالا لهذا الاعتقاد ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم ، بل هو ثابت في نفسه ، وليس على الحاكم إلا بيانته وإيصاله إلى مستحقه بالعدل . وقد نفت الآية الاشتباه وبينت أن الاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم ، لأن الحكم لا يغير الحق في نفسه ولا يحله للمحكوم له به . وفي الآية عبرة لوكلاء الدعاوى الذين يدعون بالمحامين . فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل ، ولا أن يستمر في محاولة إثباتها إذا ظهر بطلانها في أثناء التقاضى

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الإدلاء بمعنى الإلقاء وقالوا انه في الأصل إلقاء الدلو ، واختير هذا التعبير لأنه يشعر بعدم الروية . وإلقاء المال إلى الحاكم يراد به الحكم للملقى . والاثم فسرهم بعضهم بشهادة الزور ، وبعضهم باليمين الفاجرة وهو أعم من ذلك . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال ، وقد روى عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ كما في حديث أم سلمة قال رسول الله ﷺ : انكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار ، وهو في الصحيحين وغيرهما . وقال مجاهد : معنى الآية لاتخاصم وأنت تعلم أنك ظالم

(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) الأهلة : جمع هلال ، وهو القمر في ليلتين أو ثلاث من أول الشهر على الأشهر ، فهي مواقيت لهم في صيامهم وحجهم من العبادات ، وفي نحو عدة النساء وآجال العقود من المعاملات .

فإن التوقيت بها يسهل على العالم بالحساب والجاهل به وعلى أهل البدو والحضر ،
 غشى مواقيت جميع الناس . والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت ، وقد سألوا عن
 اجرام الآلهة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة
 والنقصان لأجلها ، ليكون ذلك أولى بقصد السائل وأحق أن يتطلع لعلمه ﴿ وليس
 البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ فإن فيه تعريضا بأن من يسأل النبي عما لم يبعث
 النبي لبيانه ولا يتوقف عرفانه على الوحي فهو في طلبه الشيء من غير مطلبه كمن يطلب
 دخول البيت من ظهره دون بابه

وأما الحكم الذي أفادته الآية فهو إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية إذا هم
 أحرموا من إتيان البيت من ظهره وتحريم دخوله من بابه . والبيوت جمع بيت ،
 وقد بين الله تعالى لهم البر الحقيقي فقال ﴿ ولكن البر من اتقى ، وآتوا البيوت من
 أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى أن البر هو تقوى الله تعالى بالتخلي عن
 المعاصي والرذائل ، وعمل الخير والتخلي بالفضائل ، واتباع الحق واجتناب الباطل ،
 فأتوا البيوت من أبوابها ، وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم لطلب الأمور كلها من
 مواضعها ﴿ واتقوا الله ﴾ رجاء أن تفلحوا في أعمالكم وتبلغوا غاية آمالكم
 ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ خاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا
 القتال في الحرم وفي الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ، أى يحل لكم القتال إن
 قاتلكم الكفار ، فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها ،
 فكان عليه السلام يقاتل من قاتله على أنه دفاع في سبيل الله للتمكن من عبادته
 في بيته ﴿ ولا تعتدوا ﴾ بالقتال فتبدؤهم ، ولا في القتل فقتلوا من لا يقاتل كالنساء
 والصبيان والشيخ والمرضى والرهبان ومن اتقى إليكم السلم وكف عن حربكم ،
 ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتهريب وقطع الأشجار ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾
 أى أن الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها ، فكيف إذا كان في حالة
 الاحرام وفي أرض الحرم والشهر الحرام ﴿ واقتلوا حيث ثقتهم ﴾ أى إذا نشب
 القتال فاقتلوا أينما أدرستمهم وضادتمهم ، قال في الكشاف : الثقف وجود على

وجه الأخذ والغلبة ، ومنه رجل تقف : سريع الأخذ لأقرانه ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ قال ابن جرير : الخطاب للمهاجرين والضمير لكسفار قريش : أى أخرجوهم من مكة فقد كان المشركون أخرجوا النبي وأصحابه المهاجرين منها بما كانوا يفتنونهم في دينهم ، ثم صدمهم عن دخولها لأجل العبادة وقد امثل رسول الله ﷺ أمر ربه فأخرج من مكة من لم يسلم عند ما فتحها الله عليه . ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى قتلهم إياكم في الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الوطن والمصادرة في المال أشد قبحاً من القتل فيه ، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره .

والفتنة معناها الاختبار . ﴿ ولا تأتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أى من دخل المسجد الحرام يكون آمناً إلا أن يقاتل فيه ويتهك حرمة فلا أمان له حينئذ ﴿ فان قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ ولا تستسلموا لهم . فالباديء هو الظالم ، والمدافع غير آثم ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ أى أن من سنة الله تعالى أن يجازى الكافرين مثل هذا الجزاء ، فيعذبهم في مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدى حدوده ، فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم .

﴿ فان انتهوا ﴾ . عن القتال فكفوا عنهم ، أو عن الكفر فان الله يقبل منهم ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يحو عن العبد ما سلف إذا هو تاب عما اقترف ، ويرحمه فيما بقى إذا هو أحسن واتفق

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قُصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

المُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدَيْتَهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ لِمَنْ لَمْ يَكُنِ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

التفسير

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أى حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أى يكون دين كل شخص خالصاً لا لأثر خشية غيره فيه فلا يفتن عنه ولا يؤذى فيه ﴿ فَإِنْ أَنْتَمُوهَا ﴾ فى هذه المرة عما كانوا عليه ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى فلا عدوان عليهم لأن العدوان إنما يكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم سواء كان ذلك فى الفرد أو الجماعة ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ الحُرُمَاتُ أى ما يجب احترامه والمحافظة عليه يجب أن يجرى فيه القصاص والمساواة. قال مجاهد: بغرت قریش بردها رسول الله ﷺ يوم الحديبية محرماً فى ذى القعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة فى العام المقبل من ذى القعدة، ففضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينها يوم الحديبية، والحُرُمَاتُ جمع حرمة، وإنما قال جل ثناؤه الحُرُمَاتُ قِصَاصٌ لجمع لآنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام فقال تعالى لرسوله والمؤمنين معه دخولكم باحرامكم هذا فى شهركم هذا الحرام قِصَاصٌ

مما منعتم من مثله عامكم الماضى وتلك هى الحرمات جعلها الله قصاصا . ذكر
 هذه القاعدة لوجوب مقاصدة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل ليكون
 شهرا بشهر جزاء وفاقا ، وقال تفريعا على القاعدة وتأيدا للحكم ﴿ فمن اعتدى
 عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أى معنى السلام فمن عدا عليكم ووثب
 بظلم فاعدوا عليه أى فشدوا عليه ووثبوا نحوه قصاصا لما فعل بكم لظلمنا وإنما يتحقق
 هذا فيما تنأى فيه المائلة ، وسمى الجزاء اعتداء للمشاكلة ، ومعنى هذا أن الجزاء
 يكون من جنس العمل ، وقد استدلل الإمام الشافعى بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل
 ما قتل به بأن يذبح إذا ذبح ويخنق إذا خنق ويفرق إذا غرق وهكذا ، وقال مثل
 ذلك فى الغصب والإتلاف ، والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف
 ولا ظلم ﴿ وأتقوا الله ﴾ فلا تعتدوا على أحد ولا تبغوا ولا تظلموا فى القصاص بأن
 تزيدوا فى القصاص ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالمعونة والتأييد ، فإن المتقى هو
 صاحب الحق ، وبقاؤه هو الأصلح ، والعاقبة له فى كل ما ينازعه به الباطل
 ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ عطف على قاتلوا رابطا لاحكام القتال والخرج بحكم
 الأموال السابق . فهناك ذكر ما يحرم من أكل المال بجملا وهنا ذكر ما يجب من انفاقه
 كذلك : وسبيل الله هو طريق الخير والبر والدفاع عن الحق ثم ذكر علة هذا الأمر
 وحكمته على ما هى سنته فى ضمن حكم آخر فقال ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾
 بالإمساك عن الانفاق فى الاستعداد للقتال فإن ذلك يضعفكم ويمكن الأعداء من
 نواصيكم قتلهم . ويدخل فى النهى التطوع فى الحرب بغير علم بالطرق الحريسة
 التى يعرفها العدو ، كما يدخل فيها كل مخاطرة غير مشروعة بأن تكون لاتباع الهوى
 لا لنصرة الحق وتأيسد حربه . وفسر الجلال سبيل الله بطاعته - الجهاد وغيره
 والتهلكة بالإمساك عن النفقة وترك الجهاد ، وقال لأنه يقوى العدو عليكم - والمعنى
 إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأيد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم
 أنفسكم وضاعت حريتكم واستقلالكم واستعبدكم العدو فأهدر كرامتكم وعزتكم
 ﴿ واحسنوا إن يحب المحسنين ﴾ الأمر بالاحسان على عمومه أى احسنوا كل أعمالكم
 وأتقوها فلا تهملوا اتقان كل شئ منها ، ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

وجملة القول في القتال أنه شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، فعلى من يدعى من الملوك والامراء أنه يحارب للدين أن يحمى الدعوة الإسلامية ويعد لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه ، ويقرن ذلك بالاستعداد لحمايتها من العدوان ، وذلك بأن يعرف حال الدعوة إلى الدين عند الأمم الحية وطرق الاستعداد لحمايتها وما يجب في ذلك وما ينبغي

﴿ وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ المراد باتمام الحج والعمرة الإتيان بهما تامين : ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطناً بالإخلاص لله تعالى وحده دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء أو السمعة . ولا ينافي الإخلاص البيع والشراء في أثناء الحج إذا لم تكن التجارة هي المقصودة في الاصل . إن الامر باتمام الحج والعمرة خطاب لمن شرع فيهما وإن كانت العمرة سنة والحج فرض لقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وأركان الحج الاحرام من الميقات ، وهو أول أرض الحرم والوقوف بعرفة والطواف بالكعبة . والسعى بين الصفا والمروة . والحلق والتقصير للشعر ، فمن أدى هذه الاعمال فقد أدى الفريضة التي هي ركن من أركان الاسلام . وله أعمال أخرى واجبة من قصر في شيء منها كان عليه فدية . وأركان العمرة هي ما عدا الوقوف بعرفة من أركان الحج . وفريضة الحج يجمع عليها معلومة من الدين بالضرورة من أنكرها كان مرتداً . أمر بالاتمام ثم ذكر ما عساه يحول دونه فقال ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الإحصار هو المنع بسبب الناس والحصر بسبب المرض . وقوله تعالى بعد ﴿ فَإِذَا أَمْنْتُمْ ﴾ يرجح أن المراد بالإحصار منع العدو أى ان منعتهم من إتمام النسك فعليكم ما تيسر من الهدى ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام . من النعم لينذج ويفرق على فقرائه . والمتبادر من الآية أن على كل أحد ما استيسر له من بدنة أو بقرة أو شاة ، وما عظم فهو أفضل . واتفق الجمهور على أن يذبحه حيث أحصر - ولو في الحل - ويتحلل . ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ الدخول في الحج أو العمرة يكون بالإحرام وهو نية النسك عند الابتداء به بالتلبية ولبس غير المخيط والخروج منهما - ويعبر عنه بالاحلال . والتحلل يكون بمحاق الرأس أو تقصير شعره ، فالنهي هنا عبارة عن

النهي عن الاحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو في حال الاحصار حيث يحصر الحاج ، وإلا فالسكبة بقوله تعالى ﴿ هديا بالغ السكبة ﴾ وإن الأصل في الهدى أن يبلغ السكبة لأنه مهدي إليها ، وحال الاحصار حال ضرورة . ثم ذكر من يؤذيه عدم الحلق فقال ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ مرضا ينفعه فيه الحلق ويضره عدمه ﴿ أو به أذى من رأسه ﴾ كقمل أو جرح ﴿ ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ أي فعلية إن حاق فدية من هذه الاجناس الثلاث على التخيير . والحديث يبين أن الصيام ثلاثة أيام والصدقة بفرق (مكيال يسع ستة عشر رطلا) يوزع على ستة مساكين والنسك ذبح شاة ﴿ فإذا أمنتم ﴾ الاحصار وذهب خوف العدو . وقال بعض الفقهاء ومثله المرض ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ أي فمن تمتع بحظورات الاحرام بسبب العمرة أي أدائها بأن أتمها وتحلل وبقى متمتعا إلى زمن الحج ليجزى من مكة فعليه ما استيسر من الهدى ، أي فعلية دم جبر لأنه أحرم بالحج من غير الميقات يذبحه يوم النحر أو قبله جوازا عند بعضهم ، أو المعنى فمن قام بأعمال العمرة قبل الحج منتبها اليه فعليه ذلك ﴿ فمن لم يجد ﴾ الهدى - لعدمه أو عدم المال - ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ أي في أيام الاحرام بالحج وتمتد إلى يوم النحر ﴿ وسبعة إذا رجعت ﴾ من الحج إلى بلادكم ، ويصدق بالشروع في الرجوع . وقال عليه الصلاة والسلام : فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ إشارة إلى الثلاثة والسبعة مبين لجملة العدد الواجب كما بين تفصيله ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ وذلك أن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ثم السفر إلى العمرة وحدها ﴿ واتقوا الله ﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الأوامر والنواهي وغيرها من ضروب الهداية التي فيها سعادتكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ بما جعل عاقبة التفريط والاضاعة شديدة على المفرطين في الدنيا والآخرة

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
 فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا
 يَٰأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
 عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
 ذِكْرًا فَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠)
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
 (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَادْكُرُوا اللَّهَ
 فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ
 عَلَيْهِ لَمَنْ أَتَىٰ وَاتَّقَى اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

التفسير

(الحج أشهر معلومات) والمراد بقوله تعالى معلومات أنها هي أشهر الحج المعروفة
 للعرب قبل الإسلام ، ولا خلاف في أنها ثلاثة أشهر وهي شوال وذو القعدة
 وذو الحجة ، فالآية ظاهرة في أن الحج لا يكون إلا في هذه الأشهر ، ولما كان أعظم
 أركان الحج هو الوقوف بعرفة يسكون التاسع من الشهر الثالث وهو ذو الحجة هو
 آخر أيام الحج ، فمن أحرم بالحج بعد هذا اليوم فلا حج له (فمن فرض فيهن الحج)

أى أوجهه وألزم نفسه بالشروع فيه ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾
فأما الرفث فهو كما قيل الجماع ومقدماته . وأما الفسوق فهو الخروج عما يجب على
المحرم إلى الأشياء التى كانت مباحة فى الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس الخيطة .
والجدال هو ما كان يجرى بين القبائل من التنازع والتفاخر فى الموسم ، فبهذا يكون
التناسب بين الحكام ، وإلا حملت كلها على مدلولها اللغوى فجعل الرفث قول الفحش ،
والفسوق التنازع باللقاب ، والجدال المراء والخصام . والمراد أن يلتزم المراء فى
أوقات العبادة الخضوع مع الله تعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال ، وناهيك
بالخضوع فى البيت الذى نسيه الله سبحانه وتعالى إليه . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾
والمعنى أن اتركوا هذه الأمور الممنوعة فى الحج لتخليه نفوسكم وتصفيتها ، وحلها
بعد ذلك بفعل الخير لتتم لكم تزكيتها حتى تستعد للاتصاف بالخير والله لا يضيع
عليكم أقل شئ منه ، لأنه عالم به ، وأنكم وافقتم فيه سنته وشريعته ﴿ وتزودوا فإن
خير الزاد التقوى ﴾ المراد بالزاد هنا هو زاد الأعمال الصالحة ، وما تدخر من الخير
والبركة ، كما يرشد إليه التعليل فى قوله « فإن خير الزاد التقوى » . والمعنى من التقوى
معروف وهو ما به يتق سخط الله ، وليس ذلك إلا بالبر والتزهد عن المنكر ، ولا
يعمل بأن التقوى خير زاد إلا وهو يريد الزود منها ، وقيل كان أهل اليمن لا يتزودون
ويقولون نحن متوكلون ونحن نخرج بيت الله أفلا يطعمنا ، فيسكنون كلا على الناس ،
فنزلت فيهم ، ومعناه وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والثقل عليهم فإن
خير الزاد التقوى . وقيل المعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة والحاجة
إلى السؤال والتسكف . ﴿ واتقون ﴾ وخافوا عقابى ﴿ يا أولى الألباب ﴾ ياذوى
العقول فإن قضية اللب خشية الله تعالى وتقواهم وحشهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون
المقصود بها هو الله تعالى فيتبرا من كل شئ سواه ، وهو مقتضى العقل العرى عن
شوائب الهوى ، فلذلك خص أولى الألباب بهذا الخطاب . ﴿ ليس عليكم جناح أن
تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ أى ليس عليكم إثم أن تطلبوا رزقا بالتجارة فى الحج .
نزلت ردعا للناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ويسمون من يخرج
بالتجارة « الداج » ويقولون : هؤلاء الداج ، وليسوا بالحاج . والمراد من الآية

أن الكسب مباح في أيام الحج إذا لم يكن هو المقصود بالذات ، وأنه مع حسن النية وملاحظة أنه فضل من الرب تعالى يكون فيه نوع عبادة . وقال بعض العلماء إن نفي الجناح يقتضي أن هذه الاباحة رخصة ، وأن الأولى تركها في أيام الحج ، وأن التفرغ للمناسك في أيام أدائها أفضل ، والتزهد عن جميع حظوظ الدنيا في تلك البقاع الطاهرة

أكل ﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ الافاضة معناها الدفع . عرفات أعرف من أن تعرف ، وهو جبل في حدود مكة يتعرف فيه إلى الله بالعبادة ، أو أنه يشعر بتعارف الناس فيه . وعرفة اسم لليوم الذي يقف فيه الحاج بعرفات وهو تاسع ذى الحجة . والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج ، وكلها موقف . والمشعر الحرام جبل بالمزدلفة يقف عليه الإمام ويسمى (قرح) ، وسمى مشعراً لأنه معلم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته . والمعنى أنه يطلب من الحاج إذا نزل من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتكبير والتلهيل والتلبية ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ لمعلم بيته ومناسك حجه وقيل اذكروه ذكرأ حسناً كما هداكم

الهداية الحسنة التي نزل بها قرآنه الكريم وبينها رسوله العظيم ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ أي وإن كنتم كنتم من قبل الهدى ضالين عن الحق في عقائدكم وأعمالكم ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ والمعنى : بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج ، وليس فيها امتياز أحد على أحد ولا قبيل على قبيل ، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة ، بقي شيء واحد هو أن تلك العبادة المميزة - وهو ما كان يفعله بعض القبائل في الجاهلية - لا وجود لها ، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد . وقد كانت قريش ومن كان على دينها وهم الخمس يقفون بالمزدلفة يقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخرج منه ، وكان من سواهم يقفون

بعرفة ، فأنزل الله ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ثم قال ﴿ واستغفروا الله ﴾ والمراد الاستغفار بما أحدثوا بعد إبراهيم من تغيير المناسك وإدخال الشرك وأعماله فيها ، وإلا فهو استغفار من الضلال الذي ذكرهم به في الآية قبلها ومن عامة الذنوب في الحج وغيره (إن الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفر وينعم عليه ﴿ فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ كان أهل الجاهلية يقفون في

الموسم يقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . والمعنى إذا فرغتم من مناسك الحج اذكروا الله أشد من ذكركم آبائكم ، أى كونوا أشد ذكرا لله ، ثم بين تعالى أن الذين

يذكرونه فيدعونهم على قسمين ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ الخلاق النصيب والحظ ، هذا الفريق يطلب حظ الدنيا لينعم بشهواته وملذاته ، يطلب الدنيا من كل باب ويسلك إليها كل طريق ، فاستيلاء حب الدنيا عليه صرفه عن العمل لآخرته ، فخرمان هذا الفريق من خلاق الآخرة هو أثر كسبه وسوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيا الفانية على سعادة الآخرة الباقية

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ أى ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة . والحسنة وصف لمخدوف أى حياة حسنة واختلفوا في حسن الآخرة ف قيل الجنة وقيل الرؤية . واختلفوا في عذاب النار ، ورد عن علي كرم الله وجهه أنه المرأة السوء . ان الطلب من الله تعالى انما يكون باتباع سنته في الأسباب والمسببات والتوجه اليه تعالى واستمداد المعونة والتوفيق منه للهداية الى ما

يعجز العبد عنه ، وعلى هذا يتخرج تفسير الحسن لقوله تعالى (وقنا عذاب النار) بقوله : أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية اليها . فطلب الحياة الحسنة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها ، وأعظمها وأنفعها الثقة بالله والاخلاص له وقصد الخير في الأعمال كلها وتوقي الشرور كلها . وطلب الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصالح بقدر الاستطاعة . وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي والشهوات المحرمة مع القيام بالفرائض المحتمة

﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الإشارة بأولئك إلى الذين يطلبون سعادة الدارين والحسنة في المنزلتين . والمعنى أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها ويسعون للآخرة سعيها كان لهم حظ من كسبهم هذا في الدارين على قدره ﴿ والله سريع الحساب ﴾ يوفى كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه ، لأن سنته مضت بأن تكون الرغائب آثار الأعمال فهو يوفى كل عامل عمله بلا إبطاء ، وكما يكون

الجزاء سريعا في الدنيا كذلك يكون في الآخرة ، فان أثر الاعمال الصالحة يظهر للبرء عقب الموت ، وهو أول قدم يضعها في باب عالم الآخرة .

واختلفوا في كيفية الحساب على أقوال : أقربها إلى التصور أن سرعة الحساب عبارة عن اطلاع كل عامل على عمله ، أو إعلامه بما له مما كسب ، وما عليه مما اكتسب . وذلك يتم في لحظة واحدة . وقد قيل ان الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . وورد بمقدار لحظة البصر .

﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ الأيام المعدودات هي أيام منى ، وهي أيام التشريق الثلاثة من حادى عشر ذى الحجة إلى ثالث عشره . وينت السنة أيضا أن ذكر الله تعالى في هذه الأيام هو التلبية والتكبير أذبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمى الجمار ، وغير ذلك من الأعمال ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ أى من استعجل في تأدية الذكر عند الأعمال المعلومة في يومين من تلك الأيام المعدودات فلا حرج عليه ، ومن أتمها كذلك ، إذا اتقى كل منهما الله تعالى ووقف عند حدوده فان التقوى هي الغرض من الحج ومن كل عبادة ، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله تعالى ، وإنما تلك الأعمال مذكرات للناسين . ثم أمر بالتقوى بعد الاعلام بمكافئها فقال ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى اتقوه في حال أداء المناسك وفي جميع أحوالكم وكونوا على علم يقين بأنكم تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة فيريكم جزاء أعمالكم والعاقبة للمتقين ، كل ذلك يدلنا على أن المهم في العبادة ذكر الله تعالى الذى يصلح النفوس وينير الأرواح ، حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشرور والمعاصي ، فيكون صاحبها من المتقين .

وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامَ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

حَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَمُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

التفسير

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾ معناه يعجبك قوله وأنت في هذه الحياة ، لأنك تأخذ بالظواهر ، وهو منافق اللسان : يظهر خلاف ما يضر ، ويقول ما لا يفعل ، فهو يعتمد على خلافة لسانه في غش معاشريه وأقرانه ﴿ ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ أى يحلف بالله على أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعى . وفى معنى الحلف أن يقول الإنسان : الله يعلم — أو يشهد — بأننى أحب كذا وأريد كذا . وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذبا يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى . وإن أقل ما يدل عليه عدم المبالاة بالدين ، ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل ، فهو قول لا يصدر إلا عن المنافقين ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أى وهو فى نفسه أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم ، أو هو أشد خصائهم . وفيه وجه آخر قاله بعضهم ، وهو أن الخصام بمعنى الجدال أى وهو قوى المعارضة فى الجدال ، لا يعجزه أن يختاب الناس ويفشهم بما يظهر من الميل إليهم وإسعادهم فى شؤونهم ومصالحهم ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ إن صاحب دعوة الإصلاح والإصلاح وحب الخير إذا عرض عن مخاطبه وذهب إلى شأنه سعى فى الأرض بالفساد ، ذلك أنه لا هم له إلا فى الشهوات واللذات والحظوظ الحسية ، فهو يعادى أهل الفضيلة ويؤذيهم ، لأنه ألد خصم لهم ، للتناقض والتضاد فى الغرائز والسياسيا ، ويعادى أيضا المزارحين له فيها من أمثاله المفسدين ، وهو يفسد باعتدائه على الأموال والاعراض ﴿ ويهلك الحرث والنسل ﴾ بما يكون من أثر إفساده فى اعتدائه ، وهو ذهاب ثمرات الحرث — وهو الزرع — والنسل — وهو ما تناسل من الحيوان —

وكأنه إشارة إلى مكاسب أهل الحضارة والبادية . وذكر بعضهم أن المراد بالحرث هنا النساء كما في قوله ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ وبالنسل الأولاد — والمعنى أن المفسد يؤذى مسترسلا في إفساده ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل ، وكذلك شأن المفسدين يؤذون أرواحاً لشهواتهم ولو خرب الملك بارضائهما .

وهناك قول آخر أن المراد بتولى : صار واليه — له حكم ينفذ وعمل يستبد به ، وإفساده حينئذ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد ، وإهلاك الحرث والنسل يكون أما بسفك الدماء والمصادرة في الأموال ، وأما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم ، ومن انقطع عمله انقطع عمله ، إلا الضروري الذي به حفظ الذماء ، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يحب المعاصي وقطع السبيل وإضاعة الطريق . أى أن إفساد هذا المختلَب بقوله ظاهر في الوجود ، والظاهر عنوان الباطن ، فلو كان قلبه صالحاً لكان عمله صالحاً ، ولكن إفساده في عمله دليل على فساد قلبه ، والله لا يحب المفسدين لأنه لا يحب الفساد ، والله لا ينظر إلى الصور والأقوال وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ﴾ أى أنه إذا أمر بمعروف أو منهى عن المنكر يسرع إليه الغضب ويعظم عليه الأمر ، فتأخذه الكبرياء والأنفة وتحفظه الحمية وطيش السفه ، فيكون كالمأخوذ بالسحر لا يستقيم له فكر ، لأنه مصر على إفساده لا يبغي عنه حولا . وعبر عن الكبرياء والحمية بالعزة للإشعار بوجه الشبهة للنفس الأمارة بالسوء ، وهو تخيلها النصيح والإرشاد ذلة تنافي العزة المطلوبة ، وهذا الوصف ظاهر جدا في تفسير التولى بالولاية والسلطة فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذّر من مفسدة ﴿ حسب جهنم ﴾ أى هى مصيره ، وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية . ثم وصف جهنم وهى دار العذاب فى الآخرة بقوله ﴿ ولبئس المهاد ﴾ المهاد الفراش ، فالتعالى يقسم تأكيذاً للوعيد بأن الذى يرى عزته مانعة عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار وهى بئس المهاد وشره ، لا راحة فيها ولا اطمئنان لأهلها .

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ ومن الناس من يشري
أى يبيع نفسه لله ، لا يبيع ثمنها لها غير مرضاته ، لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول
الحق والاخلاص في القلب ، فلا يتكلم بلسانين ، ولا يقابل الناس بوجهين . وإن
هذا البيع لا يتحقق إلا إذا كان المؤمن يهود بنفسه وبماله في سبيل الله إذا مست
الحاجة لذلك ، وسبيل الله هو الطريق التى يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده .
ومعنى هذا أنه لا يكتفى من المؤمن أن يكتسب الحلال ويتمتع بالحلال وينفع نفسه
ولا يضر غيره وأن يصلى ويصوم ، لأن كل هذا يعمل له لنفسه خاصة ، بل يجب أن
يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وأنفع ، فيساعد على نفع الناس ودرء الضرر عنهم
يحفظ الشريعة وتعزيز الأمة بالمال والأعمال والدعوة الى الخير ومقاومة الشر ولو
أفضى ذلك الى بذل روحه ، فأن قصر في واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الأمة من
غير عذر شرعى فقد آثر هوى نفسه على مرضاة الله تعالى وخرج من زمرة المؤمنين
الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان إكبر إجراما ممن يقصر في واجب لا يضر

تقصيره فيه الا بنفسه ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ اذ يرفع همم بعضهم ويعلى نفوسهم
حتى يبذلوها في سبيله لدفع الشر والفساد عن عباده ، وتقرير الحق والعدل والخير
فيهم ، ولولا ذلك لغلب شر أولئك المفسدين في الارض حتى لا يبقى فيها صلاح .
وان أمة يتصف جميع أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف لجذيرة بأن تسود العالمين ،
وإن أمة تحرم من هذا الصنف لخليقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلبين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلِّ بْنِ إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ
وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

التفسير

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ السلم المسالمة والتسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام ، وعلى دين الاسلام . وقد فسر به بعض المفسرين بالصلح وبعضهم بالاسلام . وقيل في تفسير «كافة» أنها حال من السلم ، أى في جميع شرائعه . وهذه قاعدة عظيمة لو بنى جميع علماء الدين مذاهبهم عليها لما تفاقم أمر الخلاف في الأمة ، ذلك أنها تفيد وجوب أخذ الاسلام بحملته بأن ننظر في جميع ما جاء به الشارع في كل مسألة من نصر قولى وسنة متبعة ونفهم المراد من ذلك كله ، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة وإن أدت الى ترك كثير من النصوص والسنن ، والى حملها على النسخ أو المسخ بالتأويل أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل . اذ اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على ان الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه ، لأن الخواص اذا اتحدوا تبعهم العوام . وهذه هى الوسيلة الفردة لابطال استبداد الحكام ، لوجوب اخذ القرآن والدين بحملته ، وفهم هدايته من مجموع ما ثبت عن جاء به ، امر مقرر فى ذاته سواء فسرته به الآية ام لا

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ الخطوات جمع خطوة وهى ما بين قدمي من يخطو ، اى لا تسيروا سيره ، ولا تتبعوا سبله فى التفرق فى الدين ، او الخلاف والتنازع مطلقا . وسبل الشيطان وخطواته هى كل امر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة

طريق الحق هو الوحدة والاسلام ، وطرق الشيطان هى مشارات التفرق والخصام ، وهى معروفة فى كل الأمم ، ولكن الشيطان يزين طارقه ، ويسول للناس المنافع والمصالح فى التفرق والخلاف . ومن خطوات الشيطان طرق الفواحش والمنكرات كلها ، ولذلك قال تعالى ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أما أن الشيطان عدو مبين — أى ظاهر العداوة — فذاك أن جميع ما يدعو اليه ظاهر البطلان بين الضرر لمن تأمل وعقل . فمن لم يدرك ذلك فى مبدأ الخطوات أدركه فى غايتها عندما يذوق مرارة مغبتها ﴿ فان زلستم من بعد ما جاءكم

البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴿ أى فان زلتم وحدتم عن صراط الله - وهو السلم - الى خطوات الشيطان - وهى طرق الخلاف والافتراق والباطل - من بعد أن بين الله تعالى لكم أن سبيله واحدة وهى السلم وأن الشيطان لكم عدو مبين ، فاعلموا انه يحل بكم العقاب ، لانه عزيز لا يغلب على امره ، حكيم لا يهمل امر خلقه . ثم بين تعالى غاية الوعيد المشار اليه فى الآيتين الكريمتين فقال ﴿ هل ينظرون

إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ الاستغمام فى الآية للانكار ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، وهى كثيرة الاستعمال بهذا المعنى فى الكتاب العزيز . وحسبنا أن نقول على رأى من فسر إتيان الله هنا بآتيان أمره ، وما وعد به من العذاب ، أو إتيانه بما وعد به ، أن نفوض اليه تعالى كيفية ذلك ، وبذلك نكون على طريقة السلف فى التفويض ، مع العلم بأن الله تعالى ينذر الذين زلوا عن صراطه وفرقوا دينه بأمر معروف فى الجملة لا بشيء مجهول مطلق . وأما ظلل الغمام فهى قطع السحاب ، وان الحكمة فى نزول العذاب فى الغمام انزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به ، وذلك أبلغ فى هوله . وهناك وجه آخر اذا كان يوم القيامة وكشف الحجاب عرفوا الله ربهم الحق وتبين لهم ما كانوا عليه من الباطل . فذلك إتيان الله لهم ، أى يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه محرومين منه فى الدنيا . ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى كيف ينتظرون غير

ذلك وهو أمر قضاء الله وأمره فلا مفر منه ﴿ وإلى الله ترجع الامور ﴾ فيضع كل شيء موضعه الذى قضاءه ، فهو الاول ومنه بدأت الأشياء واليه ترجع وتصير ، وهو بكل شيء محيط فيجازى أهل الاحسان بالاحسان وأهل الاساءة بما رأى .

﴿ سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ﴾ الخطاب للرسول أو لكل أحد : هذا بيان لحقيقة حال بنى اسرائيل ، وأن الآيات والنذر لا ترجعهم عن ضلالهم ، فكم جاء أنبياءهم بالآيات والبيّنات ، وكم بلام الله بالحسّنات والسيئات ، فلم يغن ذلك عنهم ولا صدم عن خلافهم وشقاقهم ﴿ ومن يسدل نعمة الله ﴾ عليه بالآية الدالة على الحق والوحدة الدالة على الشكر ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ بالبيان والبرهان ﴿ فان الله شديد العقاب ﴾ لمن تنكب سنته وخالف شرعته . وهذا المبدل منهم

فالعقاب الشديد نازل به لا محالة . وهناك وجه آخر في المخاطبين بالدخول في السلم ، فهو أن الآية هادية الى الاعتبار بسنة الله تعالى في الأمم الماضية ، كأنه يقول : يا أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ، عليكم بالدخول في السلم ، والاتفاق والاعتصام بالاسلام في جملة ، لا تفرقوه وتفرقوا فيه وتكونوا شيعة ، كيلا يصيبكم ما أصاب أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، وهؤلاء بنو اسرائيل بين أيديكم وحالهم لا تخفى عليكم ، فقد أوتوا نحو ما أوتيتم من البينات ، وأمروا كما أمرتم بالاتحاد والاجتماع ، ففرقوا الى مذاهب وشيع ، وزلوا عن صراط الله ففترقت بهم السبل ، فأخذهم الله بعزته ، ونفذ فيهم حكم سننه : زال سلطانهم ، ولفظتهم اوطانهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ومزقوا في الأرض كل ممزق . والآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به ، لا حكاية تاريخية عن بني اسرائيل

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ لِأَنَّ لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

التفسير

(زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم ، حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمراد بالذين كفروا من لا يؤمنون بالحقوق المشروعة لله وللناس إيمان إذعان وانقياد بل يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها على ما عند الله تعالى من النعيم المقيم ، لا المشركون أو الكافرون فى عرف بعض الناس كالذين لا يسمون مسلمين ، كما أن القرآن لا يعنى بالمؤمنين الناجين طائفة يسمون أنفسهم أو يصفونها بالإيمان أو الاسلام ، وإنما يعنى بهم أولئك الموقنين بما عند الله ، الذين يؤثرون الحق على كل ما يعارضه من شهواتهم ولذاتهم ، وإذا عثر أحدهم فعمل السوء بجماله يتوب من قريب . وانظر سائر ما عرّف الله تعالى به المؤمنين والكافرين من النعوت والأوصاف يظهر لك هذا . وأظهر أوصاف الكافر أن تكون زينة الدنيا أكبر همه ، يؤثرها على كل شيء ، حتى أن أوامر الدين لا ترحزه عن شيء . يقدر عليه من هذه الزينة ومتاعها بلا معارض ، لأنه لا يقين له فى الآخرة ، فإن كان منتسبا إلى دين فما دينه إلا تقاليد على أعين الناس وخواطير تتنازعها الشبهات وتتجاوزها الشكوك والتأويلات) ويسخرون من الذين آمنوا) إيماننا حقيقيا يحمل على العمل ، الذين يرون الكياسة فى الاستعداد لما بعد الموت ، بترقية النفس بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبينات ، والتحلى بالفضائل وأحاسن الأخلاق ويعدون الفضل فى القيام بحقوق الناس وخدمة الأمة والافاضة من المال على العاجزين والبائسين . وكلما أنفقوا فى سبيل الله درهما عده أولئك المستهزئون مغرما ، قال تعالى ردأ على هؤلاء الساخرين الذين يرون أن زينتهم ولذاتهم خير من أهل اليقين فى نزاهتهم وتقاهم) والذين

اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴿ فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن في هذه الحياة القصيرة الغانية — بما يكون لهم من الاتباع والانصار والمال والسلطان — فان المؤمنين المتقين يكونون أعلى منهم مقاما يوم القيامة في تلك الحياة العلية الابدية . فالله يرشدنا أنه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة الا اذا صحبته التقوى وكانت أثرأ له في النفس والعمل الصالح ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ الحساب التقديرى أى من غير تقدير له على حسب الايمان والتقوى والكفر والفجور . وفيه وجه آخر وهو كناية عن السعة وعدم التقير ، أى ينفق كثيرا ، والمعنى أنه بذل العطاء في الدنيا لكل أحد ، بخلق الارزاق وإقدار الناس على الكسب . وقيل ان المعنى بغير حساب عليه من أحد ولا مراجعته .

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ والمعنى أن الله تعالى قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضها ببعض ولا يمكنهم فى هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تحديد النظام اللازم لهم مع اختلاف الفطرة وتفاوت العقول . ولا سبيل لعقولهم وحدها الى الوصول الى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم ورفع المضار عنهم ، فبعث الله النبيين مبشرين من آمن وأطاع بمر الدنيا وخير الآخرة ، ومنذرين من كفر وعصى بخير الدنيا وعذاب الآخرة ، وأيد المؤمنين بالدلائل القاطعة على صدقهم .

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ أنزل الله الكتاب لبيان ما يريد حمل الناس عليه بما هو صالح لهم على حسب استعدادهم ، والجملة الاولى تفيد أن الله أنزل مع كل نبي كتابا بما هو صالح لا مفسدة فيه ، ليقع الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والحاكم هو المتولى للفصل بين الناس فى الخصومات بالنسبة إلى الاعمال ، والمرشد الى صحيح العقائد . وفيه قول آخر ، فالحكم مسند الى الكتاب نفسه ، فالكتاب هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه . وفيه نداء على الحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ، وأن لا يعدلوا عنه ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾ .

إن الاختلاف الذى وقع من الرؤساء والأجبار والعلماء ومن أوتوه لم يكن مصدره إلا البغى بينهم ، وتعدى الحدود التى أقامها الدين حواجز بين الناس ، وذلك رغبة فى رياسة ، أو إرضاء لشهوة خفية ، أو منفعة . فبغى علماء الدين فى التأويل وكثرة القيل والقال ليس بعيب فى الكتاب ، وإنما العيب فى مرض نفوسهم التى استرقتها الشهوات ، وأضلتها الأهواء ، فعصفت بريحهم ، وقضت على وحدتهم ، وضلوا بعد هدى ، وذلوا بعد عز ، واسترقوا بعد حرية واستقلال (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)

أى أن المؤمنين هم الذين يهتدون لما اختلف الناس فيه من الحق ، ويصلون إلى ما يرضى ربهم ، فالإيمان الصحيح يهدى صاحبه الى صور من الحق تنزل منه منزلة العبارة من معناها ، فهو إذا اعتقد فأنما يعتقد ما هو مطابق للواقع ، وإذا تخيل فأنما يتخيل صوراً تمثل ذلك الواقع وتحليه فى أقوى مظاهره ، لهذا يكون تيسير الله له الهداية الى الحق الذى يختلف فيه الناس ، فهو مطمئن ساكن القلب وهم فى اضطراب وحرب (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) كأنه يقول : قد خلت — مضت — من قبلكم أمم أوتوا الكتاب ودعوا للحق فأذاهم الناس فى ذلك ، فصبروا وثبتوا . أفتصبرون مثلهم على المسكاره وثبتون ثباتهم على الشدائد ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتناولوا رضوان الله تعالى من غير أن تفتنوا فى سبيل الحق فتصبروا على ألم الفتنة ، وتؤذوا فى الله فتصبروا على الإيذاء كما هى سنة

الله تعالى فى أنصار الحق وأهل الهداية فى كل زمن (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه حتى نصر الله) البأساء أشدة تصيب الإنسان فى غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة ، وفسرت بالفقر وهو من أثره . وأما الزلزال فهو الاضطراب فى الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه . وزلزه : هزه ودعته ايزله عما هو عليه ، أى أنهم وصلوا الى درجة حدوث الاضطراب والاشراف على الزل فى مجموعهم كما قال تعالى فى المؤمنين يوم الاحزاب (وزلزلوا زلزالاً شديداً) ، والآية التى نفسرها تصرح بأن بعض السابقين كانوا أشد زلزالاً ، ولعل الغاية التى وصلوا اليها ولم يصل اليها سلفنا هى قوله

تعالى ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أى حتى وصلوا إلى غاية من الشدائد والاهوال لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب النصر والفوز ، لان قوة اعداء الحق أحاطت بهم من كل جانب فاعتقدوا أن وقت العناية الالهية والنصر الذى وعد الله به من ينصر الحق قد حان وقته أو أبطأ فاستعجلوه متى نصر الله ، فأجابهم تعالى ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ بأن نصرهم وكف عنهم شر أهل البغى وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى وكان الله قوياً عزيزاً .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ بذل المال كبذل النفس وكلاهما من آيات الايمان فكان لما تقدم تتوجه نفسه الى البذل فيسأل عن طريقه ، فجاء بعده السؤال مقرّونا بالجواب ﴿ قل ما أنفقتم من خير ﴾ وإن التعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالاً ، فكأنه قال : إن الانفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال الطيب ، أما بيان المصرف فهو قوله ﴿ فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قدم الوالدين لمساكنتهما ، وفسروا الاقربين بالاولاد اولادهم ، وما اختير لفظ الاقربين هنا الا لبيان أن العلة في التقديم القرابة ، فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم . فالآية عامة في النفقة وأحق الناس بها ، لأنه لا يجب على فرد معين من المكلفين الانفاق على يتيم أو مسكين معين منهم من حيث أنه يتيم أو مسكين ، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الاقربين ، ثم قال تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ كالانفاق في موضوعه بتقديم الاحق فالاحق به بمن ذكر — وهو ما يوجه في كل زمان ومكان — ومن لم يذكر في هذه الآية وذكر في غيرها ، وبغير الانفاق من أعمال الخير ﴿ فان الله به عليم ﴾ لا يغيب عنه فينسى الجزاء والتوبة عليه

﴿ كتب عليكم القتال ﴾ — انعقد الاجماع على أن الجهاد فرض ، وهو أنه من فروض الكفاية إلا أن يدخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين ، ﴿ وهو كره لكم ﴾ معناه أن من الأشياء المكروهة طبعاً ما تأتونه وأتم ترجون نفعه وخيره

كشرب الدواء البشع المر ومن الأشياء المستلذة طبعاً ما يتوقع فاعلمها الضرر والأذى
 في نفسه ومن جهة منازعة الناس له فيه ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ،
 وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ بين سبحانه أن
 القتال كتب على هذه الأمة فلا مفر منه وإن كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق
 بهلاك أهله ، أو كما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة والرجاء يجذب الناس إلى الإيمان
 بجاذب الدليل والحجة وهو الأرجح ، ولكن يوجد فريق من الأمة أعمته الشهوات
 وأضله الهوى حتى لم يبق لروح الحق منفذ إلى عقله ولا لحب الخير طريق إلى قلبه فلا
 تنفع فيه الدعوة ولا ترجى له الهداية ، ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد
 في الجسم إذا لم يخرج منه فإنه يفسده ، ولم يأمر الله بقتالهم إلا رحمة بمجموع الأمة
 أن تفسد بهم ، والله هو الذي يعلم ما يصلحكم وما هو خير لكم وأنتم تعلمون ذلك
 فبادروا إلى ما يأمركم به وامثلوا أمره .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ
 الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
 مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

التفسير

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) والمعنى يسألك الكفار عن الشهر الحرام
 جازز القتال فيه (قل قتال فيه كبير) أى أن القتال فيه أمر مستنكر . وقال بعضهم
 ذنب كبير . وهذا تقرير لحرمة القتال في الشهر الحرام ، والشهر الحرام : المراد به
 الجنس . وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماً ولا تغير على عدو . والأشهر الحرم :
 هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد . أى أنه لا يحل
 للناس الغزو في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا على سبيل الدفع — وإذا كان القتال
 في نفسه أمراً كبيراً وجرماً عظيماً فانما يرتكب لازالة ما هو أعظم منه وذلك قوله
 تعالى (وصد عن سبيل الله) الطريق الموصل اليه وهو الاسلام ، وكان المشركون
 يمنعون الناس منه ، يقتلون من يسلم أو يؤذونه في نفسه وأهله وماله ويمنعونه من
 الهجرة الى النبي ﷺ (وكفر به) أى بالله تعالى (والمسجد الحرام) أى وصد
 عن المسجد الحرام ، وهو منع المؤمنين من الحج والاعتبار (واخراج أهله منه)
 وهم النبي ﷺ والمهاجرون — كل واحد من هذه الجرائم التى عليها المشركون
 (أكبر عند الله) من القتال في الشهر الحرام فكيف بها وقد اجتمعت .
 ومعنى الآية الذى ذهب اليه الجمهور : انكم يا كفار قريش تستعظمون علينا
 القتال في الشهر الحرام وإن ما تفعلون أتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ،
 ومن الكفر بالله ، ومن الصد عن المسجد الحرام ، ومن إخراج أهل
 الحرم منه أكبر جرماً عند الله . ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال وهى
 فتنة الناس عن دينهم فقال (والفتنة أكبر من القتل) وكان المشركون يفتنون
 المؤمنين عن دينهم بالقضاء الشبهات وبما علم من الايذاء والتعذيب ، فكان أمية بن
 خلف يعذب بلالا ليثبت فيه فكان يجمعه ويعطشه ليلة ويوما ثم يطره على ظهره في
 الرمضاء ، أى يضعه على الرمل المحمى بحرارة الشمس الذى ينضج اللحم ويضع على
 ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ
 وتبعد اللات والعزى ، فبأنى ذلك ، وهانت عليه نفسه في الله عز وجل وهو يقول :

أحد ، أحد . وهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ عاد الى خطاب المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال لما تقدم ، فأعلمهم أن أولئك المشركين لا همَّ لهم إلا منع الاسلام من الأرض ، فترك قتالهم هو الذى يبيد الحق وأهله ، وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع فى غير مطعم والقتال فى الشهر الحرام أهون من الفتنة عن الاسلام والكفر به والصدعن المسجد الحرام وإخراج أهله منه والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه . ولما ذكر الردة التى يبغونها بقتالهم بين حكمها فقال ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت

أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ حبطت أى بطلت وفسدت ، والمعنى أن الرجوع عن الايمان إلى الكفر يشبه الآفة التى تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فان لم يمت المصاب بعقله وقلبه فهو فى حكم الميت لا ينتفع بشئ ، وكذلك الذى يقع فى ظلمات الكفر بعد أن هدى الى نور الايمان تفسد روحه ويظلم قلبه فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ولا يعطى شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة فيخسر الدنيا والآخرة . ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ يعنى الذين ارتدوا عن دينهم فأتوا على كفرهم هم أهل النار المخلدون فيها فلا يخرجون منها فهم سكانها المقيمون فيها .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين ولذلك قال ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ المهاجرة مفارقة الأهل والاطوان وهى من الهجر ضد الوصل . والمجاهدة من الجهد وهو المشقة ، وليس خاصا بالقتال . والرجاء هو توقع المنفعة من أسبابها ، فالؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا اليه للقيام بنصرة الحق والذين بذلوا جهدهم فى مقاومة الكفار هم الذين يرجون رحمة الله تعالى وإحسانه رجاء حقيقيا ، وهم أجدر بأن يعطوا ما يرجون ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما عساه يفرط منهم ويتغمدهم برحمته ورضوانه

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
 مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
 لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُهُ
 لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا مَـمْلُوكَةً
 مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ
 مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ
 وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

التفسير

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) لفظ الخمر منقول عن مصدر خمر الشيء بمعنى
 ستره وغطاه . والوجه في النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويفطيه ، أو بمعنى التغير
 يقال خمر الشيء إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيسكون خمرا . ويقال سميت
 الخمر خمرا لأنها تركت حتى اختمرت ، واختارها تغير رائحتها . وجميع هذه المعاني
 ظاهرة في هذه الأشرطة المسكرة كلها ، فيصبح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر ،
 وهذا ما ذهب إليه أشهر علماء اللغة ، وإن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم
 الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره ، والاحاديث
 الصحيحة صريحة في ذلك ، كل مسكر خمر ، وروى بزيادة « وكل خمر حرام » . وكان
 النبي ﷺ والخلفاء يجلدون كل من سكر ويعبرون عن ذلك بحمد الخمر وعقوبته ، وهذا
 البيان قطعي متواتر ، لأن العمل عليه . وفي حديث صحيح آخر « ما أسكر كثيره فقليله
 حرام » .

وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من يسر اذا وجب أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كد ، أو من اليسار وهو الغنى لأنه سببه للرايح ، أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقسام . وقد اختلفوا : هل الميسر ذلك النوع من القمار الذي كان يلعبه العرب بالقداح ومن خرج له قدح من ذوات الانصباء لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزء كله ، أم يطلق على كل مقامرة . ولكن لا خلاف في أن كل قمار محرم قطعاً إلا ما أباح الشرع من الرهان في السباق والرماية ترغيباً فيهما .

(قل فيهما اثم كبير) وإنما كان لاثم الخمر كبيراً لأن مضرتها كبيرة ولا لاثم الا ما كان ضاراً والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد لاثم من الانام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر . وأما كون لاثم الميسر كبيراً أو كثيراً فقد جاء فيه ما جاء في الخمر من كونه يورث العداوة والبغضاء ، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ثم إنه طريق لاكل أموال الناس بالباطل — أى بغير عوض حقيقى من عين أو منفعة — وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله ، وافساد الترية بتعويذات النفس بترك الاعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال الياسرين «المقامين» للزراعة والصناعة والتجارة التي هي من أركان العمران . ومنها وهو أشهرها تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة .

(ومنافع للناس) أما المنافع في الخمر فاهمها التجارة ، فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للثروة ومادة عظيمة للتجارة ، ومنها أن تكون علاجاً لبعض الامراض ، ولكن الدواء يؤخذ بمقدار ، فالتداوى بالخمر لا يتفق مع شربها للشهوة واللذة ، ومنها أنها تسلى الحزين ، على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد في الحزن والكآبة . ومن منافع الميسر سرور الراجح وإريحته ، ومنها أن يصير الفقير غنياً من غير تعب .

(واثمهما أكبر من نفعهما) وهذا القول إرشاد للمؤمنين الى طريق الاستدلال ، فكان عليهم أن يهتدوا مسنًة الى القاعدتين اللتين تقررتا بعد في الاسلام : قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» وقاعدة «ارتكاب أخف الضررين» ، إذا كان ترك أى منفعة ضرراً . وأطباء الأفرنج وعلمائهم يجمعون على أن ضرر الخمر — وكذلك

الميسر بالاولى — أكبر من نفعهما ، وقد ألفت جمعيات في أوروبا وأمريكا للسعى في ابطال المسكرات ومحاربة الميسر . فنفعه القمار وهمية ومضراته حقيقية فان المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وجه ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع ، والمسترسل في إضاعة المحقق طالبا للتوهم يفسد فكره ويضعف عقله ، ولذلك ينتهى الأمر بكثير من المقامرين الى بيع أنفسهم (قتلها غما) أو الرضى بعيشة الذل والمهانة .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ العفو : هو الفضل والزيادة عن الحاجة ، وعليه الأكثر . وقال بعضهم إن العفو نقيض الجهد ، أى ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلا عن حاجتهم وحاجة من يعولون . والمراد بهذا الاتفاق ماوراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة ، وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة ، لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذى لا جهد ولا مشقة فيه . وقد ورد فى الحديث الصحيح « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول » .

وقال أيضاً اذا كان عند أحدكم فضل فليبدأ بنفسه ، ثم بأهله ، ثم بولده ، ثم يسلك حينئذ فى الفضل مسالكه التى ترضى الله ويحبها وذلك هو القوام بين الاسراف والاقتار الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه . لا تنهض أمة ولا ملة إلا بالتعاون ، وهو مساعدة الغنى للفقير ، وإعانة القوى للضعيف ، وبذل المال والعناية فى حفظ المصلحة العامة . بهذا ظهر القليل على الكثير ، وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا

انحلت الأمم الكبيرة وفقدت الملك والسعادة ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ معناه : مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته من الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم ، وذلك بأن يلفت عقولكم الى ما فى الاشياء

من المضار والمنافع ﴿ لعلمكم تفكرون ﴾ بأن هداكم الى استعمال عقولكم لترتقوا بها الى النافع وتعملوا له ، والى الضار فتجتنبوه ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ أى تفكرون فى أمورهما معا ، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح ، فتكونون أمة وسطا وأناسى كاملين ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فالله تعالى يبين فى مثل هذه الآيات أن الاسلام

هاد ومرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين ، وقدم الدنيا لانها مقدمة وجودا وطبعاً ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهدانا اليه فهو من ديننا ، ولذلك قال علماؤنا : إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج اليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية ، اذا اهتمت الامة شيئاً منها — فلم يبق به من أفرادها من يكفيها ضرر الحاجة — كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه ، إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة ، وعن الامر به للقادر عليه ، فأولئك هم المعذورون بالتقصير .

ثم قال تعالى ﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ لما نزلت آية ﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ اعتزلوا اليتامى ومخاطبتهم والاهتمام بأمرهم ، فشق ذلك عليهم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الوحي في ازالة الحيرة وكشف الغمة فقال لنبيه ﴿ قل ﴾ لهؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم وعن المصلحة في عزلهم أو مخاطبتهم ﴿ اصلاح لهم ﴾ ومعنى ذلك أن القيام عليهم لاصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية ، واصلاح أموالهم بالتشجير والتنمية ، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم ﴿ خير ﴾ لهم لما فيه من صلاحهم ، وخير للقوام والكافلين لما فيه درء مفسدة إهمالهم ، والمصلحة العامة في صلاح حالهم ، ولما في ذلك من حسن القدوة في الدنيا وحسن المثوبة في الآخرة ﴿ وإن تخالطوهم فأخوانكم ﴾ فكأنه يقول إن تخالطوهم فعليكم أن تعاملوهم معاملة الاخوة في ذلك فيكون اليتيم في البيت كالإخ الصغير تراعى مصالحته بقدر الامكان ، ويتحرى أن يكون في كفة الرجحان . وقيل إن المراد بالمخالطة المصاهرة وأخوة الاسلام علة لحلها ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ والله يعلم ما تسر القلوب من قصد الاصلاح لهم أو الافساد ، فعليكم أن تراقبوه في أعمالكم ونياتكم . والمصلح هو من يأتي بالاصلاح عملاً والمفسد هو من يأتي بالافساد فعلاً ، وحال كل منهما ظاهر للعيان ﴿ ولو شاء الله لآعنتكم ﴾ أى أوقعكم في العنت وهو المشقة بان يكلفكم القيام بشئون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم ولا يأذن لكم بمخاطبتهم ﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ فلو شاء لإغناكم لعز على غيره منه ، حكيم بأن

منكم ما يضركم من ذلك وكلفكم ما فيه مصلحتكم وأن هداكم الى وجه منفعة النافع ومضرة الضار .

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ إن هؤلاء الذين أشركوا — وهم الذين بينكم وبينهم غابة الخلاف والتباين في الاعتقاد — لا يجوز لكم أن تتصلوا بهم برابطة المصاهرة ، لا بتزويجهم ولا بالتزوج منهم . وأما الكتابيات فقد جاء في سورة المائدة أنهن حل لنا ، وسكت هناك عن تزويج الكتابيات بالمسلمة . وقالوا إنه على أصل المنع ، وأيدوه بالسنة والاجماع . والتعبير بتنكحوا يشعر بأن الرجال هم الذين يزوجون أنفسهم يزوجون النساء اللواتي يتولون أمرهن ، وأن المرأة لا تزوج نفسها بالاستقلال بل لا بد من الولي ﴾ ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ،

ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ وقد فسر بعضهم الامة والعبد بالريق أى أن الامة المملوكة المؤمنة خير من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمالها ، وكذلك الفتى المؤمن خير من الحر المشرك وان كان جميلا . وقال آخرون ان المراد أمة الله وعبد الله ، أى أن المؤمنة والمؤمن كل منهما عبد الله ويطيعه ويخشاه ، ولذلك كان خيرا ممن يشرك به فكان في التعبير بالامة والعبد اشعار بعلة الخيرية . وليس المراد بالزوجة قضاء الشهوة الحسية ، وانما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة في شئون الحياة والاتحاد في كل شيء ، وانما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل يأمنها على نفسه وولده ومتاعه عالما أن حرصها على ذلك كحرصه لأن حفظها منه كحظه . وما كان الجمال الذي يروق النظر ليحقق في المرأة هذا الوصف ، ولكن قد يمنعه التباين في الاعتقاد الذي يتعذر معه الركون والاتحاد ، والمشركة — اذ ليس لها دين يحرم الخيانة ويوجب عليها الأمانة — فهي موكولة الى طبيعتها وما تربت عليه في عشيرتها ، وهو خرافات الوثنية وأوهامها ، فسهل عليها أن تخون زوجها وتفسد عقيدة ولدها ، فان ظل الرجل على اعجابه بجمالها كان ذلك عونا لها على التوغل في ضلالها واضلالها .

وأما الكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة ، فانها تؤمن بالله وتعبد به ، وتؤمن بالانبياء وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء ، وتدين بوجوب عمل الخير

وتحريم الشر ، والفرق العظيم الجوهرى بينهما هو الايمان بنبوة النبي ﷺ ويوشك أن يظهر للرأى حقيقة دينه وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها فيكمل ايمانها ويصح إسلامها ، ومثل هذه الحكمة لا تظهر في تزويج الكتاتبي بالمؤمنة بما يغلب عليها من الجهل والضعف في بيان ما تعلم ، لا يسهل عليها أن تقننه بحقيقة ما هي عليه ، بل يخشى أن يزيغها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه . وهذا المعنى يفهم من تعليل النهى عن مناكحة المشركين في قوله عز وجل ﴿ أولئك يدعون الى النار ﴾ أى من شأنهم الدعوة الى أسـباب دخول النار بأقوالهم وأفعالهم ، وصلة الزواج أقوى مساعد على تأثير الدعوة ، لأن من شأنها أن يتسامح معها في شئون كثيرة . وقد يسرى شيء من عقائد الشرك للثومن والمؤمنة بضروب الشبه والتضليل التى جرى عليها المشركون بقولهم فيمن يتخذونهم وسطاء بينهم وبين الخالق ﴿ ١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، ﴿ وما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلنى ﴾ ومعاشرة المشركين مع الكراهة والنفور قد أفسدت جميع الأديان السماوية الأولى ، فما بالك بتأثير اتخاذهم أزواجا ، وهو يدعو الى كمال السكون اليهم والمودة لهم والرحمة بهم ، ألا يكون ذلك دعوة الى النار وسببا للشقاء والبوار . هذه دعوة الزوج المشرك بطبيعة دينه ﴿ والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ﴾ وهو أن دعوة الله التى عليها المؤمنون هى الموصلة الى الجنة والمغفرة بأذن الله وهـدايته وتوفيقه ، وهى مناقضة لدعوة المشركين وهى على ما هم عليه من الشرك المواصل الى النار بسوء اختيار أصحابه له ﴿ ويبين آياته للناس ﴾ أى يوضح الدلائل على أحكام شريعته للناس ، فلا يذكر لهم حكما إلا ويبين لهم حكمته وفائدته ليستدلوا بذلك على المصلحة والسعادة فيما شرعه لهم ﴿ لنعلمهم يتذكرون ﴾ فيواظبون على التزام احكام الله . ومن هنا قال الفقهاء : إن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما ، وإن ما يشارك المنصوص فى العلة يعطى حكمه .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوْبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

التفسيـر

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) أى عن حكمه وهو الحيض المعروف (قُلْ هُوَ أَذَىٌّ) فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن (وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُحِبُّ عَلَى الرِّجَالِ تَرْكُ غَشْيَانِ نِسَائِهِمْ زَمَنَ الْمَحِيضِ لِأَنَّ غَشْيَانَهُنَّ سَبَبٌ لِلْأَذَى وَالضَّرَرِ، وَإِذَا سَلِمَ الرَّجُلُ مِنْ هَذَا الْأَذَى فَلَا تَسْكَادُ تَسْلِمُهُ مِنَ الْمَرْأَةِ، لِأَنَّ الْغَشْيَانَ يَزْعِجُ أَعْضَاءَ النَّسْلِ فِيهَا إِلَى مَا لَيْسَتْ مُسْتَعِدَّةً لَهُ وَلَا قَادِرَةً عَلَيْهِ، لِاشْتِغَالِهَا بِوُضُوءِ طَبِيعِيَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ إِفْرَازُ الدَّمِ الْمَعْرُوفِ، وَقَدْ كَانَ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْإِعْتَزَالَ وَتَرْكَ الْقُرْبِ حَقِيقَةٌ لَا كُنْهَاءَ، وَأَنَّهُ يُجِبُّ الْإِبْتِعَادَ عَنِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَعَدَمَ الْقُرْبِ مَعْنًى بِالْمَرْءِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ الْحَرَّمَ إِنَّمَا هُوَ الْوَقَاعُ، وَهَذَا خِلَافٌ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْيَهُودُ: كَانُوا إِذَا حَاضَتْ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يَجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٌّ) إِلَى آخِرِ آيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْجَمَاعَ، (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أمركم الله ﷻ الطهر معناه انقطاع الدم عن الحيض ، وهو مالا يكون بفعل النساء ، وأما التطهر فهو من عملهن ، وهو يكون عقب الطهر . واختلفوا في المراد منه ، والجمهور على أن المراد به الاغتسال بالماء إن وجد ، وإلا فالتيمم ﷻ فأتوهن من حيث أمركم الله ﷻ أى فأتوهن من المأتى الذى كَوَّنَ الله تعالى الفطرة على الميل اليه ، ومضت سنته بحفظ النوع به ، وهو موضع النسل ﷻ (إن الله يحب التوابين) الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة فاتوا نساءهم في الحيض أو في غير المأتى الذى أمر الله به يرجعون اليه ولا يصرون على فعلهم السيئ ﷻ (ويحب المتطهرين) من الأحداث والأقذار ومن إتيان المنكر ﷻ (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وهذا بيان حكمة الغشيان التى شرع الزواج من أجلها ، وكان من مقتضى الفطرة وهى الاستتاج والاستيلاد ، لأن الحرث هو الأرض التى تستنبت ، والاستيلاد كالاستنبات ، وهو تصريح بما فهم من قوله عز وجل ﷻ فأتوهن من حيث أمركم الله ﷻ وما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة إلا لأجل حفظ النوع البشرى بالاستيلاد ، كما يحفظ النبات بالحرث والزرع ، فلا تجملوا الاستلذاذ المباشر مقصودا لذاته فأتوا النساء في الحيض حيث لاستعداد لقبول زراعة الولد ، وعلى ما في ذلك من الأذى ، وهذا يتضمن النهى عن إتيانهن في غير المأتى الذى يتحقق به معنى الحرث ، وقوله تعالى ﷻ (أنى شئتم) معناه كيف شئتم ودأنى تستعمل غالبا بمعنى كيف ، وتستعمل بمعنى أين ، فكأنه يقول : لا حرج عليكم في إتيان النساء بأى كيفية شئتم مادمتم تقصدون بها الحرث ﷻ (وقدموا لأنفسكم واتقوا الله) فهذه أوامر تدل على أن هناك شيئا يرغب فيه وشيئا يرغب عنه ويحذر منه .

فالامر بالتقديم للنفس يتضمن الاختيار باختيار المرأة الودود الولود التى تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها ، كما تختار للزراعة الأرض الصالحة التى يربح نمو النبات فيها وإتاقه الغلة الجيدة . ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه وفى الحديث والولد الصالح من عمل المرء الذى ينفعه بعد موته ، وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثا باضاعة مادة النسل في الحيض ،

أو بوضعها في غير موضع الحرث ، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية وإهمال تربية الولد ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد منافع الطاعة والامثال ، وتجرح عاقبة المخالفة والعصيان ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين ينفقون عند حدود الله ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والاولاد . وقد حذف ما به البشارة ليفيد أنه عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ العرضة لها معان أظهرها هنا اثنان : أحدهما أن تكون بمعنى المانع المسترض دون الشيء ، أى لا تجعلوا الله تعالى مانعا بينكم وبين عمل الخير بأن تحلفوا به على تركه فتركوه تعظيما لاسمه ، قال عليه السلام « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى فيه خير وليس كفر عن يمينه » والله تعالى لا يرضى بأن يكون اسمه حججا بدون الخير أو محضاً للشر ، فنهى عن ذلك . والمعنى الثانى للعرضة ما يعرض للشيء أى ما ينصب ليعرض له الشيء ، يقال فلان عرضة للناس إذا كادوا يقعون فيه . والمعنى على هذا الوجه لا تكثروا الحلف بالله تعالى ، فالذى يجعل الله عرضة لأيمانه هو كالحلاف في قوله تعالى ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ فكثير الحلف كثير المهانة وقرينها ، ولا يكون الحلاف إلا كذبا ، فهو على إهائته لاسم الله تعالى يفوته ما يريد من قبول قوله وتصديقه . وهذا الوجه أظهر من الذى سبقه فالآية الكريمة ترشدنا الى ترك الحلف بالله تعالى إلا عند الحاجة الى ذلك ﴿ أن تبرأوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ والمعنى اذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس فليكفر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والإصلاح ، فلا عذر لأحد في ترك ذلك ، ولا يرضى الله تعالى أن يكون اسمه مانعا منه . وهناك وجه آخر لتعليل النهى ، أى لا تجعلوا الله تعالى معرضا لأيمانكم لأجل البر والتقوى والإصلاح ، فان كثير الحلف لا يكون أهلا لذلك من كونه يكون مهينا غير معظم لله تعالى وعرضة للكذب والحنث وغير موثوق بقوله ، فاني يرضاه الناس مصلحا بينهم ، والمصلح مرب ومؤدب وحاكم مطاع بالاختيار ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى سميع لما تلفظون به من الحلف وغيره ، عليم بما يترتب على كثرة الحلف وبغيره من أعمالكم فعليكم أن تراقبوه

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ فاللغو أن يقع الكلام حشوا غير مقصود به معناه فهو يقول ان هذه الالفاظ التي تسبق الى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول لاتعد أيماننا حقيقية ، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لغو اليمين كقول الانسان لا والله ، بلى والله . وبهذا قال الشافعى . وقال قوم هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك ، وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه . وقيل هو دعاء الرجل على نفسه كقول الانسان أعنى الله بصرى اذا لم أفعل هكذا ، فهذا هو مالا يؤاخذ الله به . قال تعالى ﴿ ويدعو الانسان بالشردعاء بالخير ﴾ . ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ يجعل اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعا لصالح الأعمال ، فان الله لا ينظر الى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ﴿ والله غفور حلیم ﴾ يغفر لعبده ما يلم به بما لا يفسد أخلاقه وأعماله ، حلیم لم يتعجل بالعقوبة على هذا اللثم الذى يضعف العبد عن التوقى منه ، وقيل حلیم حيث لم يعجل المؤاخذة بيمين الجدد ترصا للتوبة

لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

التفسير

﴿ للذين يؤولون من نسائهم تربص أربعة اشهر ﴾ الإيلاء من المرأة أن يحلف

الرجل أنه لا يقربها ، وهو ما يكون من الرجال عند المغاضبة والغیظ ، وفيه امتحان للمرأة وهضم لحقها وإظهار لعدم المبالاة بها ، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضرار ومعصية ، والحلف عليه حلف على ما لا يرضى الله تعالى ، لما فيه من ترك التراحم والتواد بين الزوجين ، وما يترتب على ذلك من الفساد في أنفسهما وفي عيالهما وأقاربهما . والظاهر أن حكم هذا الإيلاء (الحلف) يدخل في معنى الآية على الوجه الأول من الوجهين اللذين أوردناهما ، وهو أنه يجب على المؤلى أن يحث ويكفر عن يمينه ، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثماً في نفسه فقط فيقال حسبه ما يلقي من جزاء إثمه ، بل يكون بأثمه هاضماً لحق امرأته ، ولا يبيح له العدل هذا الهضم والظلم ، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم وهو التربص مدة أربعة أشهر - وقيل إن هذه هي المدة التي لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل ، وهي كافية لتروى الرجل في أمره ورجوعه إلى رشده ﴿فإن قاموا﴾ أي رجعوا إلى نسائهم بأن حثوا في اليقين وقاربوه في أثناء هذه المدة أو أواخرها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة ، لأن الفیئة توبة في حقهم ﴿وان عزموا الطلاق﴾ أي صمموا قصده وعزموا على أن لا يعودوا إلى ملامسة نسائهم ﴿فإن الله سمیع علم﴾ فليراقبوا الله تعالى عالین أنه سمیع لأیلائهم وطلاقهم ، علم بنيتهم ، مجازيهم بأعمالهم . والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر ، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم ، وإن أتمها تعين عليه أحد أمرين : الفیئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية أو الطلاق ، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما ، فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقاً بالفعل ، أى أنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنفه منعاً للضرار ، وقيل ترفع أمرها إلى الحاکم فيطلق عليه ، والمسألة خلافية في هذا ، ولكن لا خلاف في عدم جواز بقائها على عصمته وعدم إباحة مضارتها .

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ المراد بالمطلقات الأزواج اللواتي تحقق فيهن معنى الزوجية وعهدن أن يكن مطلقات وأن يتزوجن بعد الطلاق ، وهن الحرائر ذوات الحيض بقرينة السباق ، ومعنى التربص مدة ثلاثة قروء هو أن لا تتزوج المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء ، وهي جمع قروء ، ويطلق في اللغة على حيض المرأة

وعلى طهرها منه ، والأصل فيه الانتقال من الطهر إلى الحيض ، والمقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق ، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار ، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل ، فكل من القولين موافق

لحكمة الشرع في المسألة ﴿ ولا يحل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ أمر تعالى بأن تعتد المرأة بعد فراق زوجها ليظهر أنها بريئة من الحمل ، ونهى أن تكتم الحمل إذا علمت به ، واختار كثير من المفسرين أن خلق الله في أرحامهن يشمل الولد والحيض ، وهو المروى عن ابن عمر ، فقد تكتم المرأة حيضها لتطيل أجل عدتها وذلك محرم

﴿ إن كنَّ يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ وهذا وعيد شديد ، كأنه يقول إذا كن يعرفن من أنفسهن الإيمان بالله الذي أنزل الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وباليوم الآخر الذي يكون فيه الجزاء بالقسطاس ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات بما أنزل الله تعالى من هذه الأحكام ، وجعل في اتباعها المثوبة والرضوان وفي تركها الشقاء والخسران

﴿ وبعلوتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴾ أى يكون بعل المرأة أى زوجها أحق بها في مدة العدة إذا قصد إصلاح ذات البين وحسن المعاشرة ، أما إذا قصد مضارتها ومنعها من التزوج بعد العدة حتى تكون كالمعلقة - لا يعاشرها معاشره الأزواج بالحسنى ، ولا يمكنها من التزوج - فهو آثم بينه وبين الله تعالى . والطلاق الذى تحل فيه الرجعة قبل انقضاء العدة يسمى طلاقا رجعيا ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾ وهذه الآية قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية

للرجل في جميع الحقوق إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ ، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنها أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابلها - إن لم يكن مثله في شخصه فهو مثله في جنسه - فهما متماثلان في الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل ، أى ان كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه وقلب يحب ما يلائمه ويسره ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذة عبدا يستذله ويستخدمه

في مصالحه ، لاسيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه .

وخاطب الله تعالى النساء بالايمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال ، وجعل لمن عليهم مثل ما جعله لهم عليهم ، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة ، وبابع النبي ﷺ المؤمنات كما بابع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم ، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن يحزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة .

والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحلّ العرف حراما أو يحرم حلالا بما عرف بالنص ، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة .

(وللرجال عليهن درجة) فهو يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء . ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف ، فان نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديبا ، ويجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة كما يجوز مثله لرئيس الأمة أو الخليفة أو السلطان لأجل مصلحة الجماعة ، وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم والتشفي أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذي لا يجوز بحال .

(والله عزيز حكيم) فكأن من لا يرضى بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى في عزة سلطانه ، ومنكرا لحكمته في أحكامه ، فهي تتضمن الوعيد على المخالفة

الطُّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجٍ يَحْسَنُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا

مَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ فَلْيَبْغِينَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضُرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

التفسير

(الطلاق مرتان) الطلاق هو عبارة عن مفارقة المرأة المدخول بها، ويحل الرجل عقدة الزوجية التي تربطه بها، وحده الله الذي حدده للطلاق ولم يخرج به العصمة من أيدي الرجال هو مرتان - أي طلاقان - وعبر بالمرتين ليفيد أن الطلقتين تكون كل منهما مرة تحل بها العصمة ثم ترم، لأنهما يكونان بلفظ واحد - إن شاء الطلاق ثلاثاً بالقول ليس في قدرة الرجل إيقاعه مرة واحدة - ذلك أن الأمور العملية لا تتكرر بتكرار القول المعبر عنها، بل ولا القولية، فمن فسخ العقد مرة وعبر عنها بقوله ثلاثاً، فهو كاذب - ولو صح ذلك لصح أن يقال الواحد ثلاثة والثلاثة واحد - ومن صفه نفسه وجاء بهذا فقد خرج عن السنة واستحق التسايب، فقد ورد في الحديث

الصحيح: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهرهم؟ حتى قام رجل فقال يا رسول الله أقتله؟ ولم يكن طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر إلا واحدة فلما كان عهد عمر تنابح الناس في الطلاق فأجازه عليهم وكان تأديبا لهم على مخالفة ما شرعه الله في الطلاق من كونه يوقع المرة بعد المرة ليرجعوا إلى السنة، وإن المصلحة الآن تقضى بالرجوع إلى الكتاب وما قضت به السنة في عهد النبي ﷺ والخليفة الأول فرادا من مفساد التحليل التي هي من أكبر العار على المسلمين على أنها مخالفة لدينهم

(فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان) فيه وجهان: أحدهما معناه فالواجب عليكم إما امسك للمرأة مع المعاشرة بالمعروف وإما تسريحها بامضاء الطلاق مع الاحسان إليها واتقاء إهانتها والاساءة إليها. والوجه الثاني أنه ليس لكم بعد المرتين إلا أحد الأمرين: الامسك بالمعروف، أو التسريح - أي الطلاق - بالاحسان. ويؤيده حديث أبي رزين الاسدي عند أبي داود وغيره أنه سأل النبي ﷺ سمعت الله يقول (الطلاق مرتان) فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: أو تسريح بإحسان. وعلى هذا يكون قوله (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) في الآية الآتية بمعنى فان اختار الأمر الثاني وهو التسريح فطلقها بانت منه ولا تحل له الخ ماسيا في مع حكمته، لا أنه دليل على طلقة رابعة.

(ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) ويدخل في ذلك المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته على سبيل التملك، بل يجب أن يتمتعها بشيء من ماله (فتموهن وسرحوهن) ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها، وأما إذا كانت هي الراغبة عنه المطالبة لفراقه وخيف أن تتوسل إليه بالنشوة وسوء العشرة - لكرهاتها إياه وسوء خلقها لا لمضارته لها - فلا جناح عليهما حيثنذ فيما يأخذ منها لا طلاق سراحها إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب، ولذلك

قال الله تعالى (إلا أن يخافا أن لا يقيا حدود الله) التي حددها للزوجين من حسن المعاشرة والمائلة في الحقوق مع ولاية الرجل والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية

الأولاد وعدم المضارة (فان خفتم أن لا يقيا حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به) لا جناح عليهما - أي لا حرج عليهما - فيما تعطيه إياه ليخلعها، لأن طلبها الطلاق

إنما يحظر لغير هذا العذر ، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك لأنه برضاها واختيارها في غير ما إكراه منه ولا مضارة . ويتجلى هذا بعرض حالات الزوجين الثلاث على العقل والعدل ، فهما إن أقاما حدود الله تعالى بحسن المعاشرة وأداء كل منهما حق الآخر - إلا ما كان من شذوذ يتسامح فيه عادة فلا خوف ولا فراق ، وإن عرض لها ما يمنع إقامتها فلا بد أن يكون العارض المانع من قبل أحدهما أو كليهما ، فإن كان من قبل الرجل بأن أبغض المرأة أو فتن بغيرها وأحب فراقها بغير ذنب منها أوجب ذلك وخاف أن لا يعاملها بما يجب من المعروف وأن تقابله بمثل ذلك فله أن يسرحها باحسان ، لأن عقدة الزوجية بيده وليس له أن يأخذ بما كان أعطاها شيئا بالنص ، وإن كان طلب الطلاق من قبلها كأن أبغضته بغضا لا تستطيع الصبر عليه والقيام معه بحقوق الزوجية وخافت أن تقع في النشوز ويسرف هو في العقوبة فن العدل أن تعطيه ما كانت أخذت منه باسم الزوجية ليحل عقدها فلا يخسر ماله وزوجته عملا بالرخصة في الآية

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ أي هذه الأوامر والنواهي هي حدود الله

للمعاملة الزوجية فلا تتجاوزوها بالمخالفة ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ الذين صار الظلم وصفا لهم متمكنا من أنفسهم ، والظلم آفة العمران ومهلك الأمم ، والظالم هو الذي فعل ما ليس له فعله ووضع الشيء في غير موضعه

﴿ فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾ أي فان طلقها بعد المرتين طليقة ثالثة فلا يملك مراجعتها بعد ذلك إلا إذا تزوجت بأخر زواجا صحيحا مقصودا حصل به ما يراد بالزواج من الغشيان . وقال المفسرون والفقهاء في حكمة ذلك أنه إذا علم الرجل أن المرأة لا تحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا إذا نكحت زوجا غيره فإنه يرتدع لأنه بما تاباه غيره الرجال وشهامتهم ، لاسيما إذا كان الزوج الآخر عدوا مناظرا للاول ﴿ فان طلقها ﴾ الزوج الثاني ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أي لإثم على الزوج الثاني والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ وحكمته بعد قوله تعالى ﴿ وبعولتن أحق بردهن ﴾ وهي إزالة وهم من يتوهم أن الزوج الاول يكون أحق بها ، وعلى كلا القولين لا بد في التراجع من مراعاة شرطه وهو قوله تعالى ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود

الله ﴿ فلا بد من حسن القصد وسلامة النية من كل من الزوجين لأن الله ما وضع هذه الحدود للزوجين إلا ليصلح حالهما ويستقيم علمهما ، فان كانت هناك نية سوء فان هذا التراجع لقيمة له عند الله تعالى : وإن صح عند القاضي أو المفق عملا بالظاهر ﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ أى يبينها فى كتابه لأهل العلم بفائدتها وما فيها من المصلحة ومن علم المصلحة فى شيء كان مندفعاً بطبعه الى العمل به واقامته على الوجه الذى يتحقق به الفائدة منه ، ومن تزوج بامرأة مطلقة ثلاثاً بقصد إحلالها للأول كان زواجه غير صحيح ، بل هو معصية لعن الشارع فاعلمها ، وهو لا يلعب من فعل فعلاً مشروعاً ، ولا تحمل به المرأة للأول فان عادت اليه كانت حراماً ، ومثال ذلك من طهر الدم بالبول وهو رجس على رجس ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال « ألا أخبركم بالتيس المستعار ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له ، وسئل عليه الصلاة والسلام عن المحلل فقال « لا ، إلا نكاح رغبة ، لا داسة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل ، ثم تذوق العسيلة ، وجاء فى الأثر عن عمر رضى الله عنه أنه قال : لا أرتق بمحلل ولا محال له إلا رجعتما ، فسئل ابنه عن ذلك فقال : كلاهما زان

﴿ وإن طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ هو زمن العدة ، ومعنى « بلغن أجلهن » قارب تمام العدة وهو مبنى على قاعدة ما قارب الشيء يعطى حكمه تجوزاً ، يقول المسافر : بلغنا البلد ، أو وصلنا ، إذا دنا منه وشارفه . وقوله ﴿ فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ معناه فاعزموا أحد الأمرين : امسك المرأة بالمراجعة ، أو اطلاق سبيلها . ولكن ما تختارونه من أحد الأمرين بالمعروف الذى شرع لكم فى آية الطلاق مرتان ﴿ ولا تمسكوهن ضاراً لتعتدوا ﴾ أى ولا تراجعوهن لإرادة مضارتهن وإيذاهن للاعتداء عليهن بتعمد ذلك . والضرار بمعنى الضرر ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ فى الدنيا بأسلوبك طريق الشر والاعتداء التى لا راحة لضمير صاحبها ، ويحمل المرأة وعصبتها أعداء له يناصبونه ويناثونونه ، والعدو القريب أقدر على الإيذاء من العدو البعيد ، ويتغير الناس منه حتى يوشك أن لا يصاهره أحد

وظلها في الأخرى أيضا بما خالف أمر الله وتعرض لسخطه وعقابه ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ والمعنى لا تتهاونوا بحدود الله تعالى التي شرعها لكم في آيه جريا على سنن الجاهلية ، فإن هذا التهاون والاعتداء للحدود - بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى - يعد استهزاماً بآياته

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ ان جمهور المفسرين فسروا نعمة الله هنا بالدين أو الرسالة ، وجعلوا قوله : ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ تفصيلا للنعمة المجملية . ذكرنا سبحانه أولا بنعمته علينا في أنفسنا بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها للمحافظة عليها ، وثانيا بهذا الدين القويم الذي هدانا إلى ذلك وحدد لنا كتابه الحدود ووضع الأحكام ، مبينا حكمها وأسرارها ، كي نجعله إماما وواعظا لنا في تقويم الفطرة على ما مضت به السنة وعززته الحكمة . وذهب بعضهم إلى ان النعمة هنا عامة تشتمل نعم الدنيا والدين .

ثم ختم الآية بقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ بامثال امره ونهييه زيادة في العناية بأمر النساء وصلة الزوجية ، ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، لا يخفى عليه شيء مما يسره العبد أو يعلنه ، فلا يرضيه إلا التزام حدوده والعمل بأحكامه ، على الاخلاص وحسن النية ، حتى يكون ظاهره كباطنه في الخير ، فانه عالم ومطلع عليه ، ولا يرضى منه إلا بتطهير قلبه وإخلاص نيته في معاملة زوجه وسائر المعاملات . وان منشأ فساد البيوت وشقاء المعيشة هو الإعراض عن هدى كتاب الله المبين ، ولا سبيل الى السعادة إلا بالرجوع اليه .

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرْضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ

أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَلَدَةٌ بَوْلَهُمَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتََرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

التفسير

(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة لا قربه كما في الآية التي قبلها . وقال المفسرون إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك بتحکم الرجل بمطلقة فيمنعها أن تتزوج غيره أنفة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها في آخر العدة لأجل العضل ، وقد أثبت الاسلام الولاية للأقربين ، وحرم العضل وهو المنع من الزواج وأن يزوج الولي المرأة بدون إذنها فجمع بين المصلحتين .

(فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) العضل الحبس ، وقيل هو مأخوذ من المنع وقيل هو مأخوذ من الضيق والشدة . وعضل المرأة يعضلها عضلاً إذا منعها من التزويج ظلماً ، كأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن أن

يشكهن ، أى لا تمتنعوهن من الزواج . وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع ﴿ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾ بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجاً بالمعروف ، أى بما لا يكون مستنكراً فى عادة ولا خلق ولا عقل . وقوله « بينهم » يشعر بأن لا نكر فى أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على التزوج بها ، ويحرم حينئذ عضلها أى امتناع الولي أن يزوجها منه إذا كان ذلك التراضى فى الخطبة بالمعروف شرعاً وعادة ، بأن لا يكون هناك محرم ولا شيء يخل بالمرومة ويلحق العار بالمرأة وأهلها . وقد استدل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكفء غير محرم ، كأن تريد الشريفة فى قومها أن تزوج برجل خسيس يلحقها منه الفضاضة ويمس ما لقومها من الشرف والكرامة فيذبغى أن تصرف عنه بالوعظ والنصيحة ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أى ذلك الذى تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحكم والترغيب والترهيب يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال فى الآخرة ﴿ ذلكم أذكى لكم وأطهر ﴾ الزكاه النماء والبركة فى الشيء ، واتباع ما جاء به القرآن فى منع عضل النساء ، وفى معاملتهن بالمعروف فى كل حال مزيد فى نماء متبعيه وصلاح حالهم وأطهر لأعراضهم وأنسابهم وأحفظ لشرفهم وأحسابهم ، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن ، ومفسدة لأخلاقهن ، وسبب لفساد البيوت ، وشقاء الذرارى ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ والله يعلم ما فيه النفع والصلاح وأنتم لا تعلمون لقصور علمكم .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ أى على جميع والدات مطلقات كن أو غير مطلقات أن يرضعن أولادهن مدة حولين كاملين لا زيادة عليهما ، وقد تنقص المدة إذا رأى والدات أن فى ذلك مصلحة ، والأمر موكل إلى اجتهداهما ، ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أى وعلى الوالد كفاية المرضع من طعام وكسوة لتقوم بخدمته كما يجب وترعاه حق الرعاية بالمعروف ، يفسره ما يعقبه وهو قوله تعالى ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ والمعنى أن المطلوب التوسع فى النفقة من السمة أى بحيث لا ينتهى إلى ضيق كما قال

تعالى ﴿لَيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَيَنْفَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ . ﴿لَا تَضَارِ وَالِدَةَ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وهذا أمر يمنع الضرر باعطاء كل ذى حق حقه بالمعروف وهو يتناول تحريم كل ما يأتى من أحد الوالدين بالإضرار بالآخر ، كأن تقصر الأم في تربية الولد البدنية أو النفسية لتغيظ الرجل ، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانه ، والعبارة نهى عام عن المضارة بسبب الولد ، لا تقييد ولا تخصيص بوقت دون وقت أو حال دون حال أو شخص دون شخص ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أى على وارث الصبي وهو قريبه الذى لا يجوز له أن يتزوجه على تقدير أن يكون أحدهما ذكرا والثانى أنثى مثل ما وجب على الأب من الرزق أو الكسوة وأجرة الرضاع . وقيل المراد بالوارث وارث الصبي من الوالدين ، أى إذا مات أحد الوالدين فيجب على الآخر ما كان يجب عليه من إرضاعه والتنفقة عليه ﴿فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ أى للوالدين صاحبي الحق المشترك في الولد والغيرة الصحيحة عليه أن يقطعا قبل هذه المدة أو بعدها إذا اتفق رأيهما على ذلك بعد التشاور فيه بحيث يكونان راضيين غير مضارين فيه ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سألتم ما أنتم بالمعروف﴾ أى وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم المراضع الأجنبية فلا ضير في ذلك إذا أعطيت لهن الأجور المتعارفة لأمثالهن ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ في المحافظة على ما شرع لكم في أجر الأطفال والمراضع فهو يحصى لكم عملكم ويجازيكم عليه ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ يتوفون أى يتوفاهم الله تعالى بأن يقبض أرواحهم ويميتهم ، ويذرون أى يتركون . والمعنى أن عدة النساء اللاتي يموت أزواجهن أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يتعرضن فيها للزواج بزينة ولا خروج من المنزل إلا للأعذار المبيحة لذلك ، ولا يواعدن الرجال بالزواج اهتماما بحقوق الزوجية وتعظيما لشأنها . وقد حرمت السنة الحداد على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام ، وهذا خاص بغير الحوامل فإن الحامل التي يموت

ووجها تنقضى عدتها بوضع الحمل ولو بعد الموت بساعة كما قال تعالى ﴿ وَأُولَاتِ
الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن ﴿ فَاذَا
بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى أتمن عدتهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾
بما كان محظورا عليهن فى العدة من التزين والتعرض للخطاب والخروج من المنزل ،
ويقيد ذلك بالمعروف أى شرعا وادبا عرفيا ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه
شىء من أعمالكم .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ
اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُونَ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا .
وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ
النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرِهِ وَعَلَى
الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

التفسير

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾
أى لا إثم ولا حرج على الرجل أن يعرض للمرأة ويلوح لها فى أثناء عدة الزواج أو
عدة الطلاق البائن بأمر الزواج . وللناس فى كل عصر كنايةات يستعملونها فى مثل
هذا . كذلك لا حرج عليه فيما يكتمه فى نفسه ويعزم عليه من الزواج بها بعد انتهاء
أجل العدة ، لأن مثل هذا مما يتعسر الاحتراز منه . ومن ثم ذكره الله تعالى على

وجه الترخيص بقوله ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ في أنفسكم ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم وتصرون على أن تبوحوا لهن بما انطوت عليه جوارحكم ومن ثم رخص لكم في التعريض دون التصريح ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرا ﴾ أى ولكن لا تواعدوهن على الزواج فى السر لأن هذا مدعاة للفتنة ومظنة للقييل والقال . وذهب جمهور العلماء إلى أن السر هنا يراد به النكاح ، أى لا تتعدوا معهن وعدا صريحا على الزوج بهن ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفا ﴾ أى واعدوهن بقول معروف لا يستجيا منه فى الجهر كذكر حسن العشرة وسعة الصدر للزوجات ونحو ذلك . والخلاصة أن الزوج بالمرأة فى العدة محرم قطعا ، بل الخطبة فيها محرمة والعقد فيها باطل باجماع المسلمين ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ أى أن الله يعلم ما تضمرونه فى قلوبكم على العزم بما لا يجوز فاحذروا أن تعزموا على ما حذر عليكم من قول أو فعل ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ بين تعالى أن للانسان مخرجا بالتوبة اذا هو تعدى شيئا من الحدود وأراد الرجوع الى الله تعالى فانه غفور حلیم لا يعجل بعقوبته بل يمهله ليصلح بأعماله ما أفسده .

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه ، أى لا يلزمكم شيء من المهر وغيره عند طلاقكم للنساء قبل الدخول بهن إلا إذا سميت لهن مهرا ، فان حصل المساس فعليه تمام المسمى فى حال التسمية . أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهرا ، وفى حال الطلاق قبل المسيس مع الفرض عليه نصف ما فرض وسمى .

﴿ ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى وأعطوا المطلقات شيئا من مالكم يتمتعن به على حسب حالكم فى الثروة والغنى ، إلا أن الشارع حسب بسط الكف والسخاء المطلقة تطيبها لنفسها وعوضا عما لحقها من الضرر ﴿ متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ أى وجعل هذه المتعة حقا واجبا على من يريد الاحسان فى معاملة المرأة بما يتعارفه الناس بينهم .

أى وإن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمي له مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع الى الزوج النصف الثاني (إلا أن يعفون) أى النساء المطلقات (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) وهو الولي مطلقا وعليه جماعة من المفسرين ، وقال كثير منهم : إن الذى بيده عقدة النكاح الزوج الذى بيده حلها ، ويستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى وإن كان الواجب المحتم فيه نصفه ، فذلك تمهيد لقوله (وإن تعفوا أقرب للتقوى) والخطاب على هذا خاص بالرجال ، وفيه وجه آخر أنه عام للنساء والرجال ، أى من عفا فهو المتق (ولا تنسوا الفضل بينكم) فسروا الفضل بالتفضل والاحسان ، وجعلوه للترغيب فى العفو . وقيل المراد به المودة والصلة ، أى ينبغى لمن تزوج من بيت ثم طلق أن لا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم (إن الله بما تعملون بصير) يرى عملكم فلا يخفى عليه شيء من أمركم فيجزىكم به الجزاء الاوفى على احسانكم أو قصوركم

(حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) أى اجتهدوا فى حفظها والمداومة عليها وحفظ الصلاة المرة بعد المرة على الاستمرار عبارة عن الإتيان بها كل مرة كاملة الشرائط والأركان العملية كاملة الآداب والمعانى القلبية . فالشيء الذى يتعاهد بالحفظ دائما هو الذى لا يلحقه النقص ، وإلا لم يكن محفوظا دائما والصلوة الوسطى هى احدى الخمس ، وقد اختلفوا فى أى الصلوات أفضل ، وأثبتها المتوسطة ، وأصحها رواية مذهب اليه الجمهور من كونها صلاة العصر

(وقوموا لله قانتين) أى قوموا ملتزمين الخشية لله تعالى واستشعار هيئته وعظمته ، وهذا يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب فى الصلاة وخشوعه ، لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة . والمحافظة على الصلاة آية الايمان الكبرى ، والشرط فى صحة الإسلام والاخوة فى الدين وحفظ الحقوق . وقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يقول «العهد بيننا وبينكم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . وأثر الصلاة فى النفس اجتناب الفواحش مظهر منها وما بطن ، والامتنال

لأوامر الله تعالى ، فلا يرى الانسان حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره ﴿ فان خفتم
 فرجالا او ركباناً ﴾ أى إن خفتم أى ضُر من قيامكم قانتين لله فصلوا كيفما تيسر
 لكم راجلين أو راكبين ، فاذا تعذر بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية ،
 وهى الإقبال على الله مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع ، ويكون ذلك
 حين قتال العدو أو الفرار من أسد أو سيل أو نحو ذلك ، فيصلى المكلف راجلاً أو
 راكباً إن حان وقت الصلاة ، لا يمنعه من ذلك السكر والفر والطعن والضرب ، ويأتى
 من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطيع ، ويومئ بالركوع والسجود ولا يلزم التوجه
 للقبلة ﴿ فاذا أمنتُم فاذكروا الله كما عليكم ما لم تكونوا تعملون ﴾ أى فان زال خوفكم
 واطمأنتم فاذكروا الله لأنه عليكم كيف تعبدونه وتصلون له حين الأمن وحين الخوف ،
 وذلك ما لم تكونوا عالمين به من قبل

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول
 غير إخراج ﴾ أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن
 بوصية ، وليتعهن متاعاً الى آخر الحول ، غير مخرجات من بيتهن ، فلا يمنعن
 السكنى فيها والمراد أن على الأزواج أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم بشيء من
 المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التى
 يتذكرن أزواجهن فيها . وهذا أمر ندى واستحسان لأمر وجوب وإلزام تهاون فيه
 الناس كما تهاونوا فى كثير من المندوبات ﴿ فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى
 أنفسهن من معروف ﴾ أى فان خرجن من تلقاء أنفسهن فلا لائم عليكم أيها المخاطبون
 بالوصية فيما فعلن فى أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة ، كالتعرض للخطاب بعد العدة
 أو الزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنعه منه
 المكلف ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ،
 حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللبطاقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾
 أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب اذا كانت غير مدخول بها ، وعلى
 سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف

عن عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطيباً للقلوب وإزالة للضغائن ﴿ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى مضت سنته تعالى بأن يبين لكم آياته فى أحكام دينه مثل هذا النحو من البيان ، وهو أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة التى تعين على العمل به ليعدكم بذلك لكمال العقل بتحرى الاستفادة من كل عمل فعليكم أن تعقلوا ما تخاطبون به لتكونوا على بصيرة من دينكم ، عارفين بانطباق أحكامه على مصالحكم بما فيها من تركية نفوسكم والتأليف بين قلوبكم ، فتكونوا حقيقيين بإقامتها والمحافظة عليها

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون (٢٤٥)

التفسير

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ المعنى : ألم يتركه عليك إلى حال هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لا من قلتهم ، فقد كانوا ألوفا أى كثيرين ، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقع من الموت ، وما هو إلا سبب الموت بما يمكن من رقاب أهله . ولما خرجوا فارين ﴿ قال لهم الله موتوا ﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع ، أى قضت سنته فى خلقه بأن يموتوا

بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أبقائهم بالفرار، ففتك بهم، وقتل أكثرهم، ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه والاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك ﴿ثم أحياهم﴾ وإنما يكون الأحياء بعد الموت. والكلام في القوم لاني أفراد لهم خصوصية، لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تجنب فلا تدافع العادين عليها، فعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لاتعد أمة، بأن تفرق شملها وذعبت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين في غمارهم لاجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم. ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم ومطهراً لنفوسهم بما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتهم، فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية، فاعتزوا وكثروا، إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال، فهذا معنى حياة الأمم وموتها: يموت قوم منهم باحتمال الظلم ويذل الآخرون حتى كأنهم أموات، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية من حفظ سياج الوحدة وحماية البيضة بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم، فيعتبر الباقون فينهضون إلى تدارك ما فات والاستعداد لما هو آت، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعون عنهم. قال على كرم الله وجهه إن بقية السيف هي الباقية التي يحيا بها الميتون، فالموت والأحياء واقعان على القوم في مجموعهم على ما عهدنا في أسلوب القرآن ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ والمراد بالفضل هنا الفضل العام وهو أنه تعالى جعل إمامة الناس بما يسلط على الأمة من الأعداء يتكلمون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعى والضرورة قاضية ببناء، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فتكون حياة جديدة للأمة. تفسد الأخلاق في الأمم فتسوء الأعمال فيسلط الله على فاسدى الأخلاق التكببات ليتأدب الباقي منهم فيجتهدوا في إزالة الفساد وإزالة الصلاح، ويكون ما هلك من الأمة بمثابة العضو الفاسد المصاب بالغرغرينا يتره الطبيب ليسلم الجسد كله ومن لا يقبل هذا التأديب الإلهي فإن عدل الله في الأرض يحقه منها ﴿ومال الظالمين من أنصار﴾ فهذه سنة من سنن الاجتماع بينها القرآن وكان الناس في

غفلة عنها ولهذا قال ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أى لا يقومون بحقوق هذه النعمة ولا يستفيدون من بيان هذه السنة ، أى هذا شأن أكثر الناس فى غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم ، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون . بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث السكون حتى بما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط فى بعض الشئون ، واعلموا أن الجبن عن مدافعة الأعداء أو تسليم الدار بالهزيمة والفرار هو الموت المخوف بالخزى والعار ، وأن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة المليئة المحفوظة من عدوان المعتدين ، فلا تقصروا فى حماية جامعتكم فى الملة والدين والوطن

﴿وقاتلو فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ والقتال فى سبيل الله هو القتال لاعلاء كلمته وتأمين دينه ونشر دعوته والدفاع عن حربه كي لا يغلبوا على حقهم ولا يصدوا عن إظهار أمرهم ، فهو أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة (الوطن) إذا هم الطامع باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا وأراد العدو الباغى إزلالنا والعدوان على استقلالنا ، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا فى ديننا ، فهذا الأمر مطلق كإنه أمر لنا بأن تتحلى بحمية الشجاعة وتسربل بسراويل القوة والعزة لتكون حقوقنا محفوظة وحرمتنا مصونة لا تؤخذ من جانب ديننا ولا نقتال من جهة دنيانا ، بل نبقى أعزاء الجانبين جديرين بسعادة الدارين . ألم تر أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم وذكرنا بسنته فى موتهم لم يذكر أنهم قوتلوا أو قتلوا لأجل الدين ، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق كله جهاد فى سبيل الله .

وذكرنا الله تعالى بعد هذا الأمر بأنه سميع عليم لينبهنا على مراقبته فيما عسى أن نتعذر به عن أنفسنا فى تقصيرها عن امتثال هذا الأمر فى وقته ، وأخذ الآهبة له قبل الاضطرار إليه . أمرنا أن نعلم أنه سميع لأقوال الجبناء فى اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نعمل ، مافى اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفه ، ايس لنا من الأمر شئ ، لو كان لنا من الأمر شئ . ما قعدنا ههنا فهذه الألفاظ فى هذا المقام منفاخ الجبن وعلل الخوف والحزن ، فهى عند أهلها تعللات واعتذار ، وعند الله ذنوب وأوزار . وما كان منها حقاً فى نفسه فهو من الحق الذى أريد به الباطل ، وأنه عليم بما يأتية مرضى القلوب وضعفاء الايمان من الحيل والمراوغة والفرار من الاستعداد والمدافعة ، فاذا علمنا

هذا وحاسبنا به أنفسنا عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه والمتعل بفعاله مخادع لربه ولنفسه ولقومه .

« وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري إذ يصدق ما يعتاده من التوهم ، وهذه شئنة الخذولين الذين ضربت عليهم الذلة وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوسوس مالا تعمل الحقائق ، وقد أئذنا الله تعالى أن نكون مثلهم بتذكيرنا بأنه سميع عليم ، لا يتخادع ولا يخفى عليه شيء . »

« ان هذا التذكير كان بالامر بالعلم لا بمجرد القول أو التسليم ، فمن علم علما صحيحا أن الله سميع لما يقول عليم بما يفعل حاسب نفسه وناقشها ، ومن حاسب نفسه وناقشها تجلى له كل أن من تقصيرها ما يحمله على التسمير لتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت فمن تراه مشمرا فاعلم أنه عالم ، ومن تراه مقصرا فاعلم أنه مغرور آثم . » (١)

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) إن الحث على الاتفاق في هذه الآية يراد به الاتفاق في المصلحة العامة ، وهو ينطبق على سائرهما ، فإن القتال لحمايه الدين وتأمين دعوته والدفاع عن الأنفس والبلاد هو من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ، فالانفاق يصح فيه أن يسمى إقراضا لله تعالى باعتبار إقامة سننه على وجه الحق الذي يرضيه جل شأنه ، أما كون القرض (حسنا) فالمراد به ما حل محله ووافق المصلحة ، لا ما وضع موضع الفخفة وقصد به الرياء والسمعة . نعم إن ما أنفق في المصالح العامة وإن أريد به الشهرة ولكنه لا يكون دالا على إيمان المنفق وثقته بربه وابتغاء مرضاته ، ولا على حب الخير لذاته لارتقاء نفسه وعلو همته بما استفاد من فضائل الدين وحسن التهذيب ، ويكون كل جزائه السمعة الحسنة ، فهجرته إلى ما هاجر اليه (فيضاعفه له

أضعافا كثيرة) فهي تكون في الدنيا والآخرة ، وذلك أن المنفق لأعلاء كلمة الله ولتعزير الأمة والدفاع عن الحق والحقيقة يكون مدافعا عن نفسه ومعززا لها وحافظا لحقوقها ، لأن اعتداء المعتدين على الأمة إنما يكون بالاعتداء على أفرادها ، فضعف الأمة وإذلالها وضياع حقوقها لا يتحقق إلا بما يقع على أفرادها وهو منهم

والبلاء يكون عاما ، ثم الأمة التي يبذل أغنيائها المال وتقوم بفرصة التعاون على الأعمال فيكفل غنيها فقيرها ويحمي قويا ضعيفا تنسج دائرة مصالحها ومنافعها ، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها وتدوم على أفرادها النعمة ما استقاموا على البذل والتعاون في المصالح العامة ، ثم انهم يكونون بذلك مستحقين لسعادة الآخرة ومضاعفة الثواب فيها . ومن التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب قوله : والقرض الحسن المجاهدة والانفاق في سبيل الله ، وهو إجمال لما تقدم تفصيله (والله يقبض ويبسط) أي يقبض الرزق عن بعض الناس فيجهلون طرقة التي هي سنن الله تعالى فيه ويضعفون في سلوكها ، ويبسط لمن يشاء بما يهديهم إلى تلك السنن ويفتح لهم الابواب ويسهل لهم الأسباب (وإليه ترجعون) الرجوع إلى الله تعالى رجوع في هذا العالم إلى سنته الحكيمة ونظام خليقته الثابت ، بأن يعرف الناس أن القنى بعمل العامل وتوفيق الله وتسخيره ، وأن البذل من فضل الله يأتي بالمنافع الخاصة للبازل وبالمنافع العامة لقومه الذين يعتز بهم ويسعد بسعادتهم ، وأن تركه للنفقة مفاسد ومضار عامة وحاجته للآدم والأفراد ، وأن الانسان لا يستقل بعمله مهما أوتي من راحة عقل ، بل له حاجة إلى معونة الله وتوفيقه وتسخيره ورجوع في الآخرة حين تظهر للمرء نتائج أعماله وآثار أفعاله .

مقدمة في المعنى العام

هذه القصة المفصلة فيها بيان لما في تلك القصة المجمل . فر أولئك من ديارهم فأتوا بذهاب استقلالهم واستيلاء العدو على ديارهم فالآية هناك صريحة في موتهم هذا المسبب عن خروجهم فارين بجنبهم ، ولم تصرح لسبب إحيائهم الذي تراخت مدته ، ولكن عاجاه بعدها من الأمر بالقتال وبذل المال الذي يضاعفه الله تعالى أضعافا كثيرة قد هدانا إلى سنته في حياة الأمم ، وجملت هذه القصة الاسرائيلية تمثل العبرة فيه ، وتفصيل كيفية احتياج الناس إليه ، إذ بينت أن هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم ، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم ، واشتد الشعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلال ، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد ، ولكن الضعف كان قد بلغ من نفوسهم مبلغا لم تنفع معه تلك العدة فتولوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها ، وألهم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا .

قال تعالى ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أَلَمْ يَنْتَه إِلَى عَلَيْكَ قِصَّةُ الْمَلَأِ (الْقَوْمِ يَجْتَمِعُونَ لِلتَّشَاوُرِ ، وَاسْمُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَمْلُتُونَ الْعِيُونَ رَوَاهُ وَالْقُلُوبُ هَيْبَةً) وَقَالَ غَيْرُهُم : الْمَلَأُ الْأَشْرَافُ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ اسْمٌ لِلْجَمَاعَةِ ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا النَّبِيُّ لَمْ يَسْمَهُ الْقُرْآنُ ، وَقَالَ أَحَدُ الْمَفْسِرِينَ هُوَ شَمُوِيلُ - وَهُوَ مَعْرَبُ صَمُوِيلَ - وَبَعَثَ الْمَلِكُ عِبْرَارَةً عَنْ إِقَامَتِهِ وَتَوَلِيَّتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ وَالْمَعْنَى أَتَوَقَّعُ مِنْكُمْ الْجَبْنَ عَنْ الْقِتَالِ إِنْ هُوَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ ، فَعَسَى لِلْمُقَارَبَةِ أَوْ التَّوَقُّعِ ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أَيْ أَيْ دَاعٍ لَنَا يَدْعُونَا أَنْ لَا نَقَاتِلَ وَقَدْ وَجَدَ سَبَبَ الْقِتَالِ وَهُوَ إِخْرَاجُنَا مِنْ دِيَارِنَا بِاجْتِلَاءِ الْعَدُوِّ إِيَّانَا عَنْهَا وَإِفْرَادِنَا عَنْ أَوْلَادِنَا بِسَبِيهِ إِيَّاهُمْ وَاسْتِعْبَادِهِ لَهُمْ ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أَيْ فَلَمَّا فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ أَعْرَضُوا وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْجِهَادِ ، وَضَيَّعُوا أَمْرَ اللَّهِ بَعْدَ مَشَاهِدَةِ الْعَدُوِّ وَشَوْكَتِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَظْلُمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْتَهُمْ يَتْرَكَ الْجِهَادَ دِفَاعًا عَنْهَا وَحِفْظًا لِحَقِّهَا فَهُوَ يَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ ، فَيَكُونُونَ فِي الدُّنْيَا أَذْلَاءَ مُسْتَضْعَفِينَ ، وَفِي الْآخِرَةِ أَشْقِيَاءَ مُعَذِّبِينَ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسَّعَ عَلَيْهِ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَمَاتَهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحَكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

التفسير

(وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) قال المفسرون في استنكارهم لملك طالوت وزعمهم أنهم أحق بالملك منه إنه لم يكن من بيت الملك ، ولا من بيت النبوة . والعبرة في العبارة هي ما دلت عليه من طباع الناس ، وهي أنهم يرون أن الملك لا بد أن يكون وارثا للملك ، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، وذا مال عظيم يدير به الملك . والسبب في هذا أنهم اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية ، فبين الله تعالى فيما حكاه عن نبيه في أولئك القوم أنهم مخطئون في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال بقوله (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) ومعنى

اصطفاه : فضله واختاره عليكم ، بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للبلك . ولا ينافى هذا كون اختياره كان بوحي من الله ، لأن هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار وهي :

١ — الاستعداد الفطرى

ب — السعة فى العلم الذى يكون به التدبير

ج — بسطة الجسم المعبر عن صحته وكمال قواه ، المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة : العقل السليم فى الجسم السليم ،

د — توفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ما عبر عنه بقوله : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ بمقتضى سنته إنما يكون بجملة مستعدا للبلك فى نفسه وبتوفيق الأسباب ليعيه فى ذلك ، أى هو الجمع بين أمرين : أحدهما فى نفس الملك ، والآخر فى حال الأمة التى يكون فيها . وفى الأحاديث المشهورة على السنة العامة : كما تكونون يولى عليكم ،

﴿ والله واسع عليم ﴾ واسع التصرف والقدرة إذا شاء شيئا اقتضته حكمته فى نظام الخليفة فانه يقع لا محالة ، عليم بوجوه الأسباب فلا يضع سنته فى استحقاق الملك عبثا ، ولا يترك أمر عباده فى اجتماعهم سدى

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أى وقال لهم نبيهم إن من علامة عناية الله بطلوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن به قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن دينى خاص) وفيه بقية من رضا الألواح (فتاتهم) وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهرون — وقد كان هذا التابوت عند أهل فلسطين أخذوه منهم بعد حرب انتصروا فيه عليهم ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربة) من بعض بلاد فلسطين إلى بنى اسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بالهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق —

﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن في مجيء التابوت علامة على عناية الله بكم واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وبشكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تنفروا عنه

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ فى الكلام حذف لدلالة ما بقى عليه ، وهو فأنهم التابوت بالصفة التى وعدوا بها فصدقوا وانقادوا لطالوت . فلما فصل طالوت أى خرج من مكانه وقطع الطريق بالجنود أى العساكر (قال) يعنى طالوت : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أخبر طالوت جنوده بأنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله ، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه فى أمر القتال ، إلا أن يكون ما يشربه قليلا فان الغرفة تؤخذ باليد مما يتساح فيه ولا يراه مانعا من الاتحاد به والاعتصام بحبله ، ومن لم يطعمه أى يذقه بالمرّة فانه منه وهو الذى يركن إليه ويوثق به تمام الثقة ويعول على جهاده ﴿ فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ أى شق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق فى الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ، والعدد القليل من أهل العزائم يفعل مالا يفعله الكثير من ذوى المآثم ، كما يعلم من قوله تعالى ﴿ فلما جاوزوه ﴾ والذين آمنوا معه ﴾ أى فلما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه ﴿ قالوا ﴾ أى الجنود وهم أولئك الذين شربوا منه إلا قليلا منهم ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ وجالوت هو أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين وعربّه النصارى « جليات » ، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ أى قال الذين يستيقنون بقاء ربهم بالبعث ، ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيرا ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، والله مع الصابرين ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه ، وفى هذا حصص على الصبر المؤدى إلى الغلبة والثقة بالله عند

الشدائد . ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لاعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده ، وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والعدد لجأوا جميعا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم الصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملا نفوسهم ثقة واطمئنانا وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين تعلقت قلوبهم بالآلهام ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ الذى أعطاهم ما سألوا ببركة التوجه إليه ، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التى لا تغالب ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ قالوا إن جالوت جبار فلسطين طلب البراز فلم يجرؤ أحد من بنى اسرائيل على مبارزته حتى أن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، ثم برز له داود بن يسسى وكان غلاما يرعى الغنم ، ولم يقبل أن يلبس درعا ولا أن يحمل سلاحا ، بل حمل مقلعا وحجارته ، فرماه داود بمقلعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت ، فعرف داود ، وكان له الشأن الذى ورث به ملك بنى اسرائيل كما قال تعالى ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعليه بما يشاء ﴾ فقد ورث ملك بنى اسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع وعلوم الدين وفصل الخصومات ، كما قال تعالى ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ أى ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد فى الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والافساد فى الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم ، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبيعاة المعتدين ، وقد سمي هذا دفاعا ، باعتبار أنه منه سبحانه إذ كان سنة من سنته فى الاجتماع البشرى ، وسمى دفاعا ، فى قول آخر باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاومه

﴿تلك آيات الله﴾ يشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم ، وقصة بني اسرائيل
التي بعدها ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ فيه تعريض بأن ما يقوله بنو اسرائيل مخالف
لهذا فهو باطل ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئا من هذا
القصص .

الجزء الثالث

من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَمَا آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا قَتَلْنَا الَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَنُفِئَهُمْ مِنْ أَمْنٍ وَهُمْ مَنْ
كَفَرُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا قَتَلْتُمُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْفَقُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

التفسير

(تلك الرسل) أى المشار إليهم بقوله (وانك لمن المرسلين) ، (فضلنا بعضهم على بعض) أى امتاز بعضهم على بعض بما شاء الله من الخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأعمهم . وقد بين هذا التفضيل فى بعض المفضلين فقال (منهم من كلم الله) وهذا التكليم كان من الله تعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى فى سورة الاعراف (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وهذا ما يدل على أن موسى قد خص بتكليم لم يكن لكل نبي مرسل ، وان كان وحى الله تعالى عاما لكل الرسل ، ويطلق عليه كلام الله تعالى . قال تعالى فى سورة الشورى (وما كان

لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مما يشاء انه على حكيم) ونحن نؤمن بكلام الله تعالى ووحيه مع تزييه في ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه (ورفع بعضهم درجات) ذهب جماهير المفسرين إلى أن المراد به نبينا محمد ﷺ ، وفي هذه الدرجات ما هو خصوصية في نفسه الشريفة ، ومنها ما هو في كتابه وشرائعه ، ومنها ما هو في أمته ، وآيات القرآن تنفي بذلك كقوله تعالى (ولأنك لعلى خلق عظيم) ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ، (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

(وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) البينات هي ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل ، وروح القدس هو روح الوحي الذي يؤيد الله به رسله ، وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والافراط (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) جعل الله تعالى هداية الدين له أمراً اختيارياً لا وصفا اضطرارياً ، فهي معروضة أمامه يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون ، هذه سنته تعالى في الإنسان وهي منشأ الاختلاف ، فهو يقول : لو شاء الله أن لا يجعل سنته في تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا بأن يجعله من إلهاماتهم العامة وشعورهم الفطري كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعة لكانوا في هدايته سواء يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتلوا ، ولكنه خلق الإنسان على غير ما خلق عليه الحيوان ، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن بإيماناً صحيحاً فأخذ الدين على وجهه إذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من فهمه مقلوباً وحكم هواه في تأويله فكان كافراً به في الحقيقة ، وكان ذلك سبب التنازع والتقاتل (ولو شاء الله ما اقتتلوا) أي ولو شاء الله أن يعذر بعض المختلفين بعضاً ، ويقتصر كل فريق على الانتصار لرايه بالحجة ، لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه ، ولكنه أودع في غرائزهم النضال عن مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول أو فعل ، فمنهم من يقارع الحجة بالحجة ، ومنهم

القوى الذى يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف فى رأى والمصالح مع عدم العفو مؤديا إلى الاقتتال لا محالة ﴿واكن الله يفعل ما يريد﴾ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ والمعنى أنفقوا فإن الانفاق فى سبيل الخير والبر — وهى سبيل الله — هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى إلاشفعة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداء (وهو معنى البيع) فيفقدوا منه أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها خليل شيئا من أوزار خليله أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فى إرادة الله تعالى فيحولها من مجازاة الكافر بالنعمة الباخل بالصدقة المستحق للبقت بالعقوبة بتدنيس نفسه وتدنيسها فى الدنيا ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ والمراد بالكافرين الكافرون بالنعمة لقرينة السياق ، وهم الذين لا ينفقون فى سبيل البر والخير ، وقد قصر الظلم عليهم لأنهم ظلموا أنفسهم ودنسوها برذيلة البخل ومنع الحق ، وظلموا الفقراء بمنعهم عما فرض الله لهم من الزكاة والصدقة ، وظلموا الأمة باهمال مصالحها المعبر عنه بسبيل الله ، ولا شئ أسرع فى إهلاك الأمة من فشو البخل ومنع الحق أفرادها

الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم (٢٥٥)

التفكير

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) هذه الآية تثبت له تعالى وحدانية الألوهية مع الحياة التى تشعر بكل الوجود وكمال الوجود وبافاضة الحياة على الأحياء ، والقيومية وهى كونه قائما بنفسه ثابتا بذاته وكون غيره قائما به - أى ثابتا وموجودا بإيجاده إياه وحفظه لوجوده بامداده بما يحفظ به الوجود من الأسباب . ومعنى « القيوم » هو القائم على كل شئ . وقالوا هو القائم بنفسه مطلقا لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شئ ولا دوام وجوده إلا به . (لا تأخذه سنة ولا نوم) السنة النعاس وهو فتور يتقدم النوم ، والنوم معروف لكل أحد ، والجملة تأكيد لما قبلها مقرر للمعنى الحياة والقيومية على أكمل وجه ، فإن من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة وضعيف القيام بنفسه أو على غيره (له ما فى السموات وما فى الأرض) فهم ملوك وعبيده ، مقهورون لسنة ، خاضعون لمشيئته ، وهو وحده المصرف لشئونهم والحافظ لوجودهم (من ذا الذى يشفع عنده) منهم فيحمله على ترك مقتضى ما قضت به سنته وقضت به حكمته ووعدت به شريعته من تعذيب من دسئ نفسه بالعقائد الباطلة ودنسها بالأخلاق السافلة ، وأفسد فى الأرض وأعرض عن السنة والفرض . من ذا الذى يقدم على هذا من عبيده (إلا باذنه) والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الاستثناء نصا فى أن الأذن سيقع وإنما هو كقوله (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه) فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والمملك فى ذلك اليوم (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما قبلهم ، وما بعدهم أو بالعكس ، أو أمور الدنيا التى خلقوها وأمور الآخرة التى يستقبلونها ، وما يدركون وما يحجبون (ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء) أى إن أحدا من خلقه لا يحيط بما يعلمه الله إلا إذا شاء الله . والشفاعة تتوقف على إذنه تعالى ، وأنه لا يعلم منه إلا بوحى منه ، وإنما يعرف إذنه تعالى بما حددته من الأحكام فى كتابه ، فمن بين أنه مستحق لعقابه فلا يجرؤ أحد أن يدعوله بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه

على هفوات ألم بها لم تحول وجهه عن الله تعالى إلى الباطل والفساد ، ولم تدس روحه حتى تسترسل في الخطايا ، فهو واصل إليه على ما وعد به في كتابه وما تفضل به على عباده ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الالهي ، أي أن علمه تعالى يحيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وقيل إنه تمثيل للملك الله تعالى ، وقيل كرسيه قدرته التي يمسك بها السموات والأرض ، وقيل هو عبارة عن الملك ، وهذا من عالم الغيب لا يعرف حقيقته إلا الله تؤمن به ولا تبحث عنه

﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ولا يشق عليه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ أي وهو المتعالى عن الانداد والأشياء ، العظيم على كل شيء سواه ، فهو المنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعمله بحقيقة أحوالهم أو يستنزله عن يريد مجازاتهم على أعمالهم

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمت إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطَّاغُوت يخرجونهم من النور إلى الظلمت أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧)

التفسير

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ كان معهودا عند بعض الملل — لا سيما النصراني — الدخول في دينهم بالإكراه ، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين ، لأن الإيمان

وهو أصل الدين وجوهره عبارة عن إذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الإذعان بالالزام والاكراه ، وإنما يكون بالبيان والبرهان ، ولذلك قال تعالى بعد نفى الاكراه (قد تبين الرشد من الغي) أى قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور ، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غي وضلال (من يكفر بالطاغوت) وهو كل ما تكون عبادته والايمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ورئيس يقلده وهوى يتبع (ويؤمن بالله) فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه ، يرجوه ويخشاه لذاته وبما سنه من الأسباب والسنن في عبادته (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة وأثبت أسباب الحياة . والاستمسك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى وأحكمها قتلا لا يقع ولا يتفك (والله سميع) لأقوال مدعى الكفر بالطاغوت والايمان بالله بألسنتهم (عليم) بما تكنه قلوبهم بما يصدق ذلك أو يكذبه فهو يحجزهم وصفهم

(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) المولى من الولى وهو القريب من غير فصل ، وهو الذى يكون أولى بالغير من غيره وأحق بتدبيره . والله تعالى ولى المؤمنين على ثلاثة أوجه أحدها أنه يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة والبرهان لهم في هدايتهم كقوله (والذين اهتدوا زادهم الله هدى) وثانيها انه وليهم فى نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وثالثها أنه وليهم بتولاهم بالمشورة على الطاعة والمجازاة على الأعمال الصالحة . والمعنى هو أن المؤمن لا ولى له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، ومتى كان كذلك فانه يهتدى إلى استعمال الهدايات التى وهبها الله له على وجهها وهى الحواس والعقل والدين ، فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلماتها فيخرجون منها بسهولة (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أى لاسلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة

السائقة إلى الطغيان ، فان كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق ينبههم إلى فساد ما هم فيه - بادرت إلى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، وان كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها وزعماء حزبها لا يقصرون في تنميق هذه الشبهات ببيان أن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة وبما ينبغى لأربابها من التعظيم ، وهو لا شك عبادة وإن سموه توسلاً أو استشفاعاً أو غير ذلك من الاسماء أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لأن النار هي الدار التي تليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق والرشاد مكان في نفوسهم يصلها بدار النور والرضوان ، فما يكون عليه الانسان في الآخرة هو عاقبة ما كانت عليه نفسه في الدنيا - والخوض في حقيقة تلك الدار التي سميت بالنار غير جائز ، وإنما نعتقد من مجموع النصوص أنها دار شقاء يعذب المرء فيها بما يقدم من عمله السيئ ، ونكل الحقيقة إلى الله عز وجل لأنها من عالم الغيب

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ مَاتَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
(٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهُا لَحْمًا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

أَرْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ خُذْ
 أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ
 يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

التفسير

لما بين سبحانه أنه ولي المؤمنين وأن الكفار لا ولي لهم سوى الطاغوت تسلية
 لنبيه ﷺ قص عليه بعده قصة ابراهيم ونمرود فقال (ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم
 في ربه) للتعجيب من هذه الحاجة وغرور صاحبها وغيابته مع الانكار . أى ألم
 ينته الى علمك ورؤيتك الى الذي حاج أى خاصم وجادل ابراهيم في ربه أى في رب
 ابراهيم الذى يدعو الى توحيدهِ وعبادته . وقوله (أن آتاه الله الملك) معناه أن
 الذى حمله على هذه الحاجة هو إيتاؤه الملك ، فكان منشأ إسرافه في غروره وسبب
 كبريائه وإعجابه بقدرته (إذ قال ابراهيم ربى الذى يحى ويميت) وكأنه كان
 قد سأل عن ربه الذى يدعو الى عبادته وقد كسر الأصنام التى تعبد من دونه وسفه
 أحلام عابديها لأجله ، فأجاب بهذا الجواب ، فأنكره الملك الطاغية الذى حكى عنده
 ادعاء الألوهية لنفسه (قال أنا احى وأميت) أحى من أحكم عليه بالاعدام بالعفو
 عنه ، وأميت من شئت بالأمر بقتله . ولما رأى ابراهيم أنه لم يفهم مراده بالذى يحى
 ويميت وأنه مصدر التكوين الذى يحيا كل حى بأحيائه ويموت بقطع امداده له بالحياة
 (قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) والمعنى أن ربى الذى
 يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذى يطلع الشمس من المشرق ، أى هو
 المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التى نشاهدها عليها ، فان كنت
 تفعل كما يفعل فقير لنا نظام طلوع الشمس وأت بها من الجهة المقابلة التى جرت سنته

تعالى بظهورها منها ﴿ فبهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أى أدركته الحيرة وأخذه الحقد من
نصوع الحجة فلم يجر جوابا ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ المراد بالظلم فى هذا
المقام الاعراض عن النور الإلهى وهو نور العقل الذى يسير به المرء فى طريق الدين ،
فمن ظلم نفسه باطفاء هذا المصباح فسار يتخبط فى الظلمات فانه لا يهتدى فى سيره إلى
الصراط المستقيم الموصل الى السعادة ، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية ﴿ أو ﴾
رأيت ﴿ كالذى مر على قرية ﴾ أى مثل الذى مر على قرية ، ويعبر عن القرية
بالأمة والجماعة أى أو هل رأيت كالذى مر ، ومعناه ان شئت فانظر فى قصة الذى
حاج ابراهيم ، وإن شئت فانظر الى قصة الذى مر على قرية ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾
معناه وهى خالية من السكان واقعة على عروشها . أى ساقطة على عروشها أى خراب
﴿ قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ يتمجب من ذلك ويعد غريبا لا يكاد يقع
﴿ فأما الله مئة عام ثمبعثه ﴾ أى فجعله الله فاقد الحس والحركة دون أن تفارق
الروح البدن ثم أعاده إلى ما كان عليه أولا ﴿ قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض
يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى قال له بعد
مبعثه كم لبثت أى كم مكثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم بناء على ظنه وتخمينه ،
فقال له : ما لبثت هذا المقدار بل لبثت مدة متطاولة ، ومع ذلك لم يلحق طعامك
وشرابك تغير ما مما تجرى العادة بمثله حين مرور الزمان وتطول الأعوام ﴿ وانظر
إلى حمراك ﴾ كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله ليستبين لك طول لبثك وتطمئن
نفسك ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أى نريك آياتنا فى نفسك وطعامك وشرابك
ولنجعلك آية للناس برهاننا واضحنا على البعث ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم
نكسوها لحما ﴾ أى أن القادر على أن يكسو هذه العظام لحما ويمدها بالحياة ويجعلها
أصلا لجسم حى ، قادر على أن يعيد الخصب والعمران للقرية . وكذلك القادر على
الاحياء بعد لبث مائة عام ، قادر على الاحياء بعد لبث الموقى آلاف السنين . فبعض

فعاله تعالى تشبه بعضاً ﴿ فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى لما ظهر واتضح له ما ذكر قال : أعلم علماً يقينياً مؤيداً بآيات الله فى نفسى والآفاق أن الله على كل شيء من الأشياء قدير لا يستعصى عليه أمر . النشر بالراء : خلاف الطى . والنشر بالزاي : المرتفع من الارض

﴿ ولما قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ ﴾ أى واذكر وقت قول ابراهيم لربه أرنى كيف يكون إحياء الموتى وما وقع حينئذ من عجب صنعه لتقف على هدايته تعالى للؤمنين وولايته لهم . وخلاصة المعنى يا رب أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى ﴿ قال أرأيتم قال بلى ﴾ أى قال : ألم تعلم ذلك وتؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته ؟ قال : بلى علمت ذلك وصدقت بالخبر ، ولكن تأقت نفسى للخبر والوقوف على هذا السير ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بالبيان بعد خبر الوحي . وليس فى سؤال ابراهيم ما يشعر بالشك ، فالإنسان قد جبل على طلب المزيد فى العلم والرغبة فى الوقوف على أسرار الخليفة ، وأكمل الناس علماً أشدهم رغبة فى طلب الوقوف على المجهولات ﴿ قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل

على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ قال تعالى لابراهيم أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن أجزاء ثم يفرقها على عدة جبال ثم يدعوها فتجيبه مسرعة . وقد فعل ابراهيم ، والله بعزته غالب على أمره وبحكمته قد جعل أمر إعادة موافقا لحكمة التكوين . هذا ملخص معنى الآية عند الجمهور ، وغالفهم أبو مسلم المفسر الشهير - قال : فى القرآن كثير من الأمر الذى يراد به الخبر ، والكلام هنا مثل لإحياء الموتى ومعناه خذ أربعة من الطير فضعها إليك وأنسها حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك فإن الطيور من أشد الحيوان استعدادا لذلك ، ثم اجعل كل واحدة منها على جبل ثم ادعها فانها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك ، كذلك أمر ربك إذا أراد لإحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين (كونوا أحياء) فيكونوا أحياء كما كان شأنه فى بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض اتنيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

التفسير

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) وهي ما يوصل الى مرضاته من المصالح العامة لا سيما ما كان نفعه أعم وأثره أبقي (كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) أي كمثل أبرك بذر في أخصب أرض نما أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة سبع مائة ضعف، وذلك منتهى الخصب والنماء، أي أن هذا المنفق يلقى جزاءه في الدنيا مضاعفاً أضعافاً كثيرة فالمثل للتكثير لا للحصر ولذلك قال (والله يضاعف لمن يشاء) فيزيد على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر، وقيل يضاعف تلك المضاعفة التي ضرب لها المثل (والله واسع) لا ينحصر فضله ولا يحدد عطاؤه (عليم) بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم لإخلاصهم الى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمناً طويلاً، كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وترقية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تشوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها

﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ﴾
 أن هذه الآية لبيان ثواب الانفاق في الآخرة بعد التنويه بمنفعة الدنيا ، وقد شرط
 لهذا الثواب ترك المن والأذى ، فأما المن فهو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن
 إليه ، أو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقاً .
 وأما الأذى فهو أعم ، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه بما ربما
 يكون أشدَّ عليه مما لو ذكره له ، أو أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه . إن من
 يقرن النفقة بالمن والأذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلاً لا يستحق أن يدخل في

الذين ينفقون في سبيل الله أو يوصف بالسخاء المحمود عند الله ﴿ لهم أجرهم عند
 ربهم ﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم من رب قادر كريم ، فقد أضافهم إليه تشریفاً
 لهم وإعلاء لشأنهم ﴿ لا خوف عليهم ﴾ يوم يخاف الناس وتفزعهم الأحوال ،
 ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يوم يحزن البخلاء المسكون عن الانفاق في سبيل الله

﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ القول المعروف يتوجه
 تارة الى السائل إن كانت الصدقة عليه ، ويتوجه الى المصلحة العامة كما إذا هاجم البلد
 عدو وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه فن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول
 المعروف الذي يحث على العمل وينشط العامل ويبعث عزيمته الباذل ، والمغفرة أن
 تغضى عن نسبة التقصير في الانفاق اليك ، وأن تظهر في هيئة لا ينفر منها المحتاج ولا
 يتألم من فقره أمامك . والمعنى أن مقابلة المحتاج بكلام يسر وهياة ترضى خيراً من
 الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فرق في المحتاج بين أن يكون
 فرداً أو جماعة ، وإن أضمن شيء لمصلحة الأمة وأقوى معزز لها هو أن يكون كل
 واحد من أفرادها في عين الآخر وقلبه في مقام المعين له وإن لم يعنه بالفعل . وإن
 هذه الآية مقررة لقاعدة درة المفاسد مقدم على جلب المصالح ، التي هي أعظم
 قواعد الشريعة ، ومبينة أن الخير لا يكون طريقاً ووسيلة إلى الشر ، ومرشدة إلى
 وجوب العناية بجعل العمل الصالح خالياً من الشوائب التي تفسده وتذهب بفائده
 كلها أو بعضها ﴿ والله غنى ﴾ بذاته وبما له من ملك السموات والأرض عن صدقة

عباده ، وهو غنى عن قبول صدقة يتبعها أذى لأنه لا يقبل إلا الطيبات ﴿ حلیم ﴾ لا يجعل بعقوبة من يمن ويؤذى ، وهذا انذار لهم أن لا يغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم وعدم معاجلتهم بالعقاب على كفرهم بنعمه عليهم بالمال ، فانه يوشك أن يسلبها عنهم في يوم من الأيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَنَاتَتْ أَكْثُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَظُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

التفسير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ أى ان المن والاذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة ، إذ أن كل عمل لا يؤدي إلى الغاية منه فقد حبط

وبطل كأن لم يكن ﴿ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾
 أى لا تبطلوا صدقاتكم بأى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرئياً
 الناس أى لأجل أن يروه فيحمدوه لا لابتغاء مرضاة الله بتجرى ما حدث عليه من
 رحمة عباده الضعفاء والمودين ، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها ، وهو لا يؤمن
 بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿ فمثل كفيل صفوان عليه تراب

فأصابه وابل فتركه صليداً ﴾ أى إن صفة عمل المنافق المرائى كصفة تراب على حجر
 أملس نزل عليه ماء مطر شديد فأزاله وترك الحجر صليداً نقياً لا تراب عليه .

والوجه المشترك بينهما أن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالاً كما يرى التراب
 على الصفوان ، فإذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضطل ذلك كله وذهب لأنه لم
 يكن لله ، كما يذهب الوابل المطر ما كان على الصفوان فيتركه أملس لا شيء عليه .

﴿ لا يقدر على شيء مما كسبوا ﴾ أى لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم ونفقاتهم ولا
 يجنون ثمراتها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لأن المن والأذى مما ينافى غاية الصدقة ومن
 فعلهما كان أبغض إلى الناس من البخيل الممسك ، والرياء لا يخفى على الناس ، وأما فى
 الآخرة فلا ثواب فيها إلا للخالصين فى أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى فى
 تزكية نفوسهم وإصلاح حال الناس ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ فالكافر محروم
 من الهداية التى تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل وسعادة الدنيا والآخرة .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أى لطلب
 رضوان الله ولتثبيت أنفسهم وتمكينها فى منازل الإيمان والاحسان حتى تكون
 مطمئنة فى بذلها لا يثار عنها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص لا يثارها حب
 الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان ﴿ كمثل جنة

برية ﴾ أى كجستان بمكان مرتفع من الأرض . واختار بعضهم أن المراد بالبرية
 الأرض المستوية الجيدة التربة بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو . ويؤيده كونه
 المثل مقابلاً لمثل الصفوان الذى لا يؤثر فيه المطر ﴿ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ﴾
 أى أصابها مطر فكان ثمرها مثلى ما كانت تثمره فى العادة أو أربعة أمثاله على القول

بأن ضعف الشيء مثله مرتين ، والأكل كل ما يؤكل (فان لم يصبها وابل فطل)
 أى فالذى يصيبها طل وهو المطر الخفيف المستدق القطر يكفيها لجودة تربتها وكرم
 منبتها وحسن موقعها . ووجه الشبه أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه
 هو فى إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة
 الخصب فى كثرة بره وحسنه ، فهو يجود بقدر سعته ، فان أصابه خير كثير أغدق
 ووسع فى الانفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره ، بخيره دائم وبره لا
 ينقطع ، لأن الباعث عليه ذاتى لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء (والله
 بما تعملون بصير) يذكرنا بأنه لا يخفى عليه الخالص من المرائى ، فانه يقول : ان
 الله لا يخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك أيها المنفق ، فعليك أن تخلص له . وأما
 المثل الثانى فقولہ (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها
 الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه السكر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه
 نار فاحترقت) الاستفهام لانكار وقوع أن يود الانسان لو تكون له جنة معظم
 شجرها من السكر (العنب) والنخل اللذين هما أجمل الشجر وأنفعه ، كثيرة المياه
 حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة ، قد نيطت بها آماله ورجا أن ينتفع بها عياله ،
 ويصيبه السكر الذى يقعهه عن الكسب فى حالة كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا
 بشأنه وشأنهم حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة ، وبينما هو كذلك
 إذا بالجنة قد أصابها الأعصار (ريح عاصفة) فأحرقها بما فيه من سموم النار . أما
 وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائى ، والمثل ينطبق أيضا على من أبطل صدقته بالمن
 والأذى وأنه ليس خاصا بالآخرة ، فان باذل المال للفقراء وفى المصالح العامة يكون
 له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها
 ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشتهد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون
 له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن ينجى منها فيحول دون ذلك
 إعصار من المن والأذى أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤث
 ثمرتها ولا تسر رؤيتها ، كذلك عاقبة أهل الرياء وذوى المن والإيذاء ينبذهم الناس
 عند شدة حاجتهم إلى الناس ، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل إلى التفكير فى عاقبة هذا

العمل فقال ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أى أنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها مثل هذا البيان الباسر في أبهى معارض التمثيل ﴿ لعالمك تفكرون ﴾ فى العواقب فتضعون نفقاتكم فى المواضع التى يرضاها مع الاخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والاعجاب فيدفعها إلى المن والاذى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله وسع عليم (٢٦٨) يوتى الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألب (٢٦٩) وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَتَعْمَا هِيَ وَإِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

التفسير

كانت الآيات السابقة فى إرشاد ما يتعلق بالبدل والبازل ، ثم أراد تعالى أن يبين لنا ما ينبغى مراعاته فى المبدول ليكمل الإرشاد فى هذا المقام فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ﴾ أى تصدقوا ﴿ من طيبات ما كسبتم ﴾ أى من حلال ما كسبتم بالتجارة

والصناعة ﴿ وما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى أنفقوا وأخرجوا من الحبوب
والثمار والمعادن ، والمراد بالانفاق أن يكون فى سبيل الخير وأعمال البر والمنافع
العامة التى ترفع شأن الأمة لمحاربة الفقر والمرض والجهل وإيجاد مؤسسات قومية من
صناعية وتجارية واجتماعية لرفع مستوى المعيشة ونهوض الأمة وتقديمها فى نوع ما
يبدل وينفق ووصفه ، فهو أن يكون من الطيبات ، والطيب هو الجيد المستطاب
وضده الخبيث المستكره ، ولذلك قال فى مقابل هذا الأمر ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه
تتفقون ﴾ أصل تيمموا تيمموا ، والمعنى أنفقوا من جباة أموالكم ولا تيمموا أى
تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد ، فهو نهى عن حصر الصدقة
فى الخبيث ، ولا يدل على منع التصديق به من غير تعمد ولا حصر ﴿ ولستم بأخذيه
إلا أن تغمضوا فيه ﴾ وهذا يشعر بالتقريع والتوبيخ ، أى كيف تقصدون الخبيث
منه تصدقون ولستم ترضون مثله لأنفسكم إلا أن تنسأهوا فيه تساهل من أغمض
عينيه عنه فلم ير العيب فيه ، ولن يرضى ذلك لنفسه أحد إلا ويرى أنه مغبون
مغموض الحق ﴿ واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ فلا يصح أن يتقرب إليه بما لا يقبله
لردامته إلا فقير اليد أو فقير النفس الذى لا يبالي أن يرضى بما ينافى الحمد كقبول
الردى الذى يدل على عدم التعميم والاحترام
أما نوع ما يكسب فهو بعض ما يجنيه المرء بعمله ككسب الفعلة والتجار والصناع
والمهندسين والأطباء والمحامين ، وبعض ما يخرج من الأرض من غلات الحبوب
وثمرات الشجر ، والمعادن والركاز وهو ما كان دفين فى الأرض قبل الاسلام ، وكل
ذلك فضل من الله يجب شكره له بنفقة بعض الجيد منه فى سبيله وابتغاء مرضاته .
والآية لم تخصص ولم تعين مقدار ما ينفق ، بل وكلته إلى رغبة المؤمن فى شكر الله تعالى
فإن ورد دليل آخر يعين بعض النفقات فله حكمه .

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ معناه أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الانفاق يذهب بالمال
ويقضى إلى سوء الحال ، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن
من الحاجات ، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وبأمركم بالفحشاء ﴾ فإن الأمر هنا عبارة

عما تولده الوسوسة من الإغراء ، والفحشاء البخل وهى فى الأصل كل ما خش أى اشتد قبحه ، وكان البخل عند العرب من أخش الفحش ﴿ والله يعلمكم ﴾ بما أنزله من الوحي وبما أودعه فى النفوس الذكية من الإلهام الصحيح والعقل الرجيع من حب الخير والرغبة فى البر ﴿ مغفرة منه وفضلا ﴾ فانه جعل الانفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب إليه من قلوب من يكون سببا فى رزقهم ، وهذا الفضل من الجاه بالحق ﴿ والله واسع عليم ﴾ فهو إذا وعد أنجز لسعة فضله ثم يعلم أين يضع مغفرته وفضله . وقول آخر أن اسم ﴿ عليم ﴾ يفيد هنا أنه سبحانه وتعالى يعلم غيب العبد ومستقبله ، والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغير لا يعبا به العاقل النحرير .

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ الحكمة هنا العلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الإرادة توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل إدرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ ان الله جعل الخير الكثير مع الحكمة فى قرن فهما لا يفرقان كما لا يفرق المعلوم عن علته التامة ، فالحكمة هى العلم الصحيح المخرب للإرادة إلى العمل النافع الذى هو الخير ، وآلة الحكمة هى العقل السليم المستقل بالحكم فى مسائل العلم ، فهو لا يحكم إلا بالدليل ، فتمى حكم حزم فأمضى وأبرم ، فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أى وقد جرت سنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثرا يبعث على العمل إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب والقلوب السليمة من المعاييب .

﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ يستحل قليلها وكثيرها سرها وعلايتها ، ما كان منها فى حق وما كان منها فى شر ، ما كان عن إخلاص وما كان رياء الناس ، وما أتبع منها بالمن والأذى وما لم يتبع بشئ منها ﴿ أو نذرتم من نذر ﴾ والنذر هو التزام فعل الشئ بلفظ يدل عليه ، كقول الناظر : لله على كذا ، وعلى كذا ، أو نذرت

لله كذا ، وينبغي أن يكون في طاعة ، لانه لا يتقرب إليه تعالى الا بالطاعة ، فإن نذر فعل معصية حرم عليه أن يفعلها . وإن نذر مباحا فعله ، لأن فسح العزائم من النقص ﴿ فان الله يعلم ﴾ أى فانه تعالى يعلم ما ذكر من النفقة أو النذر ، ويجازى عليه إن خيرا أو خيرا وإن شرا فشر ، فالجمله وعد ووعيد وترغيب وترهيب ، ثم أكد ما فيها

من الوعيد بقوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم العذاب بجاههم أو يقتدونهم بما لهم ، كقوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ والظالمون في مقام الانفاق هم الذين ظلموا أنفسهم اذ لم يزكوها ويطهروها من هذه الفحشاء (البخل) أو من رذائل الرياء والمن والاذى - فظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم ، وظلموا الملة والأمة بترك الانفاق في المصالح العامة وبما كانوا قدوة سيئة لغيرهم ، فظلمهم عام شامل ، فهل يعتبر بهذا أغنياء المسلمين وهم يرون أمتهم قد صارت يبتخلهم أبعد الامم عن الخير بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس ؟ أم انهم لا يجهلون أن المال هو القطب الذي تدور عليه جميع مصالح الأمم في هذا العصر ، وأنهم لو شاءوا لا نتشلوا هذه الأمة من هذتها ، وعادوا بها الى عزتها ، ولكنتهم

قوم ظالمون قساة لا يتوبون ولا يتذكرون ﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ أى فنعم شيئا إبدائها ، وأصلها نعم ما هي أى فنعم الشيء ونعم الأمر اظهارها واعلانها ، أى ليس في إبدائها كراهة ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ أى إن إعطائها للفقراء في الخفية والسر أفضل من الابداء ، لما في الاخفاء من البعد عن شبهة الرياء ومثارة ، ومن إكرام الفقير وتحامى لإظهار فقره وحاجته . وقيل خير لكم من الخيور وليس بمعنى التفضيل ، ويؤيد الأول زيادة الجزاء بقوله ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى ويمحو عنكم بعض سيئاتكم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى لا يخفى عليه نيائكم في الابداء والاخفاء ، فان الخبير هو العالم بدقائق الأمور

إن الصدقات في الآية عامة تشتمل الزكاة والتطوع ، وفي هذا المقام خاصة بالتطوع لأن الفرائض لارياء فيها ، وهى شعائر لا ينبغي إخفاؤها ، لأنها لو أخفيت لتوهم منعها ، وظهور الاسلام وقوته باظهار شعائره وفرائضه ، ولما كان القدوة

أطلق في الآية لفظ الفقراء. والفقهاء لم يمنعوا صدقة التطوع عن غير المسلم، وإنما قالوا إن الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام خاصة بالمسلمين، وكذلك زكاة الفطر. ولم يمنعوا صدقة التطوع عن مسلم ولا كافر ولا بر ولا فاجر، بل قالوا إذا اضطر الذي أو المعاهد إلى القوت وجب على المسلمين سد رمقه، كما يجب عليهم سد رمق المسلم المضطر، إلا من أهدر الشرع دمه. وعموم نصوص القرآن والاحاديث تدل على أن الله كتب الرحمة والاحسان على كل شيء، ومن ذلك حديث الصحيحين «في كل كبد رطبة أجر»، يعني في جميع الأحياء (إنسان وحيوان)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا
وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
(٢٧٢) للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض
يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ لِخَافٍ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) الَّذِينَ
يَاْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَاتَّهَبَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

التفسير

(ليس عليك هدام) نزلت هذه الآية لإرشاد المسلمين الى عدم التخرج من الاتفاق على المشركين لأنهم غير مهديين ، ومن شأن المؤمن أن يكون خيره عاما إذا كان النبي ﷺ لم يكلف بهداية الكافرين بالفعل وإنما كلف البلاغ فقط .

واعلم أن أمر الناس في الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن ، فغيره أولى بأنه يكلف ذلك ، فليس علينا إذا أن نمنع الخير عن الكافر عقوبة له على كفره أو جذبا له إلى الإيمان واضطرازا إلى الهداية فإن الهداية ليست

علينا (ولكن الله يهدي من يشاء) بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدى إلى الاعتقاد الجازم الذي يثمر العمل ، وأما الباعث على الاتفاق فيجب أن يكون ما أرشدنا إليه

سبحانه (وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم) أى أن نفعه عائد عليكم في الدنيا ، ومعنى كونه خيرا في الدنيا أنه يكف شر الفقراء ويدفع عنهم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاق بهم الأمر واشتدت بهم الحاجة يتدفعون على أهل الثروة بالسرقة والنهب والايذاء بحسب استطاعتهم ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، وربما صار فسادا عاما بسوء القدوة

فذهب بالأمن والراحة من الأمة (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أى لا تنفقون لأجل جاه أو مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين معطى ومعطى إذا كان الفقير مستحقا يتقرب بآلة ضرورته إلى الرزاق

الرحيم الذي لم يحرم أحدا من رزقه لاعتقاده (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) أى في الآخرة لا ينقصكم منها شيء . وعد أولا بأن خير الاتفاق على المنفقين في

الدنيا بقوله (فلا أنفسكم) ثم وعد عليه بالجزاء عليه في الآخرة موفى تاما وقال

(وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من الجزاء عليه شيئا ولو فقيرا أو قتيلا

(للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) الاحصار في سبيل الله يدل :

(١) على أن المراد بالاحصار المانع من الكسب ما كان ترك الكسب فيه لسبب اضطرارى ، ويفهم منه أن حبس النفس في سبيل الله — أى في الأعمال المشروعة

التي تقوم بها المصالح كالجهاد والعلم — لا ينبغي أن يمنع الإنسان عن الكسب الذي يستطيعه للقيام بأدائه ، بل يطلب منه أن يعمل للمصلحة العامة في أوقات الفراغ من العمل الذي به قوام معيشته ، فإن ترك الكسب مختاراً لم يحمل له أن يأخذ الصدقة ، وأما إذا كان الكسب متعذراً وجب عليهم ترك الكسب وحبس أنفسهم في سبيل الله ، وكانوا بذلك محصرين بالاضطرار الشرعي ، ووجبت نفقتهم في بيت المال وإلا فعل أغنياء الأمة .

(٢) ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ أي أنهم عاجزون عن الكسب .
والضرب في الأرض هو السفر لنحو التجارة ، وبذلك فسرهُ المفسرون هنا

(٣) ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي إذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف ، وهو المبالغة في التزهد عن الطمع فيما في أيدي الناس

(٤) ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أي بعلاماتهم الخاصة بهم ، وهذه تترك لفراصة المؤمن الذي يتحرى بالانفاق أهل الاستحقاق ، فصاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر

(٥) ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي لا يسألون الناس شيئاً مما في أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين .

والسؤال محرم في الإسلام لغير ضرورة . ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : المسألة لا تحمل إلا لثلاثة : (١) لذي فقر مدقع ، (٢) أو لذي غرم مفطع (كدفع مظالم وحفظ مصلحة) ، (٣) أو لذي دم موجع ، (الذي يتحمل الدية عن الجاني) . وقال أيضاً : من سأل وعنده ما يغنيه فأنما يستكثر من جرمهم ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه قال : ما يغديه أو يعيشه ،

﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ لا يخفى عليه حسن النية فيه وتحري النفع به ووضعه في موضعه وإيتاؤه أحق الناس فأحقهم به فهو يجازى عليه بحسب

ذلك ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية﴾ وفيه بيان عموم الأوقات مع عموم الأحوال من الأظهار والاختفاء ، وفي تقديم الليل على النهار والسرا على العلانية إيدان بتفضيل صدقة السر ولكن الجمع بين السر والعلانية يقتضى أن لكل منهما موصفا يقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم ، وفي إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم ﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم يخاف البخلاء المسكون من تبعه بخلمهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون . لما حث الله تعالى على الاتفاق وبين ما يحصل للمنفق من الأجر العاجل والآجل ، عقبه بذكر الربا الذى ظنه الجاهل زيادة فى المال وهو فى الحقيقة محق فى المال فقال : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾ بتنفير من الربا وتبشيع لحال آكله ، والمراد بالآكل الأخذ لأجل التنفير عنه ، وأكثر مكاسب الناس تنفق فى الآكل . (الربا) فى اللغة الزيادة ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم ، والرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : آخر عني دينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه . أما قيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدوا حتى ضريت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعى ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، ويظهر ذلك فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، كما تراه فى حركات المولعين بأعمال البورصة المفرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك فى أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط المسوس ، فإن التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم وكخط العشواء . وإذا كان ما شنع به على المرائين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن يبعثوا عليه فإن المرء يبعث على مامات عليه ، لأنه يموت على ما عاش عليه . وهناك

تظهر صفات النفس الخسيسة في أخس مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية في

أبهى مجالها (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) أى ذلك الاكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع فان البيع معاوضة بين شيئين ، وأما الربا الذى كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الاجل لا يقابلها شئ ، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل ، لذلك حرم الله الربا دون البيع

(وأحل الله البيع وحرم الربا) ولو كانا متساويين لما اختلف في حكمهما عند أحكم الحاكمين ، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض فهو بيع حلال ، وإنما تحرم الزيادة التى يأخذها صاحب المال لاجل التأخير في الاجل وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهى ظلم (فمن جاءه موعظة

من ربه فانتبهى فله ما سلف) تقدم الكلام عن الوعظ وكون أحكام القرآن مقرونة بالوعظ ، فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا ونهيه عنه وترك الربا فوراً بلا تراخ ولا تردد انتهاء عما نهى الله عنه فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من

أخذه منهم بل يكتفى فيه بأن لا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئاً (وأمره إلى الله) يحكم فيه بعده ، ومن العدل أن لا يؤخذ إلا بما أكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه ، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة وتوىء الى أن رد ما أخذ من قبل النهى الى أربابه الذين أخذ منهم من أفضل

العزائم (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ومن عاد الى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه هم أهل النار الذين يلزمونهم كما يلزم صاحب

صاحبه فيكونون خالدون فيها (يمحى الله الربا ويربى الصدقات) المراد بالمحق هو ما يلاقى المرابي من عداوة الناس ، وما يصاب به في نفسه من الوسوس وغيرها ، أما عداوة الناس فمن حيث هو عدو المحتاجين وبغيض المعوزين ، وقد تقضى العداوة والبغضاء الى مفسد ومضرات واعتداء على الاموال والانفس والثرات ، وقد ظهر أثر ذلك في الأمم التى فشا فيها الربا إذ قام الفقراء فيها يعادون الأغنياء ويتألب العمال عليهم ، حتى صارت هذه المسائل أعقد المسائل عندهم ، ولو قرأنا ما يكتبه

الاشتراكيون عن أصحاب رؤوس الأموال فهم لا يرضون إلا بمحققهم وسلبهم لأموالهم الذين يرون أنهم ما أخذوها الا سرقة واغتصابا من أجورهم وتنمية أموالهم بالباطل وأما إرباء الصدقات فهو زيادة فائدتها وثمرتها في الدنيا وأجرها في الآخرة . فعنى يحق الله الربا ويربى الصدقات أن سنته قضت في عابد المال الذى لا يرحم معوزا ولا ينظر معسرا إلا بمال يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محروما من الثمرة الشريفة للثروة ، وهى كون صاحبها ناعما عزيزا شريفا عند الناس لكونه مصدرا للخيرهم والتفضل عليهم واعانتهم على زبائنهم ، كما يكون محروما في الآخرة من ثواب المال ، فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن يحق ماله وهلاك ، وقضت سنته في المنصديق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله (والله لا يحب كل كفار أثيم) قالوا لا يحب لا يرضى ، والكفار المستحل للربا ، والأثيم المقيم على الأثم ، والكفار هنا هو المتنادى على كفر نعم الله عليه بالمال ، اذ لا ينطق منه في سبيله ولا يواسى به المحتاجين من عباده ، والأثيم هو الذى جعل المال آلة للجذب مافى أيدي الناس الى يده فافترض اعسارهم لاستغلال اضطرابهم (١) .

(١) نتج عن استغلال أصحاب رؤوس الأموال للفقراء والمعوذين مذهب الاشتراكية ، وهم يقولون ان الاموال الوفرة التى فى أيدي الأغنياء أخذت في الغالب خلسة من ألوف البائسين . والاشتراكيون يعلمون أن المساواة في الرزق لا تتحقق ، ولكنهم يرجون أن تتم المساواة في الفقر على أيديهم

مذاهب الاشتراكية متعددة الأنواع مختلفة في الاشكال . ولكن أشيع مذاهب الاشتراكية متحدون في أحقادهم على المجتمع ورأس المال وأصحاب الأعمال ، ويقترحون للقضاء على هذه الأمور ايجاد وسائل واحدة . فسلم القلب منهم يرغب في نزع الاموال من أيدي أصحابها ، وأما المغالى فيضيف الى ذلك إبادة المغلوبيين (راجع كتاب روح الاشتراكية تأليف الدكتور غستاف لوبون تعريب الاستاذ زعيتر)

وما مشا كل العصر الحاضر من الناحية المالية والنزاع القائم بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال إلا صدق لآيات الربا الذى حذر منه القرآن الكريم وأندر . وقد تحقق وعيده . وهذه آية من آيات صدقه وأنه تنزيل من علم خبير

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ
كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)
وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(٨١٣)

التفسير

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدقوا بإذعان بما جاء من عند الله فى هذه المسألة
كغيرها (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى الأعمال التى تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش
معهم ، ومنها مواصلة المحتاجين والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين ، ومن سنة
القرآن أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح فى مقام الوعد ، لأن الإيمان الحقيقى المقرون
بالإذعان يتبعه العمل الصالح حتما لا يتخلف عنه ، وهذا برهان على ما قلناه فى تفسير
الآية السابقة (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) التى تذكر المؤمن بالله تعالى فتزيد فى إيمانه ووجه
لربه ومراقبته له حتى يسهل عليه طاعته فى كل شئ (وَأَتَوُا الزَّكَاةَ) التى تتركى النفس
من رذيلة البخل والحرص وتمرتها على أعمال البر حتى تسهل عليها ويكون ترك
أموال الناس بالربا أسهل . وذكر الصلاة والزكاة بعد الأعمال الصالحة التى تشملهما
لأنها أعظم أركان العبادة النفسية والمالية ، فمن أتى بهما كاملتين سهّل عليه كل عمل
صالح (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) تقدم نظير هذا

الجزء قريبا فلا حاجة لاعادة التذكير بمعناه ، وجملة الآية تعريض بأكل الربا كأنه يقول لو كان من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكف عنه لكنه كفار أثيم وتمهيدا لما بعدها وهو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ وصفهم بالايمن وذكرهم بالتقوى ، ثم انتقل إلى الامر بترك ما بقى من الربا لمن كانوا يرابون منهم عند غرماهم ، ثم وصل ذلك بقوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن كان إيمانكم تاما شاملا لجميع ما جاء به محمد ﷺ من الأحكام فذرُوا ما بقى من الربا ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى فإن لم تتركوا ما بقى لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا واستيقنوا بأنكم على حرب من الله ورسوله ، إذ نبذتم ما جاءكم به رسوله عنه - وحرب الله لهم بغضبه وانتقامه - وهذا الانتقام أو هذه الحرب وقعت بالفعل بين أصحاب رموس الأموال والعمال وفيما بين أصحاب رموس الأموال وبعضهم مع بعض وقد نشأ عن ذلك الاستعمار لتنمية رموس الأموال ، ثم النزاع بين الدول المستعمرة ، مما أدى إلى الحرب العالمية الأولى والثانية ، فأتت الحروب على محق هذه الأموال بما أعدته من أدوات الحرب من طائرات ودبابات وغواصات ، ففسدت الديار وخربت الأوطان وأهلك الحث والنسل ، ولا يزال العدا مستحكما بين أصحاب رموس الأموال (المرايين) وبين العمال الذين يستغلون من ناحية ، وفيما بين أصحاب رموس الأموال وبعضهم مع بعض لايجاد أسواق لشتمير أموالهم عن الربا وعن طريق الاستعمار البغيض الذى أصبح على وشك الزوال ﴿ وَإِنْ تَبْتُمْ ﴾ ورجعتم عن الربا امتثالا وخضوعا ﴿ فَلَكُمْ رَمُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ غرماكم بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تَظْلُمُونَ ﴾ بنقص شيء من رأس المال بل تأخذونه كاملا ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ أى وإن وجد غريم معسر من غرمائكم فأنظروه وأمهلوه إلى وقت يسار يتمكن فيه من الأداء ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ ﴾ أى وتصدقكم على المعسر بوضع الدين عنه وإبرائه منه خير لكم من إنظاره فهو تدب إلى الصدقة والسماح للمدين المعسر لما فيه من التعاطف والتراحم بين الناس وبر بعضهم ببعض ، وذلك من أعظم أسباب هناء المعيشة وحسن حال الأمة ، ولذلك نيه إلى العلم بذلك فقال ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لأن من لا يعلم وجه الخيرية في شيء لا يعمل

ومن علم عمل حتما ، فعليكم بالعلم الذي يهديكم الى خير العمل الذي يقرب بعضكم من بعض ويجعلكم متحابين متوادين (واثقوا يوما ترجعون فيه الى الله) أى لا يشغلكم حب الدنيا بكثير المال وجمعه من حرام وحلال عن التفكير فى سلطان الله وقدرته والتقرب اليه بما فيه تمام حكمته — التذكير بيوم القيامة — الذى تبطل فيه هذه الشواغل وتلاشى هذه الصوارف ، حتى لا يشغل الانسان فيه شيء ما عن الله تعالى وما أعدّه من الجزاء للعباد على قدر أعمالهم ، ولذلك قال بعد التذكير (ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى تجازى على ما عملت فى الدنيا جزاء وافيا (وهم لا يظنون) أى ولا ينقصون من أجورهم شيئا ، بل قد يزداد المحسنون منهم فيعطون أكثر مما يستحقون على إحسانهم .

يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليمال الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل ليه بالعدل وأشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا ياب الشهداء إذا مادعوا ولا تسموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجرة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ
تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُم بَعْضًا فليُؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَهُ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أَمَّا قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ
(٢٨٣) اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ
يَحْاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

التفسير

لما أمر سبحانه بانظار المعسر وتأجيل دينه عقبه ببيان أحكام الحقوق المؤجلة

وعقود المدائنة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ ﴾ تدايَنْتُمْ دَايَنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وهو يَأْتِي بِمَعْنَى تَعَامَلْتُمْ بِالدِّينِ ، والمراد
بِالدِّينِ الْمَالُ الَّذِي يَكُونُ فِي الذِّمَّةِ ، والدِّينُ عَامٌ يَشْمَلُ الْقَرْضَ وَالسَّلَامَ وَبَيْعَ الْأَعْيَانِ
إِلَى أَجَلٍ وَهُوَ الصَّوَابُ ، وَالْأَجَلُ الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لَانْتِهَاءِ شَيْءٍ ، وَالْمُسَمًّى الْمَعِينُ
بِالتَّسْمِيَةِ كَشَهْرٍ وَسَنَةٍ مِثْلًا ، فَاكْتُبُوهُ مَعْنَاهُ فَاكْتُبُوا الدِّينَ فِي صَكٍّ لئَلَّا يَقَعَ فِيهِ
فُسْيَانٌ أَوْ جَحْوُدٌ ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ تَوْثِيقًا لِلْحَقِّ ، لِأَنَّهُ ذَلِكَ أَدْفَعُ لِلزَّعَاوِ وَأَقْطَعُ لِلخِلَافِ .

بعد أن أمر بالكتابة إجمالاً بين كيفيتها ومن يتولاها فقال ﴿ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ
بِالْعَدْلِ ﴾ أى لِيَكُنْ فِيكُمْ كَاتِبٌ لِلدِّينِ عَادِلٌ فِي كِتَابَتِهِ يَسَاوِي بَيْنَ الْمُتَعَامِلِينَ وَهُوَ
أَمْرٌ لِلْمُتَدَايِنِينَ بِتَخْيِيرِ الْكَاتِبِ ، وَأَنْ لَا يَسْتَكْتَبُوا إِلَّا فُقِيهَا دِينًا ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ
يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ وَمَعْنَى هَذَا أَنْ يَكُونَ كَاتِبُ الدِّينِ عَادِلًا عَارِفًا بِالْحَقِّ وَالْأَحْكَامِ

فِيهَا حَتَّى لَا يَقَعَ التَّنَازُعُ بَعْدَ فِيمَا يَكْتُبُهُ ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةُ النَّاسِ يُحِبُّ عَلَيْهِ إِذَا دُعِيَ إِلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا أَنْ يُجِيبَ

الدعوة ، ولذلك لم يكتب بالنهي عن الإباء عن الكتابة بل أمر بها أمرا صريحا فقال ﴿ فليكتب ﴾ وهذا ظاهر أنه تأكيد ، لأن الموضوع غريب في نظر الأمين الذين خطبوا به أولا ﴿ وليلل الذي عليه الحق ﴾ أى ويليق على الكاتب ما يكتبه من عليه الحق من المتعاملين ليكون لإملاؤه حجة عليه تبينها الكتابة وتحفظها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى إملاؤه بأن يبين الحق الذى عليه كاملا ﴿ ولا يبخس منه شيئا ﴾ أى ولا ينقص منه شيئا ما وإن قل ، ﴿ فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل ﴾ ففسروا السفيه بضعيف الرأى أى من لا يحسن التصرف فى المال بضعف عقله ، والضعيف الصبي والشيخ الهرم ، ومن لا يستطيع الإملاء هو الجاهل والألكن والأخرس ، وولى الإنسان من يتولى أموره ويقوم بها عنه ، وقد اكتفى فى أمر الولي بالعدل . ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أى اطلبوا أن يشهد على ذلك رجلان من حضر ذلك منكم أو أشدهما على ذلك ، والشهيد من شهد الشيء وحضره بامعان من رجالكم ، والخطاب للؤمنين يدل على أنهم لا يستشهدون من لم يكن منهم ﴿ فان لم يكونا ﴾ أى من تستشهدونهما ﴿ رجلين ﴾ جعل المفسرون الضمير للشاهدين بحسب الإرادة والقصد ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ يستشهدان ، أو فليستشهد رجل وامرأتان ﴿ من ترضون من الشهداء ﴾ قالوا أى من ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء ﴿ أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى ﴾ وشهادة المرأتين شهادة واحدة فاذا تركت إحداها شيئا من الشهادة كأن نسيتها أو ضل عنها تذكرها الأخرى وتتم شهادتها ، وللقاضى بل عليه أن يسأل إحداها بحضور الأخرى ويعتد بجزء الشهادة من إحداها وبقايتها من الأخرى ﴿ ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ إلى تحمل الشهادة وظاهر النهى أن الامتناع عن الشهادة تحملا وأداء محرم وأن الاجابة واجبة ، وقد صرح من قال بذلك بأنه فرض كفاية لا يجب على من دعى إليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم به ﴿ ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ﴾ أى لا تمهلوا ولا

تضجروا ولا تكسوا من كتابة الدين أو الحق سواء كان صغيرا أو كبيرا مبينا ثبوته في الذمة إلى أجله المسمى ﴿ ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ الخطاب للمؤمنين والاشارة الى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها ، وتلك سنة القرآن في بيان حكمة الحكم وعليه الأمر والنهي . ومعنى كونه أقسط عند الله أنه أعدل في حكمه أى أخرى باقامة العدل بين المتعاملين . ومعنى كونه أقوم للشهادة أنه أعون على إقامتها على وجهها ﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ بينكم معناه وأقرب إلى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ﴾ والمعنى الاستثناء من الكتابة ذلك مطلوب أو أحب إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة أو إلا أن تكون توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين بالتعاطي بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن فلا حرج في ترك كتابتها ولا إثم . وفي نفي الجناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى ، وهو إرشاد إلى استحباب ضبط الانسان لماله وإحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه . ﴿ وأشهدوا إذا تباعتم ﴾ قيل معناه هذا التباع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة ، واكتفى بالشهاد لتلاني ما عساه يقع منهما من المجاحدة ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى الكاتب والشهيد أن يضر أحد المتعاملين بعدم الاجابة أو التحريف والتغيير ونحو ذلك ، ومعنى آخر نهى المتعاملين عن ضرر الكاتب أو الشهيد بأن يدعي إلى ذلك وهما مشغولان بهم لهما فيكلفان تركه ، والمتبادر من النهي أنه عن مضارة المتعاملين للكاتب والشهيد ﴿ وإن تفعلوا ما نهيتهم عنه من ضرار الكاتب والشهيد ﴾ فانه فسوق بكم ﴿ أى فان هذا الفعل خروج بكم عن حدود طاعة الله تعالى إلى معصيته ﴾ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم ﴿ أى اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم فانكم لولا هدايته لا تعملون ذلك ، وهو سبحانه العليم بكل شئ فاذا شرع شيئا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه

ثم ذكر سبحانه حكم الوثيقة بالرهن عند عدم الوثيقة بالأشهاد فقال: ﴿وإن كنتم﴾
 أيها المتدانيون المتبايعون ﴿على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾ رهان جمع
 رهن بمعنى مرهون ، وليس تعليق مشروعية أخذ الرهن بالسفر وعدم وجود كاتب
 يكتب وثيقة الدين لاشتراطهما معا ، وإنما المراد بيان الرخصة في ترك الكتابة
 لعذر ، وكون الرهن يقوم مقام الكتابة في الاستيثاق عند عدم تيسرهما كما يكون في
 حال السفر ، وإلا فقد رهن النبي ﷺ درعه في المدينة ليهودي ﴿فإن أمن بعضهم﴾
 بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمأنته وليتق الله ربه ﴿والمعنى ان اتفق أن أحدا منكم
 ائتمن آخر على شيء فعلى المؤمن أن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه وليتق الله ربه فلا
 يتخون الأمانة شيئاً انه لا حجة عليه بها ولا شهيد ، فإن الله ربه خير الشاهدين ، فهو
 أولى بأن يتق ويطاق

﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ القلب لب الانسان وآلة
 عقله وشعوره ، وكتان الشهادة عبارة عن حبس ذلك فيه ، وقد جعله الآثم أى
 موضع الآثم في هذا السكتان . ودلت الآية على أن الانسان يؤاخذ على ترك
 المعروف كما يؤاخذ على فعل المنكر ، لأن الترك في الحقيقة فعل للنفس يعبر عنه ما
 يكتم والسكتان في مثل هذه الشهادة وبالكف في غيرها ، ولكل مقام مقال ، فكل
 ذلك يعبر فعلاً وعملاً فلذلك قال ﴿والله بما تعملون عليم﴾ وفي هذا من الوعيد ما
 مر بيان مثله

﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية متصلة بما قبلها ، ويصح أن تكون
 متممة لها لأن مقتضى كونه عليماً بكل شيء أن له كل شيء ، فهذا كالدليل على كونه عالماً
 بكل شيء ، أى انه عليم به لأنه وهو خالفه فهو كقوله ألا يعلم من خلق ، ولهذا
 الاستدلال يتقرر النهى عن كتم الشهادة وكونه آثماً يعاقب عليه وأكده بقوله
 ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ كأنه يقول إن تساهلتم في هذه
 الأحكام وأضعتم الحقوق فنتظاهرتُم بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة وغالطتم
 الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك فإن الله يحاسبكم

ويعاقبكم على ذلك ، لأن له ما في السموات والأرض ، ومنها أتم وأعمالكم النفسية والبدنية ، وجعلها بعضهم متعلقة بأحكام السورة كلها ، والمراد بقوله ﴿ ما في أنفسكم ﴾ الأشياء الثابتة في أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات التي يترتب عليها ترك النهي عن المنكر ، فإن السكوت عن النهي عن أمر كبير يحمل الله عقوبته في الأمة بسببه ، أما إبداء ما في النفس فهو إظهاره بالقول أو الفعل ، وأما إخفاؤه فهو ضده ، والابداء والإخفاء ميان عند الله لأنه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ والمراد في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان ، وأما المحاسبة فهي على ظاهرها ، ذلك أن للنفوس على اعتقاداتها وملكتها وعزائمها وإرادتها موازين - يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر - هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازن الأعراض كالحر والبرد ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي فهو بما له من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من يشاء عذابه ، وشأن الله تعالى في المحاسبة أن يذكر الإنسان أو يسأله لم فعلت ، فيبعد أن يرى العبد أعماله الظاهرة والباطنة يغفر أو يعذب ، فمن الناس من لم تصل أعماله المنكرة إلى أن تكون ملكات له ، فإله سبحانه يغفرها له ومنها من تكون ملكات فهو يعاقبه عليه ، وهو يفعل ما يشاء ويختار ، والآية إنذار وتحذير ليس فيها موضع للقطع بمغفرة ذنب ما وإن كان صغيرا ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي فهو بقدرته ينفذ ما تعلقت به مشيئته

أامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا
وإليك المصير (٢٨٥) لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما

اَكْتَسَبْتَ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا اِنْ نَسِينَا اَوْ اَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا اِصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا اَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

التفسير

(آمَن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) أى صدق الرسول بما أنزل
اليه فى هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبيئات والهدى تصديق
إذعان واطمئنان ، وكذلك المؤمنون من أصحابه عليهم الرضوان ، (كل آمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله) أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه وكمال
صفاته وحكمته وسننه فى خلقه ، وبوجود الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين
الرسل من البشر ينزلون بالوحى على قلوب الأنبياء ، وأما البحث عن ذواتهم ما هى
وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هى فهو مما لم يأذن به الله فى دينه ، والمراد بالايمان
بالكتب والرسل جنسها أى يؤمنون بذلك إيماناً إجمالياً فيما أجمله القرآن وتفصيلاً
فيما فصله لا يزيدون على ذلك شيئاً ويقولون (لا نفرق بين أحد من رسله) والمعنى
أن من شأن المؤمنين أن يقولوا هذا معتقدين أنهم فى الرسالة والتشريع سواء أكثر
قوم الرسول أو أقلوا وكثرت الأحكام المنزلة عليهم أم قلت وتقدمت البعثة أم تأخرت
(وقالوا سمعنا وأطعنا) أى تلقنا القول فسمعنا سماع وعى وفهم ، وأطعنا ما أمرنا
به فيه إطاعة إذعان وانقياد (غفرانك ربنا واليك المصير) أى يسألونه تعالى
أن يغفر لهم ما عساه يطرأ على أنفسهم فيعوقها عن الرقى فى معارج الكمال الذى دعاها
اليه الايمان ، والغفران والمغفرة الستر وستر الذنب يكون بعدم الفضيحة عليه فى الدنيا
وترك الجزاء عليه فى الآخرة ، وإنما يطلب هذا بالتوبة واتباع السيرة الحسنة مع
الدعاء الذى يزيد فى الايمان ، وبذلك يمحى أثر الذنوب من النفس فى الدنيا فيرجى

أن تصير اليه تعالى في الآخرة نقية زكية ، لأن هذا المصير وحده هو الذي يكون وراء
الجزاء بحسب درجات النفوس في معارج الكمال

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ولا يحاسبها إلا على ما كلفها . والتكليف هو
الالزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الانسان من غير حرج ولا عسر . والمعنى
أن شأنه تعالى وسننه في شرع الدين أن لا يكلف عباده ما لا يطيقون . ﴿ لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت ﴾ الآية تدل على أن فطرة الانسان مجبولة على الخير ، وأنه يتعود
الشر بالتكلف والتأسي ، والمعنى أن لها ثواب ما اكتسبت من الخير وعليها عقاب
ما اكتسبت من الشر لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها . ﴿ ربنا
لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ المراد بالنسيان هنا لازمه وهو ترك الامتثال ،
وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروى ، فهذا الدعاء لا يدل على
أن حكم الله في النسيان والخطأ أن لا يؤاخذ عليهما ، بل قصارى ما يؤخذ فيه أنه بما
يرجى العفو عنهما ، إذا وقع العبد فيهما بعد بذل جهده والاحتياط والتحرى والتفكر
والتذكر وأخذ الدين بقوة وشعر بتقصيره فلجأ إلى الدعاء الذى يقوى في النفس
خشية الله تعالى والرجاء بفضله .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا ﴾ الإصر العبء الثقيل يأصر صاحبه أى يحبس
مكانه لا يستقل به لثقله ، وحمله أكثر المفسرين على التكليف الشاقة ﴿ كما حملته على
الذين من قبلنا ﴾ أى من الأمم التى بعث فيها الرسل ، وهو يتضمن الامتنان علينا
وإعلا مئنا ، فإن كان يجوز أن يحمل علينا الإصر ذاته فانه يجب علينا الشكر لذلك
﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ من العقوبة أو من البلايا والفتن والمحن .
ذهب بعض المفسرين الى أن المراد به الشرائع والأحكام ، والمعنى ربنا لا تحمل
علينا ما يشق علينا من الأحكام بل حملنا اليسير الذى يسهل علينا حمله ، ربنا ووفقنا
لحل ما حملتنا والنهوض به كما تحب وترضى لكيلا نستحق بمقتضى سننك أن تحملنا
ملا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين في دينهم المسرفين في أهوائهم ﴿ واعف عنا ﴾

يعنى أن ما عسانا أن نلم به في أنفسنا وعدم العقوبة عليه (واغفر لنا) أى لا تفضحنا باظهاره بذاته ولا بالمواخذة عليه (وارحمنا) في كل حال بما توقفنا له من إقامة دينك والسير على سننك التي جعلتها بحكمك طرقا للسعادة (أنت مولانا) الذى منحتنا أنواع الهداية ، وأيدتنا بالتوفيق والعناية ، فلا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين بسواك (فانصرنا على القوم الكافرين) انصرنا على الجاحدين لآياتك ، وسننك وأحكامك ، وعلى المرتابين منهم بالحجة والبرهان ، وعلى المعتدين منهم بالسيف والسنان ، وغير ذلك من أسباب حماية الحق التي تختلف باختلاف الزمان

إن الله سبحانه ما علينا هذا الدعاء لأجل أن نلوكه بألسنتنا ونحرك به شفاهنا فقط ، بل علينا إياه لأجل أن ندعوه به مخلصين له ، لاجئين اليه ، بعد أخذ ما أنزله بقوة العمل به على قدر الطاقة ، واستعمال ما يصل اليه كسبنا من الوسائل والذرائع التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة . فمن دعاء بلسان مقالته ولسان حاله معاً فإنه يستجيب له بلا شك ، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام وتنكب السنن فهو بدعائه كالساحر من ربه الذى لا يستحق إلا مقته وخذلانه .

وتوقف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم . فلا يكون الداعي داعياً حقيقة كما يحب الله ويرضى إلا اذا كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسنن الاجتماع ، واتبعه بقدر استطاعته . فاذا اتخذت الأمة الوسائل التي أمرت بها ، ودعت الله تعالى أن يثبتها ويتم لها ما ليس في وسعها من أسباب النصر فإن الله يستجيب لها حتماً كما قال تعالى (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ونصر الله التزام طاعته واتباع شريعته وأخذ العدة لكل أمر - فاذا صدقت الثنية وحسن العمل كان الله لدعاء عباده السميع المجيب . ونصره منهم قريب . فנסاله تعالى الهداية والتوفيق الى أقوم طريق

الختام

سورة البقرة

مكاتها - أهدافها - أثرها

كان لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية الفصحاء البلغاء الحكماء ، أدرك الإسلام وحسن إسلامه ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشدته فقرأ عليه سورة البقرة ، فقال : انما سألتك عن شعرك ، فقال : ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران . فأعجب عمر قوله ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقال كثير من أهل الأخبار أن لبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم .

هذه القصة على إيجازها وقصرها فيها الدلالة الكافية على مكانة القرآن من الفصاحة التي أعجزت الفصحاء ، والبلاغة التي دانت لها البلغاء ، والحكمة التي صمت أمامها الحكماء . قال ابن العربي سمعت بعض أشياخي يقول : ان في سورة البقرة ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر . وتعلمها عمر رضي الله عنه بفتحها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة ، وابنه عبد الله في ثمانين سنة . ويقال لها فسطاط القرآن ، وذلك لعظمها وبهاثها وكثرة أحكامها ومواعظها . وهي أول سورة نزلت بالمدينة .

الأهداف التي ترمى إليها وآثارها

لو أن مجي الإصلاح من المسلمين وغير المسلمين اجتمعوا في صعيد واحد ، وبحشوا عن قانون شامل ، ومنهج واضح لانقاذ الانسانية الحاضرة مما حل بها من البلاء ولدفع ما نزل بها من الشقاء ، ولتنوير لها طريق السعادة والهناء ، لما وجدوا خيراً من سورة البقرة بأن يحفظوها ويعملوها ويعلموها للناس ويعملوا بها ، فهي سورة جامعة لسعادة الدارين ، والفوز بالحسنين ، لأنها محيطة بقواعد الإصلاح الشامل للأفراد والجماعات ، مبينة الطريق السوي وما فيه من جهد ومشقة ، وماذا

يجب أن يعرف المصلح من أخلاق الناس ، وماذا يجب أن يكونوا عليه من أخلاق ومعاملات :

(١) افتتحت هذه السورة بأن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم الذى نزل على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ، فهو دليل الهداية والرشاد ، مبين طرق الخير والسداد فى هذه الحياة وما بعدها . ثم بعد ذلك عرف سبحانه الرسول ما تلقاه الهداية والاصلاح من قبول وإعراض ومقاومة وعدوان ، فأبان سبحانه أن البشرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أصحاب الفطرة السليمة والعقول الراجحة ، وهم الذين يتقبلون دعوة المصلح ويعينونه ويؤازرونه بأنفسهم وأموالهم ، وهم المؤمنون المستجيبون للدعوة . والقسم الثانى وهم الذين انغمسوا فى شهواتهم وملذاتهم فطمست قلوبهم وصمت آذانهم فاصبحوا عبيدا لنزواتهم وضلالاتهم ، فهم يحددون كل دعوة تخالف هواهم ، وهم حرب على كل إصلاح . أعداء سافرون لكل مصلح ، وهؤلاء هم الكافرون . والقسم الثالث هم الضعفاء المذبذبون الذين يعيشون لمنافعهم ، فهم مع داعى الإصلاح ظاهرا لتلبس المنفعة وتجذب الأذى من أتباعه ، غير مؤمنين بالدعوة فى سرائرهم ، وهم مع شياطينهم من الرؤساء والمنابذين للدعوة ، وهم المنافقون ، وهم عنصر خطر جدا على نجاح الدعوة فيجب أن يحذروا

هذا التقسيم الحكيم لم يكن خاصا بزمى الرسول ﷺ ، وإنما هو تعريف من الله سبحانه لطبائع الخلق الذين يوجدون فى كل زمان وفى كل بيئة كبرت أو صغرت ، فكل من أراد أن يسير بسيرة الرسول ويدعو إلى الإصلاح - وهو ما يطالب به كل قادر عليه فى أى ناحية من نواحي الحياة الدينية أو الاجتماعية أو اقتصادية أو سياسية - عليه أن يعرف ما ستلقاه دعوته فلا ييأس ولا يتبرم ولا يقول صعب الطريق وطال الانتظار ، بل يجب أن يسير قدما مستهينا بكل تضحية مهما كبرت حتى يحقق الخير المنشود لسعادة الهيئة الاجتماعية . وقد قص القرآن الكريم من عبر الماضى ما فيه المقتنع تسليية وحضا على الثبات والمثابرة والصبر والجلد فى مقاومة الباطل . والاصلاح مطلوب فى كل زمان وفى كل بيئة ، والقرآن يدعو اليه ويحض عليه .

ثم انتقل الكتاب الكريم بعد هذه المقدمة التى لا بد أن يعرفها كل مصلح وكل

داع إلى الإصلاح إلى أساس وحدة الإصلاح ، وهي قائمة على التوحيد وتكريم الانسان .

التوحيد

كرم الله الانسان وأبان له عن الحقيقة العليا بأنه لا إله إلا الله وأنه لا رب سواه ، فخره بذلك من أسر المعبودات ، وقد أقام له الحججة تلو الحججة والبرهان تلو البرهان حتى يعرف عن يقين ويستبين له الطريق القويم ، وكانت هذه الدعوة الخالدة أساسا يراد به تكريم الانسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد ، والمؤاخاة ، والمساواة ، والحرية ، والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هي الغايات التي ترجو الانسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية .

« والتوحيد من الكلم الجوامع التي وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا . »

وفكرة الوحدة الانسانية هي من أبرز جوانب السورة وفي سبيلها صدق الاسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبي أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إلى خطة واحدة وكلمة سواء ، ثم وصل الدين بالدين - وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ، فالأولى كان ههما الصفق والاجترار (التجارة والعمل) ، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك - ولكن الاسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا بهديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لاواء العيش ، فلا يبغي قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط . ثم وثق عرى الاخاء بين المجاهدين في سبيل الله ، حتى صار المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأصبح هؤلاء الإخوان القلائل الضعاف في بضع سنين أئمة الناس ، وورثة لكسرى وقصر ، وفي سبيل الوحدة الانسانية والاخوة الاسلامية فرض الاسلام الزكاة وشرع الحج وأمر بالاحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على

اختلاف أسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات بمحو العصية الوطنية ، وقتل النمرة الجنسية . وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم في خطبة الوداع « إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . » إن أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ،

في هذه الأصول الإسلامية كما ترى أفضل ما في الديمقراطية ، وأعدل ما في الاشتراكية ، وأجمل ما في المدنية . فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا . ولقد كانت كذلك يوم كان لحماها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولما تقديها يقين ،

هذه الدعوة التي تحلم الإنسانية اليوم بتحقيقها ، وقد تحققت في سالف الزمان في ناحية من نواحي المعمورة ، وهي أمنية مستقبل الأيام ، كان إحدى دعائمها الجهاد حامي ذمارها وعلى منارها ، هذا الجهاد وقد فرضه سبحانه في هذه السورة على كل قادر من المؤمنين ، ولم تكن وجهته الاستعمار والعدوان ، وإنما دفع الأذى وتوطيد الأمن وحماية العقيدة من كل بغى وطغيان ، وقد شرع بعد الهجرة - أى بعد أن تحمل المسلمون من الاضطهاد والعنف والعنت أكثر من ثلاث عشرة سنة أو ذوا فيها : في أنفسهم ، وفي أموالهم ، بكل أنواع الأذى ، وأخرجوا من ديارهم . وهذا الجهاد له أصول وحدود ، فهو مشروع لحماية الحق ، وتوطيد الحق ، على شرط أن لا يحيف ولا يجور ولا يعتدى () وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين () فهو لا يأمر بقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، ولا بحرق الزرع ، وإهلاك الضرع . ولا يقاتل من لا يقاتله . وحدوده حماية العقيدة والأهل والوطن من كل عدوان حتى يعيش المسلمون أعزة في أوطانهم أحرارا في عباداتهم وعقائدهم .

وكان من تكريم الإنسان تلك القصة التي أبانت لنا في جلاء ووضوح خلق آدم أبي البشر وأن الله سبحانه جعله خليفة في أرضه ، وخلق كل ما يحيط به من سماء وأرض لمنافعه ، وأن أساس هذا الاستمتاع وهذه الخلافة هو العلم ، إذ علم سبحانه آدم الأسماء كلها قبل أن يستخلفه فأصبح العلم شرطاً وأساساً لدعوة كل إصلاح وكل

سعادة ، كما قال ﷺ ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم ، فكل من تخلف عن تحصيل العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة ، وقعد به الجهل عن التقدم والرقى ، بل ساقه إلى الرق والاستعباد وقد ساد المسلمون الأولون لما أخذوا بهدى القرآن الكريم ، فكانت حياتهم بين تحصيل العلم والجهاد ، وهما الدعامتان القويتان في نهضة الأمة وصلاحها .

نرى في هذه السورة الكريمة كيف تبنى الأسرة على خير أساس وأحكم وضع ، وما يجب على الرجل من إكرام زوجته ومعاملتها معاملة النظير للنظير والند للند (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة) وهذه الدرجة هي السياسة الرشيدة ، وإدارة دفة الأمور بحكمة وسداد . وإذا صلحت الأسرة صلح الوطن ، وإذا صلح الوطن صلحت الانسانية بصلاحها .

نرى في هذه السورة أيضا أنه سبحانه أعلن الحرب على أعداء الانسانية الثلاثة : الجهل ، والمرض ، والفقر . أما الجهل فبدعوته إلى العلم ، والمرض فبأكل الطيبات وتحريم الخبائث والاعتدال في المأكل والمشرب في غير إسراف ولا تقتير ، ومحاربة الفقر بدعوة الموسرين إلى بذل الصدقات والانفاق في سبيل الله وذلك محض الرحمة . وثنى بالنهي عن الربا الذي هو محض القساوة ، محض المدالة ، فقد أمرنا الله ببذل المال حيث ينبغى البذل وهو الزكاة والصدقة والانفاق في سبيله ، وبتركه حيث ينبغى الترك وهو الربا ، وبتأخيره حيث ينبغى التأخير وهو انظار المعسر وبحفظه حيث ينبغى الحفظ وهو كتابة الدين والاشهاد عليه وعلى غيره من المعاضات ، وأخذ الرهن اذا لم يتيسر الاستيثاق بالكتابة والاشهاد ، ذلك بأن من يضيع ماله باهمال المحافظة عليه لا يكون محمدا عند الناس ولا ماجورا عند الله ، قال عبد الرحمن بن عوف ، يا حبذا المال اصون به عرضي وأتقرب به الى ربي ، قالت الحكماء : لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه ويحمي به مروءته ويصل به رحمه . وقال خالد بن صفوان لابنه يابني أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمك لمعاشك . ودينك لمعادك . وقال سفيان الثوري : المال سلاح المؤمن في هذا الزمان

وإذا اتقلنا من هذه الأهداف العليا التي ذكرناها موجزة من غير تفصيل ولا إسهاب لنرى أثرها في صاحب الدعوة ﷺ ومن تابعه من المسلمين الأولين رضوان

الله عليهم فانا نرى عجباً : نرى العزيمة القوية في أكبر مضائها ومظاهرها ، فقد كانت غزواته ﷺ وبعوثه وسراياه في عشر سنين أى منذ أنزلت هذه السورة واستجابوا لداعى القتال والجهاد في سبيل دفع الأذى وحماية الدعوة من العدوان هى ما يأتى : فالغزوات سبع وعشرون ، وقيل خمس وعشرون ، وقيل تسع وعشرون ، وقيل غير ذلك . قاتل منها فى تسع : بدر وأحد والخندق وقرية المصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف . أما سراياه وبعوثه فقريب من ستين . والغزوات الكبار الأمهات سبع : بدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وحنين وتبوك . وفى شأن هذه الغزوات نزل القرآن وكان الرسول ﷺ على رأس جيشه لا يمتاز عن أصحابه لافى مطعم أو مشرب أو ملبس وكان من استخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط . وإن فضل شئ . ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل بأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى أن يحتاج إليه . وكان لا يأخذ بما آناه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير .

كان النبي ﷺ القدوة الحسنة فى كل أقواله وأفعاله يميل إلى التقشف ليتشبه الناس به فيقبلوا على العمل ، ويتعدوا عن البطالة والكسل ، فكان يخفف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويحمل حاجياته ، ويخدم أهله .

وكان يعامل أصحابه باللين والحسنى : يمزح ولا يقول إلا حقاً . لم يتخذ من نوع اثنين لاقيصين ولا ردائين . يأكل ما يجد ، وإذا لم يجد شيئاً صبر ، حتى شد الحجر على بطنه الشريف ، وطوى الليالى المتتابعة ، وما أكل من خبز ولا من لحم مرتين فى يوم واحد ، ولا من خبز فى ثلاثة أيام متتالية . وكان أكثر خبزه الشعير ، وأكثر طعامه التمر والماء ، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فقال : يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً أتضرع إليك وأدعوك إذا جمعت ، وأحمدك وأثنى عليك إذا شبع ، هذا قليل من كثير من أخلاق سيد المجاهدين وإمام المسلمين ، والذي دعانا الله سبحانه إلى أن نفتدى به فقال تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾

وقد تابعه فى سيرته الكثير من المسلمين ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر بن الخطاب والتاريخ حافل بما قاما به من جلائل الأعمال ، ويعتبر عصرهما العصر الذهبى فى الإسلام الذى تحققت فيه المبادئ الإنسانية العليا من العدل الكامل وحرية الفكر

والعمل في دائرة الحق والجمال والخير ، وهذا ما نسميه اليوم بالديمقراطية التي شاد
بذكرها المنصفون من كبار كتاب الغرب .

قال الفيلسوف الانجليزي الكبير توماس كارليل : « لقد أخرج الله العرب
بالاسلام من الظلمات الى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامة وأرضا جامدة . وهل
كانت إلا فئة من جبال الأعراب غاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يسمع لها
صوت ، ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ،
فاذا الخول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف رفعة ، والضعف قوة ،
والشرارة حريقا . وسع نوره الانحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال
بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة
العرب رجل في الهند وأخرى في الأندلس ، وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة
ودهورا مديدة بنور الفضل والتبيل والمروءة والبأس ورونق الحق والهدى علي نصف
المعمورة . وكذلك الايمان العظيم وهر مبعث الحياة ، ومنبع القوة . وما زال للأمة
رقى في درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد ، مادام مذهبها اليقين ، ومنهاجها الايمان
السليم . »

إن دعوة الاسلام دعوة إلى إخاء شامل ، وعدل كامل ، لا تدخل فيه الفروق
الجنسية ، بعيد كل البعد عن التحيز إلى العصبية ، فدعوته دعوة لإنسانية عامة تدعو إلى
السلام العام بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وهي كما قال بحق الأستاذ
(الياس خليل زخريا) أمين السر العام لمنظمة الفسائنة المؤلفة من نصارى العرب
بليثان في احتفال مولد النبي ﷺ قال : « ليس مولد ابن عبد الله القرشي العربي مولداً
للبنضاء بين العرب ، ولكنه مولد لقوة ، وتححر وجهاد ، وتسور لتعاون وتكاتف ،
لوضوح وصفاء ، لطمأنينة وثقة ، لجوار ووفاء في الجوار ، لأخوة عربية مقدسة
هي أنقى أخوة عرفها بشري في عين بشري . والذين يعميهم التعصب والجهل فيجعلون
من مولد محمد العربي مولداً لحقد وضيعة ، لعداوة وقطيعة ، لاحتباس وترصص ،
لتذائب وتناحر ، لغدر في الجوار ، هم الذين كفروا (منا ومنكم) مرتين : مرة بدينهم
ومرة بقوميتهم ، والذين يكفرون بدينهم وقوميتهم هم الذين يسمحون جباههم بأقدام
المستعمر ، وفي الوثنية (وحدها) يقبل الناس أقدام الناس . »

إلى أن قال : إن مصيرنا ومصيركم (مصير النصارى ومصير المسلمين) واحد موحد في ضمير القومية : إن القومية هي التوحيد ، والتوحيد وثبة التحرر والتحرير ، وإن الأمة التي لا تنبإ إلى التحرر والتحرير هي الأمة التي تحتقر العبقريّة والعظمة وجوهر الوجود . وهي التي تقدس المسكنة ، والعبودية وفضلات الموائد .

ثم قال : إن أم القرى (مكة) بذت لي (أنا اللبنياني العربي) ملكا ، ومجدا ، وقبة تاريخ ، وأبجدية ما أكل الدهر من حروفها حرفا .

إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل يقتضي الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء بورث الاختلاف والشقاق . وإن الوسيلة إلى النهموض بمهمات الأمور هو الجهاد كما قال تعالى ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ والجهاد يتضمن العمل للصلحة العامة والصبر والمواظبة على الصلاة كما قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وترك التقليد للأباء والأجداد والمشايخ والمعلمين إذا كان في غير حق أو يدعو إلى باطل لأنه جهل وعصية جاعلية .

إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان ، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر ، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به . ولا شك أن كل من له معرفة — ولو قليلة — باللغة العربية فانه يفهم من القرآن ما يبتدى به ، ومن كان أميا أو أعجميا فانه ينبغي له أن يسأل القارئ أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه . فاذا أقبل كل منا على تلاوة الكتاب الكريم وتدبره وعمل بما جاء به : العالم في درسه ، والزارع في حرثه ، والصانع في صنعتته ، والتاجر في تجارته ، والطبيب والقاضي والمحامي والعامل والمرأة والصبي كل في دائرة عمله ، واقتدوا برسول الله صلوات الله عليه ، فحياته من قول وعمل هي المفسرة والمبينة لمعاني القرآن ، لتغير حال المسلمين ، واستبدلوا بضعفهم قوة وبذلهم عزا وباسترقاقهم حرية واستقلالاً ومجدا ، وأصبحوا المثل المعالي لهداية الإنسانية إلى أقوم طريق وأشرف غاية ، وانه لا يصلح الله حال المسلمين إلا بما صلح عليه حال أولهم . والله الهادي والموفق لخير العباد ، بما فيه الخير والسداد .

القرآن

بقلم فقيه البلاغة العربية السيد مصطفى صادق الرافعي

آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب ، بل هي الجنود الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب

أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه أعراف الضمائر ، فابتز أنفالها ، (١)

وكم صدوا عن سبيله صدأ ، ومن ذا يدفع السيل إذا هدر ؟ واعترضوه بالأسنة رداً ، ولعمري من يرد على الله القدر ؟ وتخاطروا له بسفهاهم كما تخاطرت الفحول بأذنان (٢) ، وفتحوا عليه من الحوادث كل شديق فيه من كل داهية ناب ، فما كان إلا نور الشمس لايزال الجاهل يطمع في سراجه ، ثم لا يضع منه قطرة في سقائه . ويلقى الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ، ثم لايزال النور ينبسط على غطاءه

وهو القرآن ، كم ظنوا بما انطوى تحت أسنتهم وانتشر ، كل ظن في الحقيقة آثم ، بل كل ظن بالحقيقة كافر ، وحسبوه أمراً هيناً لأنه أنزل في الأرض على بشر ، كما يحسب الأحمق في هذه السماء أرضاً ذات دواب نورانية .. لأن هلالها كأنما يسقط من حافر

(١) الأعراف : الأمكنة العالية . والانفال : الغنائم

(٢) إذا تصالوات الفحول من الأبل تخاطرت بأذنانها كأنها يهدد بعضها بعضاً

وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل ، وأثاروا من الباطل
في بيضاء ليلها كسهارها ليجعلوا نهارها كالليل ، فما كان لهم إلا ما قال الله ﴿ بل
نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل ﴾

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس
الحياة الآخرة

تذكر الدنيا فيها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فيها جنتها وضرامها .
ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن
أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب 
ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البیان ، ورقة تستروح منها نسيم
الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الامان ، وبيننا هي ترف بندي
الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ،
وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتتم بسر هذا العالم الصغير ، ثم بينا هي تتساقط من
الافواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة
ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الانسانية حتى يظن أنه صنف آخر
من الانسان ؛ إذا هي بعد ذلك لإطباق السحاب وقد انهارت قواعده ، والتفت
ناره وقصفت في الجو رواعده ، وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض
ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة ، تتبعها
الرادفة ، وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، فاذا الخلق طعام الفناء ، وإذا
الأرض « مائدة »

توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هذا هو السحر المبين .
وكانوا يأخذون في ذلك بباطل الظن ، فأخذوا في هذا بحق اليقين . ﴿ أفسحر
هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ومن الشعر ما تسمعون أم أنتم لا تسمعون ؟

بلى إنه لسحرٌ يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته ، وينفذ حتى يتصرف بين القلب وإرادته ، ويجرى فى الخواطر كما تصعد فى الشجر قطرات الماء ، ويتصل بالروح فكأنما يمدُّ لها بسبب إلى السماء

وإنه لسحر ، إذ هو الحافظ لم تعهد من كلم أحداقها ، وثمرات لم تنبت فى قلم أوراقها ، ونور عليه رونق الماء ، فكأنما اشتعلت به الغيوم ، وماء يتلألأ كالنور فكأنما عصر من النجوم

وبلى إنه لشعر ، ولكن زنة مبانیه فى معانيه ، وزينة معانيه فى مبانیه ، فكل معنى ولا جرم من بحر ، وكل لفظ كؤلوة فى النحر وإنه لشعر ، إذ هو آيات لا يحانس كلامها البديع غير كالمها ، وحقيقة فى الوجود لم يكن يعرف غير خيالها ، ومرآة فى يد الله تقابل كل روح بمثالها

يقولون مجنونٌ بعضُ آلهتنا اعتراه ^(١) ، وأساطير الأولين اكتبها أم يقولون افتراه

بلى ، إن العقل الكبير فى كماله ، ليتمثل فى العقول الصغيرة كأنه جنون . وإن النجم المنير فوق هلاله ، ليظهر فى العيون القصيرة كأنه نقطة فوق نون . وهل رأوا إلا كلاماً تضى أفاضله كالمصابيح ، فعصفوا عليه بأفواههم كما تعصف الريح . يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأين سراج النجم من نفخة ترتفع إليه كأنما تذهب تطفئه . ونور القمر من كف يحسب صاحبها أنها فى حجمه فيرفعها كأنما يخفيه . وهيات ، هيات ، دون ذلك درجُ الشمس — وهى أم الحياة — فى كفن ، وإنزالها بالأيدي — وهى روح النار — فى قبر من كهوف الزمن

لا جرم أن القرآن سرُّ السماء ، فهو نور الله فى أفق الدنيا حتى تزول ، ومعنى الخلود فى دولة الأرض إلى أن تدول

فهرست المجلد الاول من هداية القرآن لبنى الانسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

صفحة	صفحة
٣٤ الذى جعل لكم الارض فراشا	٣ مقدمة الكتاب
٣٥ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا	١٨ تفسير الفاتحة
٣٦ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا	٢٢ سورة البقرة
٣٧ وبشر الذين آمنوا	٢٢ تفسير ألم
٢٨ ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا	٢٣ ذلك الكتاب لا ريب فيه
٣٩ الذين ينقضون عهد الله	٢٤ الذين يؤمنون بالغيب
٤٠ كيف يكفرون بالله	٢٤ والذين يؤمنون بما أنزل إليك
٤٠ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا	٢٤ أولئك على هدى من ربهم
٤٢ وإذا قال ربك للملائكة	٢٦ إن الذين كفروا
٤٣ وعلم آدم الاسماء كلها	٢٦ ختم الله على قلوبهم
٤٣ قالوا سبحانك لا علم لنا	٢٨ ومن الناس من يقول آمنا
٤٣ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم	٢٨ يخادعون الله والذين آمنوا
٤٥ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	٢٨ فى قلوبهم مرض
٤٦ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة	٢٩ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض
٤٧ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما	٣٠ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
كانا فيه	٣٠ وإذا لقوا الذين آمنوا
٤٧ فالتقى آدم من ربه كلمات	٣٠ الله يستهزئ بهم
٤٨ قلنا اهبطوا منها جميعا	٣١ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
٤٨ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا	٣١ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا
٤٩ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى	٣٢ صم بكم عى فهم لا يرجعون
٥٠ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم	٣٢ أو كصيب من السماء
٥١ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٣٣ يا أيها الناس اعبدوا ربكم

٦٤ وإذ قال موسى لقومه — الى قوله —

فذبجوها وما كادوا يفعلون .

٦٥ واذا قتلتم نفسا فادارأتم فيها

٦٧ ثم قسمت قلوبكم من بعد ذلك

٦٨ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم

٦٨ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا

٦٨ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون

وما يعلنون

٦٩ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب

٦٩ فويل للذين يكتبون الكتاب

٦٩ وقالوا ان تمسنا النار إلا أياما معدودة

٧٠ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته

٧١ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل

٧٣ وإذ أخذنا ميثاقكم

٧٣ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم

٧٤ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا

بالآخرة

٧٥ ولقد آتينا موسى الكتاب

٧٦ وقالوا قلوبنا غلف

٧٦ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق

لما معهم

٧٧ بثما اشتروا به أنفسهم

٧٧ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله

٧٨ ولقد جاءكم موسى بالبينات

٧٩ وإذ أخذنا ميثاقكم

٥١ ولا تلبسوا الحق بالباطل

٥٢ أمأمرن الناس بالبر

٥٣ واستعينوا بالصبر والصلاة .

٥٣ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم

٥٣ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي

٥٤ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا

٥٥ وإذ نجيناكم من آل فرعون

٥٥ وإذ فرقنا بكم البحر

٥٥ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة

٥٥ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك

٥٦ وإذ آتينا موسى الكتاب

٥٦ وإذ قال موسى لقومه

٥٧ وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك

٥٧ ثم بعثناكم من بعد موتكم

٥٧ وظللنا عليكم الغمام

٥٩ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية

٦٠ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم

٦٠ وإذ استسقى موسى لقومه

٦٠ وإذ قلم يا موسى لن نصبر لك على

طعام واحد

٦٢ إن الذين آمنوا

٦٢ وإذ أخذنا ميثاقكم

٦٣ ثم توليتم من بعد ذلك

٦٤ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت

٦٤ فجعلناهم نكالا لما بين يديها

٩٤ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله

٩٥ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا

٩٥ ولن ترضى عنك اليهود

٩٦ الذين آتيناهم الكتاب

٩٨ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي

أنعمت عليكم

٩٨ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس

شيئا

٩٩ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن

٩٩ وإذا جعلنا البيت مثابة للناس

١٠٠ وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا

آمنا

١٠١ وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت

وإسماعيل

١٠١ ربنا واجعلنا مسلمين لك

١٠٢ ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم

١٠٣ ومن يرغب عن ملة إبراهيم

١٠٣ إذا قال له ربه أسلم

١٠٤ ووصى بها إبراهيم بنيه

١٠٤ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت

١٠٥ تلك أمة قد خلت

١٠٦ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا

١٠٦ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

١٠٨ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا

١٠٩ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة

٧٩ قل إن كانت لكم الدار الآخرة

٧٩ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم

٨٠ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة

٨١ قل من كان عدوا للجبريل - إلى قوله -

فإن الله عدو للكافرين

٨٢ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات

٨٣ أو كلما عاهدوا عهدا

٨٣ ولما جاءهم رسول من عند الله

٨٣ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان

٨٥ ولو أنهم آمنوا واتقوا

٨٥ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا

٨٦ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

٨٦ ما ننسخ من آية أو ننسها

٨٧ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض

٨٨ أم تريدون أن تسألوا رسولكم

٨٩ ود كثير من أهل الكتاب

٩٠ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

٩٠ وقالوا لن يدخل الجنة

٩٠ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن

٩١ وقالت اليهود ليست النصراني على شيء

٩٢ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن

يذكر فيها اسمه

٩٢ والله المشرق والمغرب

٩٤ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه

٩٤ بديع السماوات والأرض

١٠٩ قل أنحاجوننا في الله

١٠٩ أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل واسحاق

١١٠ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده

١١٠ تلك أمة قد خلت

(الجزء الثاني)

١١٢ سيقول السفهاء من الناس

١١٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطا

١١٣ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها

١١٤ قد نرى تقلب وجهك في السماء

١١٤ ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب

١١٥ الذين آتيناهم الكتاب

١١٦ الحق من ربك

١١٦ ولكل وجهة هو موليها

١١٧ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر

المسجد الحرام

١١٧ لئلا يكون للناس عليكم حجة

١١٨ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم

١١٩ فاذكروني أذكركم

١٢٠ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر

١٢١ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله

١٢١ ولنبلونكم بشئ من الخوف

١٢٢ الذين إذا أصابتهم مصيبة

١٢٣ إن الصفا والمروة من شعائر الله

١٢٤ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات

١٢٥ إلا الذين تابوا وأصلحوا

١٢٥ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار

١٢٥ وإلهمكم إله واحد

١٢٦ إن في خلق السماوات والأرض

١٢٨ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا

١٢٩ إذ تبرأ الذين اتبعوا - إلى قوله -

وما هم بخارجين من النار

١٣١ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض

١٣١ إنما يامركم بالسوء والفحشاء

١٣٢ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

١٣٢ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعى

١٣٣ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

ما رزقناكم

١٣٤ إنما حرم عليكم الميتة

١٣٥ إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من

الكتاب

١٣٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى

١٣٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق

١٣٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل

المشرق والمغرب

١٤١ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم

القصاص

١٤٣ ولكم في القصاص حياة

١٤٤ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت

١٤٤ فبذلعه بعد ما سمعه

١٦٥ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة في

الإثم

١٦٦ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء

مرضاة الله

١٦٧ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة

١٦٧ فان زلتم من بعد ما جاءكم البيئات

١٦٨ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في

ظلل من الغمام

١٦٨ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية

١٧٠ زين للذين كفروا الحياة الدنيا

١٧١ كان الناس أمة واحدة

١٧٢ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة

١٧٣ يسألونك ماذا ينفقون

١٧٣ كتب عليكم القتال وهو كره لكم

١٧٥ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه

١٧٦ إن الذين آمنوا والذين هاجروا

١٧٧ يسألونك عن الخمر والميسر - إلى قوله -

إن الله عزيز حكيم

١٨١ ولا تتحكوا الشركات حتى يؤمن

١٨٣ ويسألونك عن المحيض

١٨٤ نساؤكم حرث لكم

١٨٥ ولا تجمعوا الله عرضة لإيمانكم

١٨٦ لا يؤاخذكم الله في اللغو في إيمانكم

١٨٦ الذين يؤلون من نسائهم - إلى قوله -

فان الله سميع عليم

١٤٤ فن خاف من موص جنفا

١٤٥ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

١٤٦ أياما معدودات فمن كان مريضا أو

على سفر

١٤٧ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

١٤٨ وإذا سألك عبادي عني

١٤٩ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم

١٥١ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل

١٥٢ يسألونك عن الألهة

١٥٣ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم

١٥٣ واقتلوه حيث ثقتموه

١٥٤ فان انتهوا فان الله غفور رحيم

١٥٥ وقاتلوه حتى لا تكون فتنة

١٥٥ الشهر الحرام بالشهر الحرام

١٥٦ وأنفقوا في سبيل الله

١٥٧ وآتوا الحج والعمرة لله

١٥٩ الحج أشهر معلومات

١٦٠ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا

من ربكم

١٦١ ثم أفوضوا من حيث أفاض الناس

١٦١ فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله

١٦٢ ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة

١٦٢ أولئك لهم نصيب مما كسبوا

١٦٣ واذكروا الله في أيام معدودات

١٦٤ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة

الدنيا

صفحة

١٨٧ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة

قروء

١٩٠ الطلاق مرتان

١٩٢ فان طلقها فلا تحل له من بعد

١٩٣ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن

فأمسكنهن بمعروف

١٩٥ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا

تعضلوهن

١٩٦ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين

١٩٧ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا

١٩٨ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من

خطبة النساء

١٩٩ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم

تمسوهن

٢٠٠ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن

٢٠١ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى

٢٠٢ فان خفتم فرجالا أو ركباناً

٢٠٢ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا

وصية لأزواجهم

٢٠٢ وللطلقات متاع بالمعروف - إلى

قوله - لعلمكم تعقلون

٢٠٣ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم

وهم أوف

٢٠٥ وقاتلوا في سبيل الله

٢٠٦ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً

صفحة

٢٠٨ ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل

٢٠٩ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم

طالوت ملكاً

٢١٠ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه

٢١١ فلما فصل طالوت بالجنود

٢١٢ ولما برزوا لجالوت وجنوده

٢١٢ فهزمهم باذن الله

٢١٢ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

٢١٣ تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق

(الجزء الثالث)

٢١٤ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض

٢١٦ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم

٢١٧ الله لا إله إلا هو الحي القيوم

٢١٨ لا إكراه في الدين

٢١٩ الله ولي الذين آمنوا

٢٢١ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه

٢٢٢ أو كالدني مر على قرية وهي خاوية على

عروشها

٢٢٣ وإذا قال إبراهيم رب أنى كيف تحيي

الموتى

٢٢٤ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

٢٢٥ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

٢٢٥ قول معروف ومغفرة

٢٢٦ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم

بالمال والأذى

٢٣٧ يحق الله الربا ويربى الصدقات
 ٢٣٩ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 ٢٤٠ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
 ما بقى من الربا
 ٢٤٠ وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة
 ٢٤١ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
 ٢٤٢ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين
 الى أجل مسمى فاكتبوه
 ٢٤٥ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا
 فراهان مقبوضة
 ٢٤٥ لله ما فى السماوات وما فى الأرض
 ٢٤٧ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه
 ٢٤٨ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
 ٢٥٠ الخاتمة ، سورة البقرة :
 مكاتها - أهدافها - أثرها
 ٢٥٨ وصف القرآن - بقلم الرافعى

٢٢٧ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
 مرضاة الله
 ٢٢٨ أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل
 وأعناب
 ٢٢٩ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما
 كسبتم
 ٢٣٠ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء
 ٢٣١ يوقى الحكمة من يشاء
 ٢٣١ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر
 ٢٣٢ إن تبدوا الصدقات فنعما هى
 ٢٣٤ ليس عليكم هدام لكن الله يهدى من
 يشاء
 ٢٣٤ للفقراء الذين أحصروا
 ٢٣٦ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
 ٢٣٦ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما
 يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس

للمؤلف

الشمس

(خلاف أجرة البريد)

- ١ - أركان الاسلام الخمسة ، وأثرها في حياة الأفراد والجماعات ،
٢٥ وموقف الاسلام من الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية
- ٢ - مكانة العلم في القرآن
٢٥
- ٣ - التعاون
١٥
- ٤ - كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين (٣ أجزاء) :
٣ (الدرس الاول) : في العقائد والعبادات
٣ (الدرس الثاني) : حقوق الله وحقوق الوالدين
٣ (الدرس الثالث) : مكانة المرأة في القرآن
- ٥ - حياة محمد ﷺ
٣
- ٦ - الحج
٣
- ٧ - الصوم
٣
- ٨ - هداية القرآن لبني الانسان : وهو (موجز منتخب لتفسير القرآن)
صدر منه المجلد الاول ، وفيه ثلاثة أجزاء من القرآن من أول الفاتحة
الى آخر سورة البقرة
٣٠

في عالم التأليف

ظهر كتاب

أركان الإسلام الخمسة

وأثرها في حياة الأفراد والجماعات

و

موقف الإسلام من الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية

لحضرة الاستاذ الدكتور

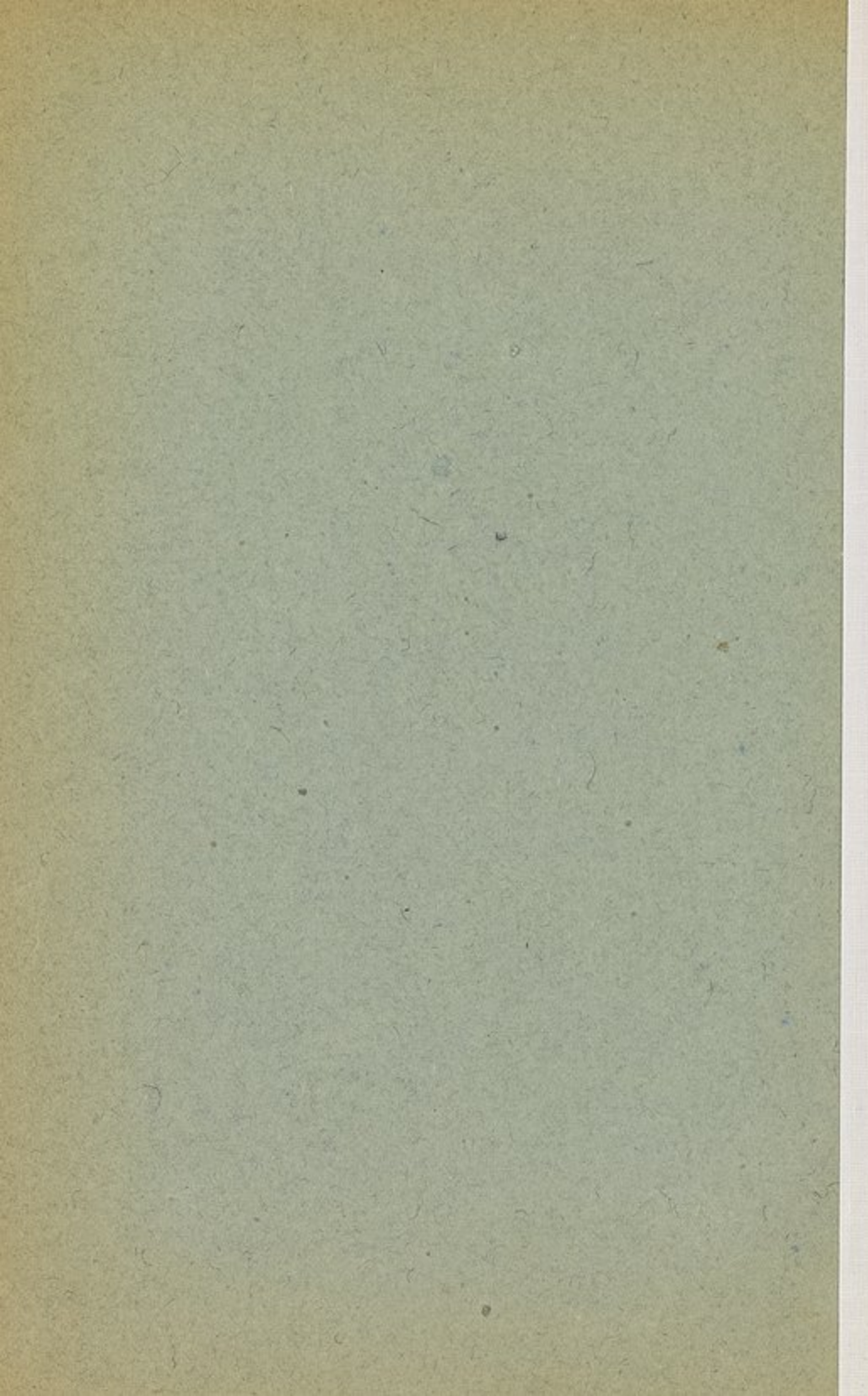
يحيى حميد الدزيري

دكتور في الحقوق ولغتيه في العلوم السياسية
والمادة العامة لمجالاته الإسلامية

التمن ٢٥ قرشا غير أجرة البريد

ويطلب من المؤلف بدار الشبان المسلمين

١٢ شارع الملكة نازلي — القاهرة



الثلثون ٣٠ قرشاً

المطبعة السلفية



Princeton University Library



32101 057497768